

براهين

على أن الإسلام هو الحقيقة التي يبحثون عنها

أو

الإسلام وحقائق العلم

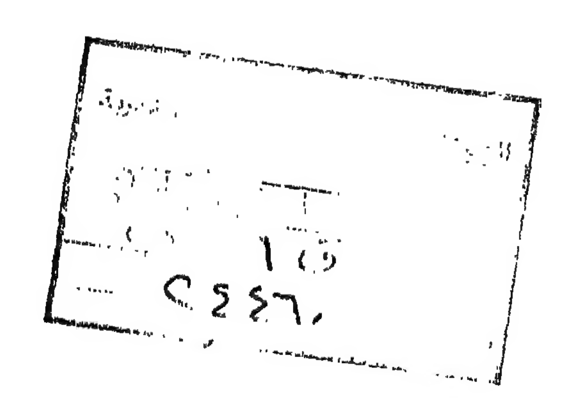
محمود عبد الرؤوف قاسم





قال الله تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ . . . حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾



براهين

على أن الإسلام هو الحقيقة التي يبحثون عنها

أو

الإسلام وحقائق العلم

الطبعة الرابعة - منقحة ومزيدة

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية
(١٩٩٥/٢/٢٢١)

رقم التصنيف: ٦٣ر٢١١

المؤلف ومن هو في حكمه: محمود عبد الرؤوف القاسم

عنوان المصنف: براهين ط٤، مزيدة ومنقحة

رؤوس الموضوعات: القرآن الكريم - بلاغة واعجاز

رقم الإيداع: (١٩٩٥/٢/٢٢١)

الملاحظات: عمان: دار البشير

* تم إعداد الفهرسة الأولية من قبل المكتبة الوطنية



ص.ب (١٨٢٠٧٧) / (١٨٣٩٨٢)
هاتف: (٦٥٩٨٩١) / (٦٥٩٨٩٢)
فاكس: (٦٥٩٨٩٣) تلكس (٢٣٧٠٨) بشير
مركز جوهرة القدس التجاري / العبدلي
عمان - الأردن

Dar Al-Bashir
For Publishing & Distribution
Tel: (659891) / (659892)
Fax: (659893) / Tlx. (23708) Bashir
P.O.Box. (182077) / (183982)
Jerusalem Jewel Trade center Al-Abdali
Amman - Jordan

براهين

على أن الإسلام هو الحقيقة التي يبحثون عنها

أو

الإسلام وحقائق العلم

محمود عبد الرؤوف قاسم





دار البشير للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الرابعة

نشرتُ بعض فصول هـذا الكتاب في مجلة «حضارة الإسلام» التي كـانت تصدر في دمشق، في أعداد سنة ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م وما حولها، وكانت تحت عنوان «آيات».

ثم صـدرت الطبعـة الأولى بـاسم «بـراهين» سنـة ١٣٩٧هـــ - ١٩٧٧م، وبسبب بعض الظـروف لم أصحـح الملازم الثمانيـة الأولى بنـاءً على أن هنــاك من سيصححهـا، فجاءت مملوءة بالأغلاط مع سقوط فقرات منها.

وبسبب الظـروف وبعض تعقيداتها، كُتب على الكتـاب أن حقـوق الطبع محفوظـة لدار الهجرة في بيروت، وهي دار وهميـة ما كان لها وجود، ولا أعرف لها وجـوداً حتى كتابة هذه الكلمات .

كما اقتُصِر بكتـابـة اسم المؤلف على «محمـود القـاسم» ، مع العلم أن عـدة كتّـاب يحملون هـذا الاسم، مما يسبب التباساً لـدى القارىء، وهذا يستدعي إضـافة اسم الأب ليزول الالتباس.

ثم طبع الكتاب الطبعة الثانية والثـالثة دون علم مني، وقد غيروا اسمه إلى «الإسلام وحقائق العلم»، وهكذا استغلوا ظروفي ليتاجروا بالكتاب دون علم مني.

وفي هذه الطبعة الرابعة، أبقيت اسم الكتاب كما كان «براهين» وأضفت إليها عبارة «على أن الإسلام هـو الحقيقة التي يبحثون عنهـا» وأثبتُّ تحتها الاسم «الإسـلام وحقائق العلم» الذي سموه به دون إذن مني ولا علم، لئلا يحدث التباس في الموضوع.

وكذلك أضفتُ في هذه الطبعة الرابعة مواضيع اقتضتها حوادث يجب أن تكون محزنة:

إحداها: صدر كتاب لمؤلف ماركسي يقول بقراءة عصرية للقرآن الكريم، وكانت هذه القراءة العصرية مغالطاتٍ بعضُها فيه مهارة، وبعضها واضح الغلط، ولورُفعت هذه المغالطات من هذا الكتاب، فلا أظن يبقى منه نصف عُشره، يستعمل فيه المؤلف مفردات تُستعمل عادة في بحوث علمية، يصوغها بأسلوب يوهم الجاهل أنها بحث علمي (شأن الأساليب الماركسية في مؤلفاتهم).

قرأه داعية إسلامي متخرج بالشريعة، أظن الخير في نشاطه وفي مقاصده إن شاء الله، وقرأ كتاب «براهين» هذا، فكان تعليقه أن الكتابين مثل بعضهما، كلهما ضلال، أو تخليط.. (كلمات تحوم حول هذه المعاني).

وجوابي عليه، وعلى أمثاله الكثيرين، طبعاً:

١ - الأعمى، تستوي لديه الظلمات والنور.

٢ - أسأل الله سبحانه أن يهديه، ويهدي كل وعاظنا ودعاتنا أن يقرؤوا ويتعلموا ويفهموا، ثم يحكموا ويُفتوا، وأن يعلموا أن حقائق العلم الحديث ليست خرافات ولا أوهاماً.

ثانيها: فاضلٌ أظن فيه الخير إن شاء الله، وأسأل الله سبحانه له الزيادة في الخير، وانطباعي أنه من حملة الشريعة. حدثني مرةً، معلقاً على كتاب «الكشف عن حقيقة الصوفية» فكان مما قاله: عبد المجيد الزنداني وأنت ضالون مضلون، كيف تقول الأرض كروية؟ والله سبحانه يقول: ﴿**أفلا ينظرون ... وإلى الأرض كيف سطحت**﴾؟! وتأتي بأقوال النصارى تفسر بها القرآن الكريم، تقول: «أندُرْفين»...!!.

وجوابي عليه، وعلى أمثاله طبعاً:

١ - الآية التي استشهد بها لا تدل إلا على كروية الأرض، وقد أضفت شرحها في هذه الطبعة الرابعة، وهي من معجزات القرآن لهذا العصر.

٢ - كروية الأرض الآن صارت من بدهيات الأطفال، بينما لا يزال قطاع من قياداتنا الفكرية والاجتماعية يقول بتكفير من يقول بها بناءً على لا شيء، إلا على أوهام

متوارثة وفهم قاصر لنصوص القرآن .

٣ - أما قوله إني أفسر القرآن بأقوال النصارى، فالجواب عليه: إني لا أفسر القرآن بأقوال النصارى، وإنما بحقائق العلم التي كانت مجهولة، وتوصل إليها العلماء في هذا العصر بعد ملايين الدراسات الدقيقة والبحوث الطويلة والتجارب بكل أنواعها، إنها علم بحقائق من حقائق الوجود، وليس هذا العلم أوهاماً كأوهام الأقدمين التي منها اليونانيات، ولا خرافات كخرافاتهم التي منها الإسرائيليات.

ثم لو صح قول هذا القائل عن حقائق العلم إنها أقوال النصارى، لكان النصارى هم أصحاب الحقيقة، ولكان الإسلام دين خرافات. لكن الحمد لله، فقول هذا القائل غير صحيح، وهو لا يعرف ماذا يقول.والنكتة أن كلمة «أندرفين» لم ترد في تفسير قرآن، وإنما في تفسير الجذبة الصوفية.

- **ثالثها:** قيل لي عن عالم كبير من علماء الشريعة إنه قرأ هذا الكتاب «براهين» فلما وصل، في القسم الخامس منه، إلى فقرة «اللاسلكي» وإلى فكرة أن الهاتف اللاسلكي سوف يتطور حتى يصبح صغيراً جداً يمكن وضعه في عذبة سوط أو شراك نعل... وأن هذا سيكون تحقيقاً لقوله ﷺ «... حتى يكلم الرجل عذبةُ سوطه وشراك نعله...».

فقيل لي إن شيخنا عندما قرأ هذه الفقرة كتب عليها معلقاً: «هذا تأويل باطل»!

والجواب:

يا شيخنا، لو دخل عندك رجل وبيده سوط، ورأيت عذبة سوطه، أو شراك نعله، تكلمه ويكلمها، أفلا ترى مباشرة أن هذا تحقيق للحديث الشريف؟ بلى، إنك سترى هذا، وتعتقده، وقد يخطر ببالك أن تقول «الحمد لله الذي صدقنا وعده».

فإذا قيل لك إن الفعل لجهاز صغير موضوع في عذبة السوط، أو في شراك النعل، فهل يا ترى ستسحب كلامك وتقول هذا تأويل باطل؟.

بالتأكيد، إنك لن تفعل هذا، لأن للرؤية الواقعية تأثيراً غير تأثير السمع، وبالتأكيد أيضاً أنه سيترسخ اعتقادك بأن هذا هو تأويل صحيح للحديث الشريف، وهو تحقيق له واضح بين.



مقدمة الطبعة الأولى

قال ﷺ: «ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطي من الآيـات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة[1]».

إن الله سبحانه عنـدما أرسل رسله أعطى كل واحد منهـم من الآيات (المعجزات) ما يستطيع الناس الذين أرسل إليهم أن يدركـوها ويدركوا أنها معجزات إلاهية، لأنهم، بإدراكهم لها، يعرفون أن البشر يعجز عن الإتيان بمثلها، وتكون سبباً لإيمان من يؤمن.

وكانت آيات الرسول تتفق مع مفاهيم عصره.

ففي عصر موسى ﷺ، مثلاً، كان للسحر مكـان الصدارة في العلم والثقافة وكانت الكهانة التي هي مجمع علومهم خليطاً من معـارف بدائية شتى، يشكل السحر عمودها الفقري.

والسحر نوعان:

أ - النـوع الـذي عليـه أكثـر السحرة، وهـو عمليـات تعتمـد على بعض المبـادىء الفيزيـائية والكيميائيـة البسيطة، غير المعروفة للنـاس، مع بعض ألعاب الخفة اليـدوية التي يتقنها السـاحر بالمران، يـرافقها تمتمات لا قيمـة لها في الحقيقة، لكنها تـؤثر في نفس السامع العـادي بكلماتها الغامضة وبـالأجواء التي تحاط بها، مع تهويلٍ ودعايـةٍ يعملان عملهما في النفوس.

---

(١) البخاري (فضائل القرآن) ومسلم (الإيمان).

ب – النوع الثاني الذي هو السحر الحقيقي. ويمكن تقسيمه أيضاً إلى قسمين:

١ – قسم لا يحتاج إلى رياضة، ويمكن إتقانه بالمران بسرعة معقولة لمن عندهم استعداد نفسي للانغماس في مثل هذه الخبائث، كالمندل والأوفاق وغيرها مما هو موجود في كتب السحر المتداولة بين من يهتمون بهذه السفاسف الخبيثة.

٢ – قسم يحتاج إلى رياضة مثل الرياضة الصوفية تماماً، خلوة وجوع وسهر مع ترديد كلمات، وتستمر حتى حصول خرق العادة. وتختلف مدتها من شخص إلى آخر، وكل عملية خارقة لها في البدء رياضتها الخاصة، ويتفاضل السحرة بعدد العمليات التي تجري علي أيديهم.

نعود إلى آيات موسى صلوات الله عليه فنرى لها مظهر السحر وليست منه.

فعصاه، مثلاً، انقلبت إلى حية عندما ألقاها وأخذت تلقف حبالهم وعصيهم (أي تبتلعها).

ويعرف السحرة أن هذا لا يمكن أن يكون سحراً.

فآمن به من آمن، واستكبر من استكبر.

وكان أتباعه حملة لواء التوحيد في العالم، قبل أن يحرفوا الكلم عن مواضعه، ويتلاعبوا برسالته حسب أهوائهم .

وبعث عيسى ﷺ، وكان الطب يسيطر على الثقافة الإنسانية.

كان يطلق على العالم إذ ذاك لقب الحكيم، أو محب الحكمة، وكانت هذه الكلمة تعني في أذهان الناس أشياء كثيرة على رأسها الطب.

وحتى عصرنا الحاضر، يطلقون على الطبيب اسم الحكيم، امتداداً لتلك العصور.

لذلك كانت الآيات التي أعطيها عيسى صلوات الله عليه تشبه الطب وليست منه، إذ كان من المستحيل على الطب إنجاز مثلها.

كـان الرسل، قبل محمـد ﷺ، يبعثون إلى أقـوامهم، وإلى البـلاد التي يعيشون فيهـا، ونادراً ما يتجاوزونهم إلى جيرانهم.

وكانت الثقافة محصورة في الكهان.

ولـذلك كانت آيـات الـرسول شيئـاً يراه النـاس كلهم، فيـدرك كهنتهم إعجازهـا مباشرة. ويدركه العامة حين يسألون الكهنة أن يأتوا بمثلها فلا يستطيعون.

فيؤمنون. ويتوارثون الإيمان جيلاً عن جيل حتى يضمحل بسبب ثلاثة عوامل:

أ - إهمال السنن.
ب - اتباع البدع.
جـ - التحريف في الألفاظ والمعاني.

أما محمد ﷺ، فقد أرسل إلى الناس كافة في زمنه وما بعده حتى يوم القيامة.

قال تعـالى: **﴿قل يـا أيها الناس إني رسول الله إليكـم جميعاً﴾**[1] **﴿وما أرسلنـاك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾**[2].

لـذلك، وبناء على الحديث الشريف، فقـد أعطي من الآيـات ما يتفق مع مفـاهيم البشر في زمنه وما بعده حتى يوم القيامة.

وكان ما أوتي وحياً أوحي إليه، فيجب علينا أن نفتش عن الآيات في هذا الوحي.

أما في زمنه:

فمن البدهي أنـه، بوصفه رسـولاً لكافة النـاس، كان سيبعث في قوم مـا من الناس يكونون حملة رسالته إلى العالم.

وشاء الله أن يكون العرب هم هؤلاء القوم.

وكانت الفصاحة والبلاغة هي التي تسيطر على عقول خاصتهم وعامتهم، فعلمهم

---

(١) الأعراف (١٥٧). (٢) سبأ (٢٨).

وثقافتهم هي الشعر والخطابة.

حتى كهنتهم كانوا يستقطبون الناس بسجعهم الفصيح.

فكانت آيته، ﷺ، لهؤلاء القوم هي فصاحة القرآن الذي عجز عن الإتيان بمثله خطباؤهم وشعراؤهم وكهنتهم.

لقد كان العربي يصاب بذهول عندما يسمع القرآن ويشعر أن أسلوبه فوق إمكانات البشر.

فيؤمن من يؤمن، ويستكبر من يستكبر.
لكن الأقوام الأخرى لا تفهم العربية ولا تدرك من فصاحة القرآن شيئاً .

على أن الالتزام بالمثل الأخلاقية، من صدق وشجاعة ووفاء وشرف ومعاملة حسنة وغيرها كان يسيطر على عقول الناس أجمع، رغم وجود اختلاف في المفاهيم، وسيادة لأخلاق ظالمة كانت عبئاً على البشر.

فكانت آيته ﷺ لهم هي الأخلاق الرفيعة التي تأدب بها خريجو مدرسته الأوائل الذين انتشروا في الأقطار هداة ومعلمين.

وكان سلوكهم ومعاملتهم للناس شيئاً غريباً على عصرهم، مما أشعر الجميع أن في الإسلام معجزة خارقة هي التي جعلت من البداة الجفاة هؤلاء الفاتحين الذين يتحلون بأسمى الصفات الإنسانية التي تحلم بها الإنسانية وشعروا أن هذه المعجزة الخارقة لا بد وأن تكون إلاهية.

فآمن من آمن، واستكبر من استكبر.

- **وانقضت تلك العصور.**

وانقضى معها الذوق العربي في الأمة العربية، فأصبحت غالبيتها لا تدرك من فصاحة القرآن كثيراً ولا قليلاً.

حتى إن المؤمنين أنفسهم، أصبحوا (أكثرهم) يتلونه للبركة والأجر فقط، ولا

يفهمون من معانيه إلا القليل، وقد يتلونه للطرب أحياناً.

ووصل بنا الجهل بلغتنا إلى أن غدونا لا نتذوق إلا أسلوب اللغات الأوروبية مكتوبة بكلمات عربية. أو بالأصح، إن أسلوبنا الآن ، الذي انغمسنا فيه وانغمس فينا، هو وسط بين الأسلوب العربي في عصر نزول القرآن وبين الأسلوب الغربي الحديث.

- **وجماعة كهذه لا تستطيع إدراك الإعجاز في فصاحة القرآن .**
- **وانقضت تلك العصور.**

وانقضت معها مكارم الأخلاق واضمحل الاجتهاد على التحلي بها. وأصبحت الماكيافيلية، أو الشطارة كما يسمونها، هي أسمى ما يتخلق به المرء -إلا من رحم ربك- وساد الانحلال بكل معانيه في كل المجتمعات. فالمهم هو الحصول على المال واللذة.

أما الأخلاق فرجعية بالية يجب أن تزول.

ومجتمعات كهذه لا يمكنها أن تدرك من القيم الأخلاقية التي جاء بها الإسلام كثيراً ولا قليلاً.

لقد تغير الزمن، وانحلت عرى القيم، واستقطب اللهاث وراء المادة مفاهيم الإنسان.

فهل انقضت رسالة محمد ﷺ؟.
لا، إنها لم تنقض ولن تنقضي.
إنها رسالة الله إلى البشر كافة حتى يوم القيامة.

وكما أوتي من الآيات، في ما أوحي إليه، ما آمن عليه أهل عصره. كذلك أوتي ما سيؤمن عليه أهل هذا العصر إن شاء الله. وأهل هذا العصر هم أناس سيطر العلم والمفاهيم العلمية على أفكارهم، وكذلك أهل العصور التالية.

فتكون الآيات التي أعطيها محمد ﷺ، في ما أوحي إليه، هي آيات علمية.

وقد رأيت -حسب ما يسر الله لي فهمه- أن من الممكن تقسيمها إلى ثلاث فئات:

أ – حقائق كونية (فلكية وجيولوجية وفيزيائية).
ب – حقائق نفسية ونفسية اجتماعية وفيزيولوجية.
جـ – أحداث طبيعية واجتماعية أخبر أنها تحدث بعد وفاته ﷺ وقبل يوم القيامة.

وسأتناول في هذا الكتاب بحث ما يسر الله من الحقـائق الكونية والأحداث الطبيعية والاجتماعية التي أخبر عنها.

أما الحقائق النفسية ... فتركتها لأن دراستي لها غير مكتملة .

إن من المستحيل على الإنسـان أن يتـوصـل إلى معـرفـة هـذه الحقـائق العلميـة إلا بالاستعانـة بالوسائل العلميـة الدقيقة المستحدثـة، مع معرفة مسبقة لـركام من الحقائق الأولية التي يستحيل معرفتها بدونها.

وعندما يأتي إنسان أمـي من أمة أمية ، وقبل أربعة عشر قرناً، وهـو، والإنسانية كلها من حولـه، لا يملكون من الوسائل العلميـة أي شيء، ويجهل، هو والإنسانيـة كلها من حوله، كل الحقائق الأولية التي يجب الاستناد عليها لإدراك المواضيع التي جاء بها.

عندمـا يأتي هذا الإنسان ويورد هـذه الحقائق، فإن أي عاقل في الـوجود لا يستطيع أن يعزو هذا الأمر إلا إلى قوى خارقة تعلو على الإمكانات البشرية.

ولن نجد لها أي تفسير إلا أنها وحي من لدن عليم خبير.

ويجب ألا ننسى:

أن هذه الآيات إنما هي معجزات أعطاها الله رسولـه لتكون برهاناً على أن ما جاء به ﷺ هو الحق.

فلا يبقى عذر لمعتذر ليقول (مثلاً) : لقد اختلطت عليَّ العقائد والأفكار فلم أعرف غثها من سمينها...

فيكون الجواب: هذه بـراهين لا لبس فيها ولا غموض، ولا مجال فيها لـلأخذ والرد. وفيها ما يدركه جميع الناس، وفيها ما لا يدركه إلا أولو العلم.

ولا يبقى أمام المطلع عليها إلا أحد أمرين:

- إما الانصياع للحق.
- أو التوغل في الاستكبار.

ويجب ألا ننسى:

أن القرآن لم ينزل من أجل هذه الحقائق العلمية التي هي أمور ثانوية في حياة الإنسان.

وإنما أنزل هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

فهو كتاب تشريعي عقائدي اجتماعي أخلاقي، يوجه السلوك الإنساني في هذه الحياة في الطريق الوحيدة التي تكفل للإنسان السعادة الحقيقية في الدنيا والفوز في الآخرة.

والسعادة الحقة في الدنيا تنبع من داخل الإنسان ومن شعوره بالاطمئنان، ولا تأتيه من خارجه إلا بقدر توضحه وتوفره مجموعة من الأحكام الإسلامية.

ويوجه القرآن السلوك الإنساني، كذلك، حسب ما تقتضيه الحقيقة الأزلية لهذا الكون، لئلا يكون تناقض بين نشاط الإنسان اليومي، في جميع مجالاته، وبين القوانين الكونية والحياتية الثابتة الباقية ما شاء الله لها أن تبقى، والتي هي سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا.

بعكس ما تمليه علينا الفلسفات الحديثة من كل ما يوجه السلوك فيما يناقض طبيعة الحياة وفطرتها، ويتعارض مع الغرائز السليمة للإنسان فيحرفها أو يضخم بعضها على حساب بعضها الآخر، لتغدو مريضة شاذة تسبب هذه الدوامة التي نتيه في حلقاتها المفرغة الخاوية، والقلقُ والفزعُ والحيرةُ تملأ نفوسنا وتعبث فيها فتبعث فينا شتى الأمراض النفسية والعصبية والعضوية والاجتماعية.

وعجيب هذا الضجيج الذي يصم الأسماع مدعياً أنه يفتش عن السعادة ليقدمها للإنسان.

وسيبقى يفتش كثيراً ، ثم لا يقدم إلا الآلام، ما دام بعيداً عن الفطرة وقوانينها.

ويجب ألا ننسى:

أن البراهين التي تعتمد على الأساليب المنطقية المجردة، والعبارات العاطفية والقصص الموهومة لا تكون في الواقع براهين إلا للذين آمنوا سلفاً بالموضوع المبرهن عليه.

أما البراهين العلمية الواقعية المادية المحس بها، فتضع الإنسان أمام الحقيقة وجهاً لوجه، فإما أن يؤمن، وإما أن يستكبر.

قال سبحانه: **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾**[1]

وسأعرض في هذا الكتاب ما يسر الله لي من هذه الآيات والأحاديث مطبقاً في تفسيرها القواعد التالية:

- تفسير القرآن بالقرآن.
- تفسير القرآن بالحديث.
- تفسير الحديث بالحديث.
- الأخذ بالمعنى الواضح المباشر المشهور الذي لا يناقض نصاً آخر بصراحة.
- التعميم ولا تخصيص إلا بدليل.

وهذا يعني أنني لن أتقيد بآراء المفسرين القدماء أو المحْدَثين، وإنما أستأنس بها وآخذ منها ما يتفق والقواعد الآنفة وأترك ما يخالفها.

ويجب أن أذكّر هنا:

أن المفسرين القدماء كانوا ثقاتاً فيما يعلمون، فهم مرجعنا في فهمهم وتفسيرهم للنصوص الخاصة بالعقيدة والأخلاق والعبادات والمعاملات ونظام المجتمع، ولا مرجع لنا غيرهم.

بل يجب أن يكونوا المرجع في هذه الأمور لكل من يبتغي الحق ويفتش عن الحقيقة .

---

(١) السجدة (٥٣) .

وذلك لأن الرسول ﷺ أُرسل من أجل هذه الأمور الأساسية في الوجود الإنساني، فشرحها وبيّنها بالقول والعمل، وكان أصحابه يسألونه عما لا يفهمون منها، فيجيبهم بكل وضوح..

ثم جاء التابعون وتابعوهم فوطّؤوا الأحكام وبوّبوها وبحثوا في النقاط التي لم ترد في عهد الصحابة فاستنبطوها من النصوص بأساليب علمية لن تستطيع الإنسانية أن تجد أكثر منها دقة مهما حاولت.

وكان العلماء يكرسون كل أوقاتهم لدراسة هذه الأمور الأساسية وبحثها، فغاصوا في الأعماق وكشفوا الخفاء ولم يتركوا مزيداً لمستزيد. (مع العلم أن كل ابن آدم خطاء).

أما المسائل الكونية فقد كانوا يجهلونها جهلاً تاماً لسببين:

أ – لم يركز الرسول ﷺ عليها، لأنها تأتي في الدرجة الثانية من الأهمية بعد الأمور الأساسية المذكورة.

ب – كانت الإنسانية كلها تجهلها جهلاً تاماً، ولم يتفرغ العلماء المسلمون لبحثها كما تفرغوا للأولى.

قد تثور، هنا، ثائرة بعضهم عندما يرون أني أصف العلماء القدامى بأنهم يجهلون الحقائق الكونية من فلكية وجيولوجية وفيزيائية ... وأنهم يخطئون في تفسير النصوص المتعلقة بها.

قد تثور ثائرتهم عندما يقرؤون هذا، وقد يتهمونني بأشياء أتوقعها، أو لا أتوقعها.

وذلك لأنهم:

أ – إما أن يكونوا جهلة فلا يفيد الرد عليهم شيئاً.

ب – وإما أن يكونوا على شيء كاف من العلم، فيكفيهم حينئذ أن يكلفوا أنفسهم دراسة بسيطة للأمر ليروا أنه الواقع.

وأخيراً يجب أن أنبه:

إلى أن الذين تعرضوا لهذا الموضوع كانوا في أكثر الأحيان يخلطون في الأفكار العلمية

بين الأمور التالية:

-البحث العلمي.
-الفرضية العلمية.
- النظرية العلمية.
- الحقيقة العلمية.
- الدجلية التي تحاول المنظمات اليهودية السرية بجميع الوسائل المدوية والمهموسة، وعلى مراحل، إلباسها ثوب الحقيقة العلمية لتحقيق أسطورتهم المعروفة. وما هذه المنظمات اليهودية إلا التنظيمات الماركسية بجميع فروعها وهي ظاهرة بنشاطاتها ودعاياتها، وسرّيّة بعلاقاتها باليهودية.

بل وأكثر من هذا، فقد مر علي من لم يستطع التمييز بين الصورة الفوتوغرافية والنظرية العلمية. وقرأ هذا الخلط كثير لم ينتبه أحد منهم له.

ولن أتعرض -طبعاً- في هذا الكتاب إلا للحقائق العلمية، وإذا استأنست ببعض الفرضيات أو النظريات فسأنبه عليها.

الخلاصة:

غايتي من هذا الكتاب هي تقديم بعض الآيات التي أعطيها محمد ﷺ براهين علمية على صدقه وعلى أن الإسلام هو الحقيقة.

إنها براهين علمية، لا فلسفية ولا منطقية ولا جدلية ولا عاطفية وليس فيها أي تلاعب بالألفاظ، وليس فيها قصص وهمية أو صحيحة يحدث مثلها في كل الديانات.

فكل أمة تستطيع أن تقدم البراهين الفلسفية والمنطقية والجدلية والعاطفية على صحة معتقدها.

أما البراهين العلمية فلا توجد إلا حيث توجد الحقيقة.

وعلى الله قصد السبيل.

القسم الأول

توطِئة ومَدخل

قال الله تعالى:

﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل﴾

[الكهف : ٥٥]

الظاهرة الطبيعية في القرآن

نــــرى في القرآن الكريم، من حيث توزع عناصره ومواده، ظاهرةً هي نفس الظاهرة التي نراها في الطبيعة من حيث توزع العناصر والمواد فيها.

- ففي الطبيعة نرى العناصر والمواد متداخلةً متشابكة.

وكذلك في القرآن تتداخل آياته ذات المواضيع المختلفة وتتشابك.

- وفي الطبيعة، عندمـا نريد الحصول على عنصر ما أو مادة معينـة، فإننا نحتاج إلى عملية بحث وتحليل تختلف بساطة وتعقيداً حسب المادة المطلوبة ومكانها.

وكذلك في القرآن الكريم، عندما نريـد الحصول على فكرة أو حكم ما، فإننا نحتاج إلى عملية بحث وتحليل تختلف بساطة وتعقيداً حسب المادة المطلوبة ومكانها.

- وفي الطبيعـة نرى حـاجـات الإنسان الأسـاسيـة سهلة المنـال ومـوجودة بغـزارة تتناسب مع شدة الحاجة إليها.

فالهواء والتراب هما أول حـاجاته على الإطـلاق وأشدها التصـاقاً به، ولـذلك نراهما متوفرين غزيرين سهلي المنال..

وتأتي حاجتـه إلى الماء في الدرجـة الثانيـة، وغزارة الماء وسهـولة الحصـول عليه تأتي أيضاً في الدرجة الثانية، وهكذا...

وكذلك في القرآن الكريم نرى حاجات الإنسـان النفسية والفكرية الأساسية سهلة المنال موجودة بغزارة تتناسب مع شدة الحاجة إليها.

فالعقيدة التي تشمل الإيمان بـا لمبدأ وبا لمصير وبمكانة الإنسـان في الوجود هي أول وأشد الحاجات النفسية والفكرية الإنسانية التصاقاً بالنفس والفكر.

وما شغلت الإنسـان عبر تاريخه ناحية من نـواحي وجوده مثلما شغلته هذه النـاحية (العقيدة)، قـدّم من أجلها التضحيات بـالنفس والولد والمال وكل شيء ومـا زال يقدم، لأنها أهم شيء في وجوده.

فنرى حدودها وأحكامها وأمثالها-بـواقعها الحق- متوفرة في القرآن الكريم، لا تخلو صفحة من صفحاته منها، مع سهولة المنال وبساطة المأخذ.

يأتي السلوك والمعاملة الحسنين وما يلزمهما من أمر با لمعروف ونهي عن المنكر وإقامة حدود وغيرها في الدرجة الثانية من حاجات النفس والفكر الأساسية في الإنسان.

وغزارة أحكـامها وتفصيـلاتها مع سهولـة المنال تأتي في القـرآن الكريم في الـدرجة الثانية أيضاً، وهكذا...

- وفي الطبيعة نرى عناصر ومواداً تتجمع مختلطة مـع غيرها في أماكن تجمّعها توجد هنا وهناك (كا لمعادن مثلاً).

وفي القرآن الكـريم نرى أحكـاماً وأفكـاراً تتجمع مختلطة مع غيرها في أمـاكن تجمع (سور) توجد هنا وهناك (كقصص الأنبياء مثلاً...).

- وفي الطبيعة نرى منـاطق واسعة تشغلها جبال تملأ حيزهـا، وفي اجتيازها والعيش فيها بعض الصعـوبة. كما نرى مناطق أخـرى واسعة تشغلها سهـول يسهل السعي فيها والحياة.

كـذلك، نـرى في القرآن سـوراً ذات آيـات طـويلة، وفي حفظهـا وفهمهـا شيء من الصعوبة، كما نرى سوراً أخرى ذات آيات قصيرة عذبة الجرس سهلة الحفظ.

حتى الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه.

- فكما أن في القرآن آيات نسخت لفظـاً ومعنى وأخرى نسخت لفظاً وبقيت معنى أو حكماً، وآيات بقيت لفظاً ونسخت معنى.

كذلك نرى في الطبيعة جبالاً وأنهاراً وغابات وقرى ومدنيات وكائنات حية بشرية أو حيوانية، زال بعضها ولم يبق له أثر، وزال بعضها مع بقاء فائدته (كالبترول الذي هو في الأصل غابات زالت من الوجود)، وبقي بعضها وزالت فائدته (كالقرى المهجورة وغيرها..).

- وكما أن في القرآن الكريم آيات محكمات فهمها الأوائل فهماً تاماً وأُخر متشابهات، اشتبهت عليهم معانيها أو استعصت، حتى تطورت مدارك الإنسان وتوسعت معارفه، ففهم كثيراً منها وأصبحت في عداد الآيات المحكمات (كالآيات العلمية مثلاً).

كذلك في الطبيعة أمور أدركها الإنسان إدراكاً تاماً منذ القدم وأمور أخرى كثيرة اشتبهت عليه أو استعصت حتى تطورت مداركه وتوسعت معارفه فإذا بكثير منها يصبح مفهوماً لديه حق الفهم (محكماً).

- وفي الطبيعة نرى في ما تقع عليه أعيننا الحكمة والقدرة والخبرة والعلم والقوة والجبروت...

وكل إنسان يرى هذا، فيعزوه المؤمن إلى خالقه الحق الذي سيّر كل شيء وقدّره حسب قوانين أزلية أمر بها، ويتعثر الملحد في تفسيرات خيالية من عالم الأوهام.

إننا نرى قدرة الله ورحمته وخبرته وعلمه وجبروته وقوته ظاهرة وراء كل شيء مما نرى.

وكذلك في القرآن الكريم نرى وراء الآيات:

«الله يفعل ما يريد - وهو العلي العظيم - والله سميع عليم - الذي له ملك السموات والأرض - إن الله لطيف خبير - وإن الله لهو الغني الحميد...إلخ».

هذه الظاهرة تدفعنا إلى التأمل.

إذ أن من فطرة الإنسان حين يسجل أفكاره، أن يسجلها موزعة على مواضيع متشابهة، إما بحكم تسلسل الفكر الذي يفرض على المرء أن ينتقل من فكرة إلى أخرى مرتبطة بها، أو بحكم تداعي الأفكار.

وهكذا كان ما كتبه المتقدمون.

وهكذا كان ما كتبه المتأخرون.

إلا ما كتبه المقلدون الذين أرادوا أن يضاهئوا القرآن فأتوا بالسخافات.

فما الذي جعل القرآن يشذ عن القاعدة التاريخية وعن الفطرة الإنسانية؟!.

وما الذي جعل هذا الأسلوب الخاص هو الأسلوب الذي جُعلت عليه الطبيعة؟!.

إن هذا التشابه في الأسلوب الذي نراه في عالمي القرآن والطبيعة يبعث فينا شعوراً مطمئناً إلى أننا أمام عالَمين يصدران عن إرادة واحدة.

وأن بارىء الطبيعة هو منزل القرآن .

هَل يَحوي القُرآن حَقائِق علميَّة؟.

يقول سبحانـه وتعالى: ﴿ولقد صرّفنـا للناس في هذا القـرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾[١].

﴿ولقد صرّفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلا﴾[٢]

﴿ولقـد ضربنا للنـاس في هذا القـرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآيـة ليقولن الـذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾[٣].

﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون﴾[٤].

عندما يضرب الله سبحانه مثلاً لنا، فإنما يضربه بشيء مما خلق في هذا الكون.

ويخبرنا سبحانه أنه صرّف وضرب في القرآن من كل مثل (لم يستثن شيئاً).

وهذا يعنيْ: أننـا نجد في القـرآن أمثالاً ممـا خلق في عالم الفلك، وأمثـالاً مما خلق في عالم الجيولـوجيا، وأمثالاً مما خلق في عـالم الفيزياء، وأمثالاً ممـا خلق في عالم التشريح ... إلخ.

لأنـه، سبحـانـه، صرف وضرب فيـه من كل مثـل. والتعبير (كل مثل) يشمل هـذه الأشياء وغيرها.

ومر في المقدمة قـول الرسول ﷺ «ما من الأنبياء من نبـي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الـذي أوتيت وحياً أوحي إلي، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

وهو صريح بأنـه ﷺ، أوتي من الآيات ما يـؤمن عليه أهل هذا العصر، لأنـه رسول الله إليهم أيضاً.

وأهل هذا العصر أناس سيطرت المفاهيم العلميـة على أفكارهم، فتكون الآيات التي أعطيها معجزةً لهم هي آيات علمية (فلكية، وجيولوجية، وفيزيائية، وتشريحية... إلخ).

---

(١) الاسراء (٨٩).
(٢) الكهف (٥٥).
(٣) الروم (٥٨).
(٤) الزمر (٢٧).

أعطيها معجزة لهم هي آيات علمية (فلكية، وجيولوجية، وفيزيائية، وتشريحية... إلخ).

ويقول سبحانه: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾[1].

ضمير الغائب المتصل (الهاء) في قوله (أنه الحق) عائد على القرآن الكريم.

فيكون المعنى: سنريهم آياتنا ... حتى يتبين لهم أن القرآن حق. يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية:

«... أي سنظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله على رسول الله ﷺ...».

فما هي هذه الآيات التي سيريها الله للناس في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أن القرآن حق من عند الله؟؟.

ما هي هذه الآيات إن لم تكن هي الآيات العلمية (الفلكية والجيولوجية والتشريحية والنفسية...) الواردة في القرآن والحديث، والتي هي حقائق من حقائق هذا الكون، إذا رآها البشر آمنوا أن من المستحيل أن يكون قائلها إنساناً وجد قبل أربعة عشر قرناً؟!.

وآمنوا أن من المستحيل أن يكون لها تفسير آخر غير أن هناك إلهاً واحداً خالقاً هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق وأوحى إليه هذا الوحي.

النتيجـــة:

في القرآن الكريم والحديث الشريف حقائق علمية متنوعة أعطيها محمد ﷺ معجزة لهذا العصر وما بعده.

وصدق الله وصدق رسوله المعصوم بالوحي.

وأخطأ الذين قالوا ليس في القرآن مسائل علمية كونية، أو قالوا بإبعاده عن العلم (أو ما يحوم حول هذا المعنى).

أخطؤوا لأنهم غير معصومين، وبعضهم من الخرافيين.

غفر الله لنا ولهم، ورحمنا وإياهم، وألهمنا الصواب في القول والعمل.

---

(١) فصلت (٥٣).

القسم الثاني

المـواضيـــعُ العلميَّـــة

(فلكيــة وفـيزيـائيــة وجـيـولوجيــة...)

قال الله تعالى:

﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾

[آل عمران]

الجبـــــال

قال سبحانه: ﴿وهو الذي مـدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين...﴾(1).

﴿... والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون﴾(2).

﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون﴾(3).

﴿وجعلنـا في الأرض رواسي أن تميـد بهم وجعلنـا فيهـا فجـاجـاً سبـلاً لعلهم يهتدون﴾(4).

﴿أمّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون﴾(5).

﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماءً فراتاً﴾(6).

﴿ألم نجعل الأرض مهاداً. والجبال أوتاداً﴾(7).

﴿والأرض بعد ذلك دحاها، أخرج منها ماءها ومرعاها، والجبال أرساها﴾(8).

تشترك آيات الجبال السـابقة كلها بوصف الجبـال بالرواسي، ما عـدا آية سورة النبأ التي تصفها بالأوتاد.

---

(1) الرعد (3). (2) الحجر (19). (3) النحل (15).
(4) الأنبياء (31). (5) النمل (61). (6) المرسلات (27).
(7) النبأ (6 و 7). (8) النازعات (30 و 31 و 32).

جاء في تفسير ابن كثير في قوله: ﴿**وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم ..**﴾ ما نصه:

«.. ثم ذكر الله تعالى الأرض وما ألقى فيها من الرواسي الشامخات والجبال الراسيات لتقر الأرض ولا تميد، أي تضطرب بما عليها من الحيوانات فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك، ولهذا قال: ﴿**والجبال أرساها**﴾. وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر عن قتادة سمعت الحسن يقول: لما خلقت الأرض كانت تميد فقالوا (أي الملائكة) ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً، فأصبحوا وقد خلقت الجبال».

كما يورد ابن كثير أيضاً من طريق آخر عن سعيد عن قتادة عن الحسن عن قيس بن عبادة حديثاً بنفس المعنى.

وتجمع كتب التفسير على ذلك، ويورد الخازن نفس المعنى عن طريق آخر.

وجاء في تفسير ابن كثير أيضاً في تفسير قوله تعالى ﴿**وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم..**﴾ من سورة الأنبياء ما يلي:

أي جبالاً أرسى الأرض بها وقررها وثقلها لئلا تميد بالناس، أي تضطرب، فلا يحصل لهم قرار عليها لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربع فإنه باد للهواء والشمس...».

ويرد نفس المعنى في بقية التفاسير، وكذلك شأن بقية الآيات. ولتفصيل ذلك يجب أن نلقي أولاً نظرة على طبقات الأرض.

إن الأرض كرة ذات سبع طبقات:

١ - الطبقة الغازية (Atmosphère) وهي الهواء المحيط بنا.

٢ - الطبقة المائية (Hydrosphère).

٣ - طبقة السيال (SIAL) وقد اشتق اسمها من الحرفين الأولين من كل من السيليسيوم. والألمنيوم، العنصرين الأكثر انتشاراً فيها، كما يُطلق عليها أيضاً اسم «القشرة الأرضية».

٤ - طبقة السيما (SIMA) وقد اشتق اسمها من الحرفين الأولين من كل من عنصريها الرئيسيين السيليسيوم والماغنزيوم. كما يطلق عليها اسم الرداء، أو الغلاف.

٥ - طبقة السيما الحديدية (سيحا).

٦ - طبقة النيحا (NIFE) من النيكل والحديد.

٧ - النواة المركزية.

ولم تصل البحوث حول الطبقات الثلاث الأخيرة إلى درجة الوضوح العلمي الكامل بعد فيما أعلم.

يهمنا في بحثنا هنا طبقتا السيال والسيما، ولذلك سنأتي عليهما بشيء من التفصيل. أما باقي الطبقات فستعرض لها في مكان آخر إن شاء الله.

السيال:

أو القشرة، هي الطبقة الأرضية التي نلتصق بها، ونعيش عليها. يختلف سمكها حسب المناطق حيث يتضاءل في قاع المحيطات ويرتفع في الجبال العالية ويقدر سمكها الوسطي في القارات حوالي ٣٠-٥٠كم، أما في قاع المحيطات فيقدر بحوالي خمسة أو ستة كيلو مترات. وحيثما أخذنا قبضة من ترابها أو قطعة من صخورها فسنجد عنصري السيليسيوم والألومنيوم بنسب تختلف من مكان إلى آخر.

وسنجد عناصر ومركبات أخرى كثيرة بعضها أصلي بنسبته لها كالكالسيوم (في فحمات الكلس) مثلاً، وبعضها تسرب إليها من الطبقات الأخرى، كالمياه الجوفية المتسربة من الطبقة المائية، أو صخور البازلت المتدفقة من طبقة السيما ، أو المعادن الثقيلة وغيرها.

هذه الطبقة هي التي تشكل القارات، وتحتضن المحيطات، وترتفع جبالاً في مكان، أو تنخفض أغواراً في مكان آخر، وبين هذا وذاك تنبسط سهولاً خضراً أو صحاري مقفرة.

متوسط كثافتها (٢ر٧) . وتستند على طبقة السيما مع وجود سطح فاصل بينهما يعرف بسطح (موهو).

السيما:

أو الرداء، هي الطبقة التي تلي السيال مباشرة. عرف تركيبها الكيميائي من المهل الذي تنفثه البراكين، لأنها هي مصدره. تبلغ كثافتها (٣ر٣) . ويتغير هذا الرقم مع الأعماق، وخاصة عند العمق ٤٠٠كم والعمق ٧٠٠كم.

عـرفت كثافتهـا من تركيبهـا الكيميـائي، ثـم بواسطـة دراسة الـزلازل الاصطناعيـة خـاصـة، والطبيعية. إذ أن الاهتـزازات الأرضيـة التي تحدث من الـزلازل تنتشر بسرعـة منتظمة مـا دامت في طبقة ذات كثافـة واحدة، حتى إذا صـادفت طبقة مختلفة الكثـافة انعكس قسم منهـا ونفذ الباقي في الطبقـة الجديدة بسرعـة أكبر إن كانت الكثـافة أكبر، وبسرعة أصغـر إن كانـت الكثافـة أصغر، بحيث تكـون نسبة الكثـافة الأولى إلى الثـانية متعادلة مع نسبة السرعة الأولى إلى السرعة الثانية.

وهكذا يمكن حساب كثافة الطبقة الجديدة بدقة مقبولة، كما يمكن وضع فكرة عن تركيبها الكيميائي استناداً على كثافتها.

وطبقة السيما هـذه أصلب من طبقة السيال، لكنها تحت الثقل الهائل الـواقع عليها من طبقـة السيال، يصبـح لها قوام عجيني مـا دام الثقل فـوقهـا، وهذا القـوام العجيني يسهل انزلاق القارات (طبقة السيال) عليها واندفاع البراكين منها.

كيف تتكون الجبال

١ - إما أن تكون بركـانية تنشأ من تراكم المهل المندفع من السيما، لها نفس التركيب الكيميائي الذي للسيما.

وهي الجبال البازلتية. كجبال حوران مثلاً.

والجبل من هذا النوع يشكل وتداً منبثقاً من السيما داخل السيال يتصل أعلاه بكتلة من جنسه. وهو بذلك كالمرساة يمنع السيال أن تميد، كما سنرى.

٢ - أو أن تكـون التوائيـة نشأت مع انهدامـات بطيئـة أو عنيفة حصلت في عهـود مختلفـة، أو نشأت بسبب الضغط الـذي تعـانيـه مقـدمة القشرة القـاريـة (السيـال) في انزلاقها فوق السيما. وهناك فرضيات أخرى لتفسير نشوئها لا يهمنا منها شيء.

والجبـال الالتـوائية هي التي تشكـل الهيكل الجبلي في العالم الأرضي، وهي مـرتفعـة ومتصلة. أما الجبال البركانية فهي قليلة متفرقة وغير مرتفعة.

قلنـا إن من الفرضيـات المقبـولة على سبب نشـوء الجبال الالتـوائيـة تجعُّد السيـال

بسبب الضغط الذي تعـانيه مقدمته في انـزلاقه فوق السيما، فقد لـوحظ أن القارات غير ثابتـة في مكانها، فقارة أميركا مثـلاً تنزلق حالياً نحـو الشرق بسرعة ملحوظة للقيـاسات العلميـة. كما يظن أن القـارات جميعهـا كـانت متصلـة مع بعضهـا ثم انفصلت بسبب انسيـاحها فـوق السيما. وأثناء هـذا الانسياح المجهـول الأسبـاب، تعاني مقـدمة القـارة ضغطاً من السيما يجعّد وجهها فتحدث الجبـال بقممها البارزة في الهواء وجذورها الغائرة في السيما.

وهذه الجذور الغائرة تشكل وتداً ﴿**والجبال أوتاداً**﴾ يمنع القارة أن تميد لأنه يمنعها من التمادي في الانزلاق، أو مرساة تقرها فلا تنساب ﴿**وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم**﴾.

ويعتقـد أن القسم البارز من الجبل يقـابله جـذر أطـول منه بأربع مـرات ونصف، ذاهب في السيما.

كيف التوصل إلى معرفة ذلك؟

إنه مـا يسمى تساوي الثقـالة (Isostasie). إذ لوحظ أن الثقـالة متسـاوية في جميع نقاط الأرض، وإن تضـاءلت قليلاً جـداً عند خط الاستواء بسبب القـوة النابـذة الناجمة عن دوران الأرض.

فلو صعدنا إلى قمة جبال همالايا وقسنا الثقالة[١] هناك. لرأيناها مساوية للثقالة في الغور على شاطىء البحر الميت. مع أن النظرة البدائية تجعلنا نظن أن الثقالة على الجبال يجب أن تكون أكبر منها في الأغوار، بسبب الكتلة[٢] الجبلية الهائلة التي يجب أن تضاف جاذبيتها إلى جاذبية الأرض تحتها.

لكن الواقع، كما ذكرنا، يختلف عن النظرة البدائية. فالثقالة متساوية.

ولا يمكن تفسير (تسـاوي الثقـالـة) هـذا إلا بأن كتلـة المادة من رأس الجبل حتى

---

(١) الثقـالة: هي القـوة التي أودعها الله في المادة يجذب بها بعضهـا بعضـاً، وتقاس بـواسطة النـواس الذي تزداد سرعته كلما زادت شدتها.

(٢) في موضـوعنا هـذا لا فرق بين مفهـوم الكتلة ومفهوم الـوزن، ويمكننا استبـدال كلمة الـوزن بدل الكتلة.

مركز الأرض مساوية للكتلة الموجودة بين قاع الغور ومركز الأرض.

وبما أن الجبل كتلة مضافة فوق سطح الأرض، فيجب أن ينقص من أسفله كتلة مساوية لكتلته. وليتحقق ذلك يجب أن تزاح كمية من السيما لتحل محلها كمية من السيال الأخف وزناً.

وتحسب نسبة عمق الجذور إلى القسم البارز في الهواء كما يلي:

ليكن هناك جبل ما وزنه ١٠٠ مليون طن. وهذا يعني أن مقدار مئة[١] مليون طن من المادة زادت في هذه البقعة من الأرض. فلتساوي الثقالة يجب أن ينقص في الأعماق تحت هذا الجبل مباشرة كتلة بنفس المقدار.

رأينا فيما سبق أن كثافة السيما تساوي٣ر٣، وكثافة السيال ٧ر٢ . فالسيما أثقل من السيال. وبتعبير أوضح: إن المتر المكعب من السيما يزن ٣ر٣ طناً بينما يزن المتر المكعب من السيال ٧ر٢ طناً.

فإذا استبدلنا متراً مكعباً من السيما بمثله من السيال نكون قد أنقصنا الوزن مقدار: ٣ر٣- ٧ر٢ = ٦ر٠ طناً.

فإذا كان في كل متر مكعب من السيما يستبدل بالسيال ينقص الوزن مقدار ٦ر٠ طناً. فلإنقاص الكتلة تحت الجبل مقدار ١٠٠ مليون طن نكون بحاجة إلى إزاحة كمية من السيما تساوي:

١٠٠ مليون ÷ ٦ر٠ = ٥ر١٦٦ مليون متر مكعب واستبدالها بالسيال.

أي إننا إذا أزحنا ٥ر١٦٦ مليون متر مكعب من السيما ووضعنا بدلها نفس الحجم من السيال نكون قد أنقصنا الوزن (أو الكتلة) مقدار ١٠٠ مليون طن.

لنعد إلى الجبل الذي قلنا إن وزنه ١٠٠ مليون طن، بما أنه من السيال فكثافته تساوي

---

(١) يجب أن يرجع إلى كتابة «مئة» هكذا دون ألف، لأن الناس صاروا يغلطون بقراءة «مائة» فيلفظونها «ماءة»، وهذه الفكرة سمعتها من الأستاذ عبد الحميد الأحدب من حماة وهي صحيحة.

٢ر٧ . وهذا يعني أن وزن المتر المكعب منه يساوي ٢ر٧ طناً. وبذلك يكون حجمه:

١٠٠ مليون ÷ ٢ر٧ = ٣٧ مليون متر مكعب.

أي إن هذا الجبل الذي يزن ١٠٠ مليون طن، حجمه ٣٧ مليون متر مكعب. وقد رأينا أن حجم القسم الغاطس في السيما (جذره) هو ١٦٦ر٥ مليون متر مكعب. فتكون نسبة الجذر إلى القسم البارز في الهواء:

١٦٦ر٥ مليون ÷ ٣٧ مليون = ٤ر٥ مرة.

أي إن الجذر الغاطس في السيما أكبر من القسم البارز في الهواء بأربع مرات ونصف. نلخص ما سبق بالمعادلتين التاليتين:

أ - كتلة القسم البارز من الجبل = كتلة السيما المزاحة - كتلة السيال التي حلت محلها.

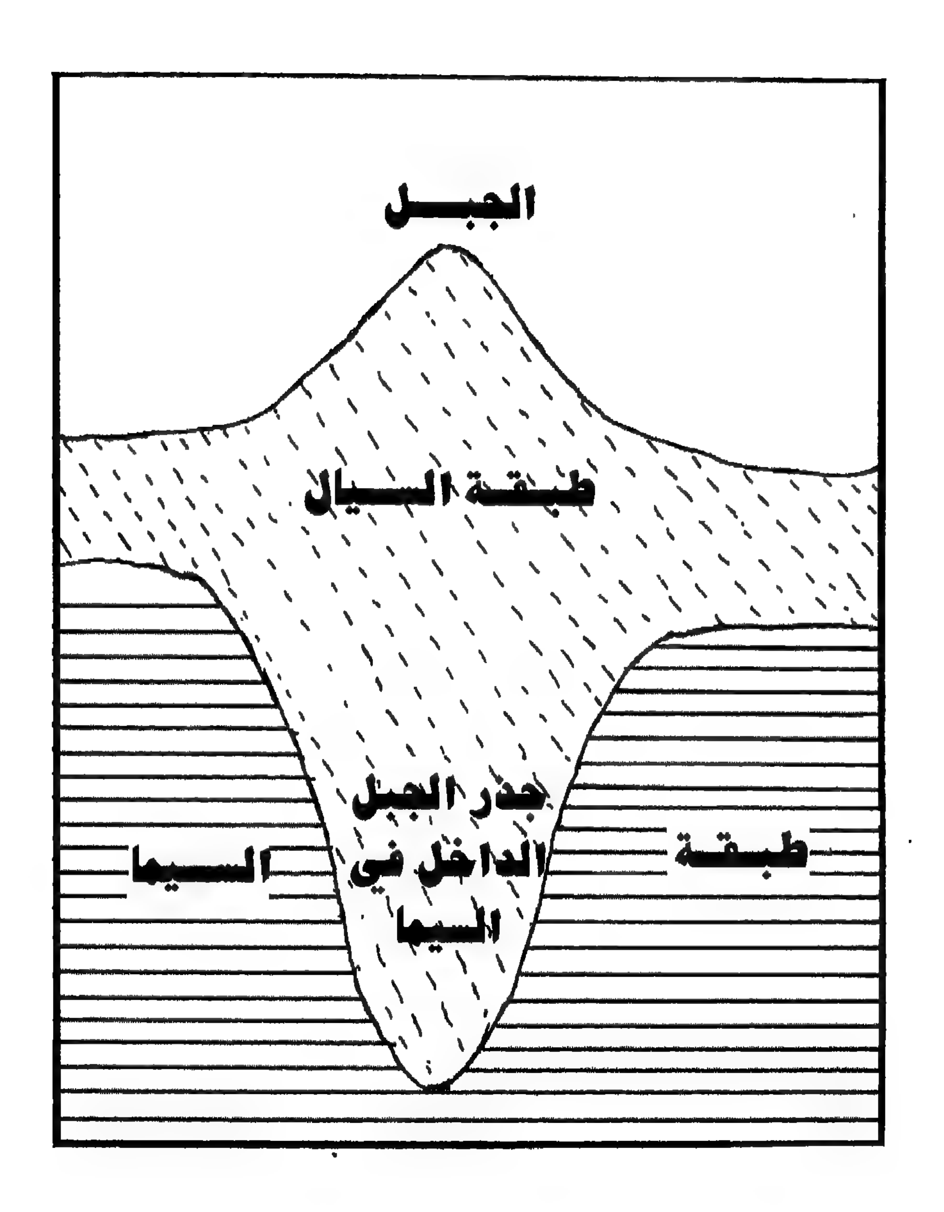
ب - حجم السيما المزاحة = $\frac{٢ر٧}{٣ر٣ - ٢ر٧}$ × حجم الجبل = ٤ر٥ × حجم الجبل.

هذا من الوجهة النظرية.

أما في الواقع فقد يكون الجذر أقل من ذلك بقليل أو أكثر بقليل. فهناك عوامل أخرى تتدخل في الموضوع، منها التطورات الحركية التي تعانيها كل من طبقتي السيال والسيما، ومنها الكهوف والفجوات والأجسام الغريبة الثقيلة أو الخفيفة التي توجد في السيال أو في السيما ... وغير ذلك.

ولا يهمنا منها شيء. فالمهم هو أن للجبل جذراً كالوتد داخلاً في السيما يمنع الأرض أن تميد. شكل (١).

ومما لا يدع مجالاً للشك في وجود هذا الجذر أن الدراسات السسمولوجية، أي المختصة بعلم الزلازل، قد أيدت وجوده، وذلك في الأبحاث والتجارب التي أجريت على جبال الألب، واستخدمت فيها شحنات كبيرة من الديناميت من مخلفات الحرب العالمية الثانية لإحداث الزلازل اللازمة للدراسة.



شكل (١).

كيف تميد الأرض

رأينا أن القارات تنزلق فوق السيما. ويكون الانـزلاق سريعاً فيما لو كان سطح القارة السفلي الملامس للسيما أملس لا نتـوء فيـه. وحينئـذ تضطـرب الأرض بسبب الانـزلاق السريع بما عليها من الحيوانات فلا يهنأ لهم عيش (كما جاء في التفسير).

إن القوة المجهولة التي تدفع القارة الأميركيـة مثلاً، رغم وجود جبال منخفضة نسبياً فيها، بسرعة تحسّ بها الأجهـزة، هذه القوة يمكن أن تدفعهـا بسرعة تبلغ كيلو مترات كثيرة لـو كانت ملساء السطح ملساء القعر، ولامتنعت فوقها الحياة الحضارية، إن لم تنعدم الحياة بكاملها.

كما إن انزلاق القـارات بسرعة يسبـب اضطراباً عنيفـاً في الأرض بكليتها، نـاتجاً عن دورانها حـول محور لا يقع عليـه مـركـز الثقالـة الـذي يتغير بسبب تغير مـوضع القـارة السريع على سطح الأرض.

ويبقى خط الشاقول في تغير مستمر بسبب تغير مركز الثقـالة المستمر فلا يقوم بناء على الأرض.

ويضاف إليهـا بين حين وآخر اضطراب مفـاجىء أعنف من العادي يحدث في كل فترة ينتقل بها محور الدوران عندما يتغير مركز الثقل.

يتوضح لنا هذا الاضطراب فيما لو أتينا بدولاب دراجة عادية وأضفنا إلى محيطه ثقلاً في نقطة ما ثم أدرناه بسرعة حول محوره الذي نمسكه بأيدينا وسنرى كيف يرتج بعنف.

﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم ...﴾ ﴿والجبال أوتاداً﴾.

يلاحظ القـارىء الكريم أن هذه الآيـات تعطينا بكلماتها القليلة، المعـدودة، صورة واضحة كل الوضوح عن شكل الجبال، وفكرة كاملة عن وظيفتها .

كما يـلاحظ أنها لا تعطي أي صـورة أخرى أو أيـة فكـرة ثانيـة تختلف مع الحقيقـة المدروسة.

لقد كانت الإنسانية تجهل كل هذا جهلاً تاماً حتى عشرات قليلة من السنين.

- فكيف عرف محمد ﷺ ذلك؟!
- هل هناك احتمال آخر غير أنها وحي من لدن عليم خبير؟
- لو كانت هذه الآيات وحدها في القرآن الكريم، لكانت كافية للبرهان على صحته وعلى أنه من عند الله، فكيف وهناك غيرها الكثير.
- اللهم إني آمنت بك وبقرآنك ونبيك.

علاقة الجبال بالأمطار والينابيع

نلاحظ في الآيات الكريمة أن الرواسي مقرونة بالأنهار أو بالماء:

﴿وجعل فيها رواسي وأنهاراً...﴾ ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً...﴾ ﴿وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي..﴾ ﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماءً فراتا﴾...وغيرها من الآيات.

مما يدل على علاقة بين الجبال والأنهار.

ونلاحظ في الآية الأخيرة وجود علاقة بين الجبال الشامخات والمياه التي يسقينا الله إياها (المطر).

لنبحث في الواقع.

إن العلاقة بين وجود الجبال الرواسي الشامخات وبين نزول المطر أصبحت واضحة وحقيقة علمية. وقد كانت مجهولة قبل قرون قليلة.

كما أن الجبال هي الخزانات العظيمة التي تتجمع فيها مياه الأمطار والثلوج لتخرج ينابيع وعيوناً تجري أنهاراً ينبت بها من كل شيء موزون.

وفي الآية **﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماءً فراتاً﴾، ملاحظة هامة جديرة بالتأمل:**

إذا عدنا إلى الآيات الأخرى التي يرد فيها ذكر الأنهار نرى أن كلمة «الرواسي» ترد فيها دون أن توصف بشيء.

أما في هــذه الآية التي تذكر إسقـاء الماء الفرات – وواضح أنه المطر– نـرى الرواسي قد وصفت بصفة جديدة هي كلمة «شامخات».

ويعلم من عنده معرفـة بعلم المناخ أن أغزر الثلوج والأمطار تنـزل على أكثر الجبال شموخاً وكلما انخفض الجبل كلما قلت أمطاره.

ونتساءل: كيف عرف محمـد ﷺهذه الحقائق؟! وكيف أدخل هذه الصفـة الخاصة (شامخات) في هذه الآية الخاصة؟! وهذا شيء كان مجهولاً في زمانه!

وبعد: ألا ترى معي أيها القـارىء الكريم أن هذا الكـلام الطويل. الذي أو جـزته مع ذلك، وحذفت بعضـاً مما كان يحسن ذكره، ألا تـرى معي أن الآيات بكلماتها القليلة تعطي جميع معاني ما كتبته.

﴿والجبـال أوتاداً﴾، ﴿وجعل فيهـا رواسي وأنهاراً﴾، ﴿وجعل فيها رواسي شـامخات وأسقيناكم ماءً فراتاً﴾.

إلى آخر الآيات.

فهل بعد هذا الوضوح في التعبير وضوح؟!

وهل بعد هذا الإعجاز المعجز إعجاز؟!

وهل كـان باستطـاعة محمـد ﷺ: أو غيره، من الذين كـانت الإنسانيـة في عصرهم تجهل كل شيء حـول هذه المواضيع جهلاً تـاماً: هل كـان باستطـاعتهم أن يعرفـوا شيئاً منها بهذه الدقة وهذا الوضوح؟!

أو بدون هذه الدقة وهذا الوضوح؟!

ألا تشعر أيها القارىء أن هذا لا يمكن أن يكون إلا وحياً من لدن عليم خبير.

– إني أشعر بذلك–

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ملاحظة:

في كتاب يحاول مؤلفه، مشكوراً، تفسير الآيات الكونية، فيضع للآية ﴿**وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم**﴾ تفسيراً بعيداً عن المعنى الذي يفهم مباشرة لدى قراءتها.

يقول ما معناه: «إن هذه الرواسي التي كانت مرتفعة في الجو ألقاها الله إلى الأرض (بمعنى هدمها) بواسطة التحات الذي تحدثه الأمطار والسيول والرياح». وهو يرى أن هذا المعنى يفهم مباشرة من النص.

لا أوافقه على هذا القول للأسباب التالية:

أ - إن الآيات الأخرى لا تساعدنا على قبول هذا الفهم.

ب - لا يستطيع أحد أن يؤكد يقيناً أن الجبال كانت في الماضي أعلى منها الآن.

جـ - إننا نجهل ما يجري في أعماق طبقة السيال وفي سطحها السفلي، ومن الجائز أن هناك عملية ما تجري لتعويض الجبال عما فقدته من أعاليها بالتحات. هذا التعويض يفرض على الجبل أن يندفع نحو الأعلى بسرعة تعادل سرعة النقص الذي يطرأ على قمته. وتكون هذه الحركات من المسببات للالتواءات التي نراها في طبقات الجبال الالتوائية.

الميـــــاه

منشؤهــا:

قال سبحانه: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها. أخرج منها ماءها ومرعاها﴾[1].

نفهم من هذه الآية الكريمة أن الماء لم يهبط إلى الأرض من مكان آخر. بل خرج منها.

ونفهم من قولـه سبحانه ﴿أخرج منها مـاءها﴾ أن هذا الماء لم يكن مـوجوداً لدى انفصال الأرض عـن الكوكب الـذي كانت متصلـة به[2]. وإنما تشكل بعـد الانفصال بمدة ما. ونستطيع أن نعتبر هذه المدة زمن طفولة الأرض.

من الجائز ألا يكـون الأكسجين والهيـدروجين -أو أحدهما- مـوجـودين في الأصل بهذه الكمية الهائلة، وإنما تشكلا بعدئذ نتيجة تحولات نووية. كما أنه من الجائز أن يكونا موجـودَيْن منذ فتقت الأرض، لكن الظروف المحيطـة كانت تمنعهما من الاتحاد، حتى إذا تهيأت الظروف اتحدا وشكلا الماء. والله أعلم.

إن العجيب في هذه الآية هو مخالفتها لمعتقدات عصر نزولها في عدة نقاط:

١ - كان هناك اعتقاد أن في السماء بحاراً ينزل منها المطر، إلى الأرض.

أي إن مـاء الأرض يأتيهـا من مكـان آخـر، من السماء. فجـاءت الآيـة مخالفـة لهذا الاعتقاد ومثبتة خروجه من الأرض؟!

٢ - وكـان هناك اعتقـاد أن الأرض غـاطسـة في البحر المحيط ذي الحدود البعيـدة البعيدة، وتكون بذلك شيئاً صغيراً بالنسبة له.

فجـاءت الآيـة لتقول عكس ذلك، لتقـول إن مـاء الأرض خـرج من الأرض، ومن طبيعة الأشياء أن الخارج أصغـر وأقل من المخروج منه. ونتيجة لـذلك يكون ماء الأرض شيئاً صغيراً بالنسبة للأرض!.

---

(١) النازعات: ٣٠ - ٣١.

(٢) انظر بحث منشأ الأرض.

٣ - وكان أهل الكتاب (واليهـود منهم خاصة) منتشرين في الحجاز، وبـالقرب من مهبط هذه الآية. وكانوا بالطبع يعتقدون ما جاء في التوراة:

«... وقـال الله ليكن جَلَـد في وسط الميـاه وليكن فاصـلاً بين ميـاه وميـاه. فصنع الله الجلد وفصل بين الميـاه التي تحت الجلد والمياه التـي فوق الجلد فكـان كذلك. وسمى الله الجلد سماءً. وكان مساء وكان صبـاح «يوم» ثان. وقال الله لتجتمع المياه التي تحت السماء إلى موضع واحد وليظهر اليبس. فكان كذلك. وسمى الله اليبس أرضاً ومجتمع المياه سماه بحاراً. ورأى الله ذلك إنه حسن...» سفر التكوين - اصحاح ١ عدد ٦-١٠ .

وبذلك يكون اعتقـادهم أن الأرض خرجت من الماء. كما كان المثقفون باليـونانيات والـزرادشتيات يعتقـدون أن هناك أربعـة أسطقسـات (عناصر) وهي النـار والهواء والماء والتراب. ويقـولون إن أول مـا وجـد النـار التي تبردت أجزاؤهـا السفلى مع الـزمن فنتج الهواء، وتبردت أجـزاء الهواء السفلى فتشكل الماء، ثم تبردت أجـزاء الماء السفلى فكـان التراب.

أي إنهم كانوا يعتقدون أيضاً أن الأرض خـرجت من الماء. فجاءت الآية مخالفة لهم جيمعاً، لتقول إن ماء الأرض هو الذي خرج منها.

هذه المخالفات الواضحة الصريحة لمعتقدات العصر الذي نزل فيه الإسلام وما قبله وما بعده حتى العصور الأخيرة، والتي جاءت بحقائق لا يستطيع العلم إلا قبولها[١]، إنما هي دليل واضح صريح على أن قائلها عليم خبير، وأنها ليست من عند محمد ﷺ.

- إذ لو كانت من عنده لأتى بما يتفق مع معتقدات الناس من حوله.
- أو لأتى بشيء لا يخرج عن الإطار الفكري لذلك العصر.

---

(١) انظر بحث منشأ الأرض.

تقسيـم الميـاه

يقسم القرآن الكريم المياه في الأرض إلى قسمين.

١ - البحر العذب، وهو مجموعة الينابيع والأنهار والبحيرات والمياه الجوفية العذبة.

٢ - البحر الملح، وهو مجموعة البحار الملحة التي قسمها الجغرافيون اصطلاحاً إلى محيطات وبحار داخلية.

قال سبحانه: **﴿أمّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً﴾**[١]، **﴿مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان﴾**[٢]، **﴿وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجورا﴾**[٣]، **﴿وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها﴾**[٤].

جاء في أساس البلاغة: «أمرج الدواب ومرجها = أرسلها في المرج ... ومرج السلطان الناس. ورجل مارج = مرسل غير ممنوع ... ومن المجاز: مرج الله البحرين. ومرج فلان لسانه في أعراض النساء وأمرجه...».

ونفس المعنى وارد في اللسان مع التوسع، وفي القاموس والصحاح.

وأورد ابن كثير في تفسير قوله تعالى **﴿مرج البحرين يلتقيان﴾**:

«... وقوله تعالى: **﴿مرج البحرين يلتقيان﴾** قال ابن عباس: أي أرسلهما ... (إلى أن يقول): والمراد بقوله البحرين: الملح والحلو، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس...».

كما أورد أيضاً في تفسير قوله تعالى: **﴿وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج﴾**:

«... فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس فرقه الله تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهاراً وعيوناً في كل أرض بحسب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم. وقوله

---

(١) النمل (٦١).

(٢) الرحمن (١٩، ٢٠).

(٣) الفرقان (٥٣).

(٤) فاطر (١٢).

تعالى ﴿وهذا ملح أجاج﴾ أي مالـح مر زعـاق لا يستساغ وذلك كـالبحار المعـروفة في المشارق والمغـارب: البحر المحيط ومـا يتصل به مـن الزقـاق وبحر القلزم وبحـر اليمن وبحر البصرة وبحـر فارس وبحـر الصين والهند وبحـر الروم وبحـر الخزر وما شـاكلها وشابهها ... وقوله تعالى: ﴿وجعل بينهما برزخاً وحجراً﴾ أي بين العذب والمالح (برزخاً) أي حاجزاً وهو اليبس من الأرض ﴿وحجراً محجورا﴾ أي مانعاً من أن يصل أحدهما إلى الآخر كقوله تعالى: ﴿مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان﴾...».

وأورد أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿بينهما برزخ لا يبغيان﴾: «أي وجعل بينهما برزخاً وهو الحاجـز من الأرض، لئلا يبغي هذا على هـذا وهذا على هذا فيفسـد كل واحد منهما الآخر ويزيله عن صفته التي هي مقصودة منه ...».

خلاصة القول، البحران هما :

- البحر العذب وهو مجموعة الأنهار والبحيرات والمياه الجوفية العذبة.
- والبحر الملح وهو مجموع المحيطات والبحار الداخلية الملحة.

يبرز في هذه الآيات أسلوب غريب جداً.

هذه الغـرابة هي في نظرتـه الاستعلائية الشمـولية لـلأرض، النظرة التي تجمع جميع أنهار الدنيا وبحيراتها ومياهها الجوفية غير المرئيـة في وحدة متميزة تسميها البحر العذب ﴿هذا عـذب فرات﴾ وتجمع جميع بحار الـدنيا الملحـة في وحدة متميزة تسميهـا البحر الملح ﴿وهذا ملح أجاج﴾.

فكأن الأرض قد زويت مكاناً وزمـاناً أمام قائل هذا الكلام، فهو يـراها جملة واحدة عبر السنين وعبرا المادة.

ليستطيع إنسان ما أن ينظر هذه النظرة يجب أن يكون على علم جيد بالكرة الأرضية وبـا لميـاه فيها وبـدورة هـذه الميـاه في الطبيعـة، كما يجب أن يكون ذا خيـال واسع جـداً يستطيع به أن يتصور الأرض بكليتها ويتصور حركة المياه فيها عبر سنين كثيرة.

فهل كان في زمن الـرسول ﷺ وقبله وبعده أحد عنـده ذلك العلم؟ أو ليس في هذا دلالة على أنه من لدن عليم خبير.

الأمطـــــار

قال تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها، أخرج منها ماءها ومرعاها﴾[1]، ﴿مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان﴾[2]، ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله﴾[3]، ﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور﴾[4].

مر معنا قوله سبحانه ﴿مرج البحرين يلتقيان﴾ ولا بأس من توضيح كلمة (يلتقيان) زيادة على وضوحها.

قال تعالى: ﴿وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان﴾.

فالجمع الأول التقى بالثاني يوم الفرقان، والجمع الثاني أيضاً التقى بالأول في نفس الوقت.

إذن فالجمعان التقيا. ونقول:

دجلة والفرات يلتقيان: أي إن دجلة يلتقي بالفرات (أو يصب فيه)، والفرات أيضاً يلتقي بدجلة (أو يصب فيه). فكل واحد منهما يلتقي بالآخر، فهما يلتقيان.

النتيجة: معنى قوله تعالى: ﴿مرج البحرين يلتقيان﴾ هو: أرسل الله البحرين العذب والملح (كليهما) يلتقيان ببعضهما.

وبتعبير آخر: أرسل الله البحر العذب يلتقي بالملح (أو يصب فيه). وأرسل البحر الملح يلتقي بالعذب (أو يصب فيه).

ويجب أن ننتبه جيداً إلى قوله تعالى: ﴿مرج البحرين﴾ أي أرسلهما، التي تفهمنا أن

---

(١) النازعات (٣٠، ٣١).
(٢) الرحمن (١٩، ٢٠).
(٣) الروم (٤٨).
(٤) فاطر (٩).

كل واحد من البحرين مرسل ليلتقي بالآخر.

لنلق الآن نظرة إلى الآيات الأربع:

الآية الأولى: ﴿أخرج منها ماءها﴾ تفهمنا أن ماء الأرض موجود فيها منذ وجودها وهذا يعني أنه لا يأتيها ماء آخر من مكان آخر، وعليه يكون المطر آتياً من هذا الماء الأرضي وليس من مكان آخر.

والآية الثانية: ﴿مرج البحرين يلتقيان﴾ تخبرنا أن البحرين العذب والملح مرسلان يلتقيان ببعضهما.

ونحن نرى البحر العذب أمامنا مرسلاً في الأنهار والسيول ليلتقي بالملح. لكننا لا نرى كيف أرسل البحر الملح ليلتقي بالعذب.

على أننا إذا أمعنا النظر في الآيتين وربطنا معانيهما ببعضها، نتوصل بسهولة إلى معرفة ذلك.

فالبحر الملح مرسل يلتقي بالعذب (أو يصب فيه). ولا نرى شيئاً يصب في البحر العذب إلا الأمطار. والأمطار لا تأتينا من مكان آخر، بل من ماء الأرض نفسه. إذن فالأمطار تأتي من البحر الملح..

كيف تأتي الأمطار من البحر الملح؟

تفهمنا الآيتان ﴿الله الذي يرسل الرياح..﴾ و ﴿الله الذي أرسل الرياح...﴾ أن الرياح هي التي تثير السحاب، فهي عندما تهب شديدة فوق البحار الواسعة تسبب بخر المياه وكلما كانت أشد كان البخر أكثر.

يتكاثر البخار في الهواء حتى يتكاثف فيصبح سحاباً تحمله الريح إلى حيث يشاء الله. قال سبحانه: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت (أي حملت) سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت﴾[1].

---

(١) الأعراف ٥٦.

ويجب أن ننتبه إلى كلمـة (تثير) الواردة في الآيتين الكريمتين. فالإثـارة تكون للشيء الراكد. نقول:

- أثارت الريح الغبار.
- أثار كوامن غضبي.

حيث نفهم أن السحـاب كان راكـداً (في البحر) فأثـارته الريـح وأقلته حيث يـريد الله. لقد كانت الإنسانية في زمن محمـد ﷺ وقبله وبعده حتى العصور الأخيرة تجهل كل هذه الأشياء، إلا بعض فرضيات يشوبها الكثير من الخرافة.

فكيف عـرفهـا محمـد ﷺ؟! هل هنـاك احتمال آخـر غير أنها وحي من لـدن عليم خبير؟

اللهم إني آمنت بك وبقرآنك ونبيك.

ملاحظات :

١ - أورد ابن كثير وغيره من المفسرين أقـوالاً أخـرى في تفسير قـولـه تعـالى ﴿**مرج البحريـن يلتقيان**﴾ إلى جـانب ما نقلتـه هنـا. فيها كلهـا بعض التأويل الـذي لا يفهم مباشرة من ظاهر الكلمة أو من ظاهر النص. لذلك لم آخذ بها.

٢ - يجعل الأستاذ العابري (من العراق) في كتاب له اسمه (بصائر جغرافية) معنى «البحرين» في الآيـة هو أي بحرين يتصلان مع بعضهما بمضيق، كـا لمتوسط والأطلسي، وخليج عـدن والأحمر، أو الهنـدي وخليج البصرة، وأن البرزخ هـو القـاع المرتفع بين البحرين عند المضيق. أولجة الماء الذي يعلو هذا القاع.

وسمعت محاضرة لعبد المجيد الزنداني مسجلـة على شريط كاسيت يقول فيها نفس المقولة.

ولا أراهما أصابا الصواب. إذ لـو كانت الآية ﴿**مرج البحرين يلتقيان**﴾ وحدها في القرآن. لجاز لنا أن ندخل في تعميمها هذا المعنى.

أما وهناك آيات تفسرها فلا خيار لنا في الأمر.

حالة الصاعد في أعالي الجو

قال تعالى: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعّد في السماء﴾[١].

معنى الآية واضح. ومقصودنا منها هو قوله تعالى: ﴿يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء...﴾.

إن كثيراً من الناس يعرفون الإعجاز في هذه الآية ويرددونها كبرهان على صحة الإسلام. حين يصل الصاعد في السماء إلى الطبقات العليا من الهواء يشعر بصعوبة في التنفس وضيق شديد في الصدر بسبب خفة ضغط الهواء وقلة الأوكسجين، فإن ثابر على صعوده فقد الحياة، إلا إذا اتخذ الأسباب الوقائية التي هي الألبسة الخاصة بالفضاء.

في الوقت الذي نزل فيه القرآن الكريم، لم يكن هناك من يعرف ماذا يجري لمن يصعد في السماء. بل لم يكن أحد يتصور أن هذا بمقدور البشر إلا لمن أوتي علماً خارقاً بالسحر. وتورد الخرافات أن سيف بن ذي يزن (مثلاً) حمله العفريت حتى لم يعد يرى من الأرض إلا قدر الكف، ولكنها لا تذكر شيئاً عن الهواء وضيق الصدر، لأنهم كانوا يتصورون الجو متجانساً حتى أديم القبة الزرقاء التي كانوا يظنونها طبقة كتيمة كثيفة من عنصر آخر. والمثقفون باليونانيات كانوا يتصورونه متجانساً حتى فلك القمر.

وأورد هنا نفس السؤال الذي أورده بعد كل آية من مثل هذه الآيات:

كيف عرف محمد ﷺ ما كان يجهله البشر؟! هل هناك احتمال آخر غير أنه وحي من لدن عليم خبير؟!

اللهم إني آمنت بك وبقرآنك ونبيك. اللهم إني آمنت أن ما جاء به نبيّك هو الحق، وأن ما سواه هو الباطل.

---

(١) الأنعام (١٢٥).

الضّـــوء

كيف ينزل؟

قال تعالى: ﴿**إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام**﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿**واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض**﴾[2].

الحياة. هذه القدرة[3] العجيبة التي تندمج في الميت من ماء وتراب ومعادن فيخرج منها كائن حي يتغذى وينمو ويتكاثر ويموت.

هذه القدرة العجيبة التي يصعب على حواسنا إدراكها جملة أو تفصيلاً، يمثلها الله سبحانه لنا بشيء ندركه بحواسنا ونعرفه تماماً، بماءٍ ينزل من السماء. وبهذا التمثيل يمكن أن نفهم شيئاً من طبيعة هذه القدرة.

إن الماء الذي ينزل من السماء هو المطر، ونحن نعرف أن المطر ينزل بشكل قطرات متتابعة تغمر المنطقة التي تتساقط فيها.

إذن، فالحياة[4]، أو القدرة التي تتحول إلى حياة، هي أشياء تنزل من السماء بشكل قطرات أو ذرات لا يمكن رؤيتها أو إدراكها، إما لصغر تلك الذرات المتناهي، أو لسبب آخر نجهله ونجهلها معه. تنزل متتابعة تغمر المنطقة التي تتساقط فيها. وهي تسقط على كل مكان في الأرض.

هذه الذرات المنهمرة تختلط بالنبات فتعطيه القدرة على النمو والتكاثر، وعن طريقه تنتقل إلى الناس والحيوان ﴿... **فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام**...﴾.

---

(١) يونس (٢٤).

(٢) الكهف (٤٦).

(٣) أستعمل كلمة (القدرة) بمعناه المصطلح عليه في الفيزياء.

(٤) الحياة غير الروح، فالنبات كائن حي لكنه بدون روحٍ. وكذلك الجنين في الأشهر الأربعة الأولى.

فما هي هذه الأشياء؟

١ - نعـرف منها الضـوء معرفـة يقينية، فعليـه تـوقف الحياة النبـاتية، وعلى الحيـاة النباتية تتوقف الحياة الحيوانية، إذن فهو أساس للحياة على الأرض.

عـرف النــاس في جميع عصـورهم هــذه الحقيقـة، حتى عبــدت الشمس في جميع الـديانـات الوثنيـة لأنها مصدر الضـوء. بل إن بعض الـوثنيات جعلت الشمس الإلـه الأكبر للكون والحياة.

والضوء ينـزل من السماء. إذن، فهو بنـاءً على المثل الكريم، ينهمـر كالمطـر قطرات متتابعة، لكنها صغيرة جداً جداً لا يمكن إدراكها فمثلها الله سبحانه لنا بالمطر لنستطيع تصورها.

اكتُشفت هـذه الحقيقة علميـاً منذ حـوالي قرن مع البحـوث والتجارب الفيـزيائيـة الـواسعة، حيـث عُرف أن الضـوء يتشكل من حبيبـات صغيرة جـداً جداً، أطلقـوا على الحبيبـة منها اسم (فـوتون) وقـد قدروا وزنـه $١/١٠^{٢٧}$ من المِلّيغرام. أي جـزء من (١٠) مضروبة بنفسها ٢٧ مرة. وبتعبير آخر، يجب أن نحصل على عـدد من الفوتونات يساوي الرقم (١) وعلى يمينه (٢٧) صفراً لنحصل على وزن ميلليغرام واحد من الضوء.

٢ - هنـاك أشعة غير الضـوء تنزل من السماء ولا نـراهـا، كالأشعـة الكونيـة، وهي تنهمر أيضـاً بشكل ذرات صغيرة جداً جداً لا تـرى، وإن كانت كتلـة بعضها أثقل من الفـوتون. ولم يكتشف بعـد إن كان لهذه الأشعـة دور حيوي. على أني أظن أن لها جميعهـا دوراً في الحياة، أظن ذلك لأنها تتـوافق بشكلها الـذي تنهمر به مع الصـورة التي يعطينا إياها المثل الكريم.

٣ - إن أشعة الضوء والأشعة الكونية ذات طبيعـة مادية، فهي تتكون نتيجة لتحطم المادة في الشمس، أو في أي نجم ملتهب آخر.

وقد يكـون هناك أشياء أخـرى غير مادية نجهـل طبيعتها وكنهها، تنهمـر أيضاً من السماء. في هذه الحال، ليس من الضروري أن يكون عـدم إدراكنا لها بسبب صغر ذراتها، فقد تكون ذراتها كبيرة، لكنا لا نراها ولا ندركها لكونها غير مادية.

إن كانت أشياء من هذا القبيل موجودة، فلا أتوقع اكتشافها قبل عشرات كثيرة من السنين، إن لم يكن اكتشافها مستحيلاً في الأصل.

من الواضح أن قوله تعالى: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا ... إلخ﴾ يشمل القدرات الأساسية التي تعطي الحياة مما نعرف ومما لا نعرف بها في ذلك الضوء الذي هو موضوعنا الآن.

انكسار الأشعة الضوئية

قال تعالى: ﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً، ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً﴾[1].

جاء في كتب التفسير أن الظل هنا هو عتمة الفجر حتى طلوع الشمس. ولم يستندوا في تفسيرهم على حديث شريف. وواضح أنه محاولة لربط كلمة (الظل) بقوله تعالى: ﴿ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً﴾ وإيجاد تفسير مقبول لديهم.

إننا لا نقبل هذا التأويل. ولا نعطي -كالعادة- الكلمة في القرآن والحديث إلا معناها الواضح المعروف العام. إلا إذا كانت مفسرة بآية أو حديث آخر.

فالظل هنا هو الظل بمعناه العام، سواء كان ظل حيوان أو نبات أو جماد بما في ذلك الليل الذي هو ظل الأرض.

تدعونا الآية الكريمة أن نرى صنع الله، الذي أتقن كل شيء صنعه، فيما نرى، في الظل. فهو الذي خلقه وخلق أسبابه ومدّه، ولو شاء سبحانه لغيّر في أسبابه فجعله ساكناً لا يتحول ولا يزول، كما يحدث في بعض الكواكب، كعطارد مثلاً، ذلك الكوكب القريب من الشمس، والذي يقابلها بوجه واحد فقط. فنهاره نهار أبدي، وليله ليل أبدي، والظل فيه ثابت ساكن. ثم جعل سبحانه الشمس دليلاً على الظل، فبها عرف وبها حُدد.

---

(١) الفرقان (٤٥)

ثم يعرض سبحـانه واحدة من آياتـه في الآفاق. وإحدى معجزات القـرآن لعصرنا: ﴿ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً﴾.

ويجب أن ننتبه هنا إلى أن الظل الذي ﴿قبضناه قبضاً يسيراً﴾ هو الظل الذي دليله الشمس ﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ثم قبضناه ...﴾.

فالظل الذي دليله ضوء مصباح مثلاً، أو ضوء نار، لا يدخل في حكم الآية.

إن الله سبحانـه لم يترك الظل الناتج في الأرض عن الشمس على امتداده الـذي كان من الممكن أن يكون عليه. بل قبضه قليلاً، وجعله أصغر أو أقل من ذلك.

لتفسير الآية وفهمهـا جيداً، يجب أن نـدرس حادثة انكسـار الأشعة عنـدما تمر من وسط إلى آخر مختلف الكثافة.

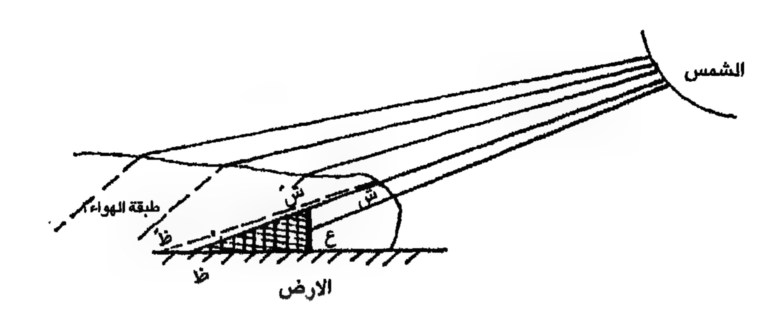
- تسير الأشعة الضـوئية بخطوط مستقيمـة ما دامت في وسط متجانس ذي كثـافة ثابتة، حتى إذا صادفت طبقة أخرى مختلفـة الكثافة، اجتازتها -إن كان ذلك ممكناً- بعد أن ينحرف خط سيرها انحرافاً يتناسب مع الفرق بين الكثافتين.

أظن أن كل واحد منـا رأى هذه الحادثة عندمـا رأى صدفة، أو غير صدفـة، قضيباً موضـوعاً بشكل مـائل في الماء، والقسم الأعلى منه بـارز في الهواء، فقد رأى أن القضيب معقوف (مطعـوج) عند نقطة تماس الماء بالهواء، فإن سحبـه من الماء وجده مستقيماً وإن أرجعه وجده معقوفاً. ولعل البعض لم يستطع أن يجد تعليلاً لهذه الحادثة.

إن تعليلها هـو أن الأشعة تنحـرف عندما تنتقـل من الماء إلى الهواء بسبب اختلاف الكثافتين، فيظهر القضيب وكأنه معقوف.

نعود إلى الظل الذي دليله الشمس.

ينبعث الضوء من الشمس، ويسير عبر الفـراغ الكوني بخطـوط مستقيمة، حتى إذا اصطدم بعضـه بالهواء الأرضي، ذي الكثافـة العاليـة بالنسبة للفضـاء، انحرف ليسير في خط مستقيم آخر يشكل مع خط سيره في الفراغ زاوية ما. حسب الشكل (رقم٢).



ينكسر الشعاع ش لدى عبوره طبقة الهواء فيمتد ظل العمود ع حتى النقطة ظ. ولولا حادثة الانكسار هذه لكان الشعاع الذي سيُحدِث ظلاً للعمود هو الشعاع شَ الذي كان سيمتد حتى النقطة ظَ وسيكون أطول من الظل الواقعي كما هو واضح في الصورة.

هكذا يظهر لنا بوضوح كيف أن حادثة الانكسار سببت قبض الظل قبضاً يسيراً. فهو أقصر بقليل مما لو لم يكن هناك حادثة انكسار.

وإذا تأملنا في الصورة المعروضة، شكل (٢)، نرى أن الظل المقبوض كأنه مسحوبٌ من الأعلى. وبتعبير آخر: لو تخيلنا أن الظلّ رداءٌ أو غطاء مسدول على المكان المظلّل، وأنه كان في الأصل يغطي المجال حتى النقطة ظَ ، فلو قُبض هذا الرداء من الأعلى، وسُحب إلى الأعلى يسيراً، فسيصبح في وضعه الحالي، يغطي المجال حتى النقطة ظ. حيث تظهر الدقة في قوله سبحانه ﴿ثم قبضناه إلينا﴾.

وقد رسمت في الصورة زاوية الانكسار بشكل أكبر من الحقيقة، ليظهر قبض الظل بوضوح. أما الحقيقة فهو أقل من ذلك، بحيث يتحقق قوله تعالى ﴿قبضاً يسيرا﴾ تحققاً تاماً.

كانت الإنسانية حتى القرون الأخيرة تجهل أن الظل مقبوض جهلاً كاملاً. فأتساءل، وليتساءل معي كل ذي عقل.

١ - كيف عرف محمد ﷺ ذلك؟! وكيف عرف -على الأخص- تلك الصورة الدقيقة الظاهرة في قوله «ثم قبضناه إلينا»؟!

٢ - هل هناك احتمال آخر غير أنه وحي من لدن عليم خبير؟

اللهم إني آمنت بك وبقرآنك ونبيك.

يبقى حرف الترتيب «ثم» الوارد في «ثم جعلنا الشمس... ثم قبضناه...» الذي سنراه في مبحث لاحق.

نفوذ الضوء في الماء:

قال سبحانه: **﴿أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾**[1]».

إذا أمعنّا النظر في موجة كبيرة من أمواج بحر مضطرب، نرى سطحها تعلوه موجات صغيرة، ولو أمعنا النظر في إحدى الموجات الصغيرة لرأينا سطحها تعرجه مويجات أصغر. وهذا ما يعرف بتراكب الأمواج. وهو معنى قوله تعالى: **﴿موج من فوقه موج﴾**.

في هذه الحالة لا تنفذ الأشعة بعيداً في البحر العميق (اللجي) للأسباب التالية:

أ - امتصاص الماء للضوء.
ب - حادثة الانعكاس.
جـ - حادثة الانكسار.

أ - الامتصاص:

لو أن بحراً كان سطحه كالمرآة تماماً لهدوئه، فإن الأشعة التي تنفذ داخله يذهب كل أثر لها بعد أمتار إن ألّفت فقد لا تصل إلى ألفين، وإن وصلتها فلا تجتازها بكثير، لأن الماء يمتص الأشعة الضوئية شيئاً فشيئاً عند مرورها فيه، فلا تسير مسافة معينة حتى يمتصها جميعها.

ب - الانعكاس:

تسير الأشعة بخط مستقيم فإذا اصطدمت بسطح أملس انعكست عنه إن لم يكن

---

(١) النور (٤٠).

شفافاً. فإن كـان شفافاً انعكس جزء منها ونفذ البـاقي. وهذا ما يحصل على سطح الماء، إذ ينعكس قسم من الأشعة ينتشر في الجو حسب قوانين معروفة، وهذا هو السبب الذي يجعلنا نرى صـورتنا عندما ننظـر في الماء. وينفذ باقي الأشعة ممـا يسمح بوجود شيء من الإضاءة داخل الماء.

جـ - الانكسار:

مر معنـا قبل قليل شرح حادثة الانكسار بصـورة كافية لموضوعنـا. وألفت النظر إلى أن الانكســار يحدث عندمـا يكون مسقط الشعـاع على سطح الطبقة المختلفـة الكثافـة مـائلاً. أما إذا كـان عموديـاً على السطح يشكل معـه زوايا قـائمة فـلا ينكسر. وعلى كل حال فسرعته تقل.

في حالـة البحر اللجي (أي عظيم اللجـة، بمعنى أنه عميق) عنـدما يتراكب فـوقه الموج، ينعكس قسم مـن الشعـاع السـاقط عــائداً إلى الجو، ويعـاني القســم النـافــذ انكســارات كثيرة بسبب تعدد السطـوح الصغيرة التي يسقط عليهـا وتحدبها أو تقعرهـا واختـلاف جهـاتها. فيتشتت إلى كل جهـة حيث لا يصل منـه إلا جـزء ضئيل إلى عمق قليل يمتصه الماء.

أما عندمـا يكون الجو مغطى بالسحاب فـالأشعة الضوئية تحته تكـون ضئيلة منتشرة في الهواء، عنـدئذ لا يصل مـن الضـوء إلا جـزء أقل إلى عمـق أقل، وتسيطـر على أعماق البحر اللجي ظلمات بعضها فـوق بعض. ظلمة الماء الذي يمتص الضوء، فـوقها ظلمة الموجات المتراكبـة التي تعكس قسماً من الأشعة وتكسر البـاقي، فوقها ظلمـة السحاب الذي يحجب قسماً كبيراً من ضوء الشمس وينثر الباقي في الهواء.

قد يقـول قائل، إن من الممكن أن يكون السبـاحون في الأزمنة القـديمة عرفـوا هذه النـاحيـة. لكن عنـدما نعلم أن هـذه الظلمات تسيطـر في عمق أبعـد من المدى الـذي يستطيع السباح العـادي أن يغطس إليه، ويوضـح القرآن الكريم ذلك بقـوله ﴿في بحر لجي﴾، ولو كـانت الظلمة تسيطر في الأمـاكن الضحضاحة لاكتفى بقـوله: ﴿في بحر﴾ دون كلمة ﴿لجي﴾، عندما نعلم هذا ينتفي قول القائل.

وقد يقال: إن القياس ساعد الأقـدمين على معرفة ذلك. ونجيبهم إن هذا جائز. ولو كـانت هـذه الآية وحـدهـا في القرآن الكـريم لقبلنـا قـولهم. أمـا وإلى جانبهـا عشرات معجزات، فإنها بذلك تصبح برهاناً ممتازاً على صحة الإسلام.

كما توجـد حالة ثانيـة أيضاً في البحر اللجي تتحقق فيهـا الآية، وقد كانت مجهـولة حتى الحرب العـالميـة الشـانية عنـدمـا اكتُشفت، وبقيت، بسبب تأثيرهـا على الموجـات الـراديويـة، سرّاً من أسرار الجيش الأميركي طيلـة الحرب. أنقل تلخيصـاً مختصراً لها عن محاضرة لعبد المجيد الزنداني مسجلة على شريط كاسيت، يقول ما ملخصه:

البحـر اللجي، ينقسم رأسياً إلى بحـرين، بحر سطحي وبحـر عميق، يفصل بينهما مـوج داخلي يشكل غطاءً للبحـر العميق. يـوجد هـذا الموج الداخلي على أعماق مختلفـة تتراوح بين ٦٠م إلى ٢٤٠م. اهـ.

حيث نـرى أن الآية الكـريمـة بكلماتها القليلة، تقـدم صـورة واضحة ودقيقـة عن الموجَيْن، الداخلي فوق البحر العميق والخارجي فوق البحر السطحي.

وهنا ملاحظة هامة، فبتعـاملي مع الآيات العلمية في القرآن الكريم، لاحظت أنه لا يوجـد حرف -بله الكلمـة- في هذه الآيات إلا ولـه دلالة ذات عـلاقة وطيدة بـالحقيقة العلمية التي تقدمها الآية، فلا يوجد حرف زائد، ولا يوجد حرف يمكن الاستغناء عنه.

وهذه القـاعدة تدعو إلى التـدقيق حتى في حروف الآية التي نحن بصـددها، حيث نرى العبارة ﴿.. **موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحاب**﴾!. فقد قال ﴿**من فوقه موج**﴾ ولم يقل ﴿**فوقه موج**﴾! فما هو دور الحرف «من»؟

الذي أراه، وأستغفر الله إن كنت مخطئـاً، أن «من» هذه هي للتبعيض، ولا أرى فيها أي معنى من معـاني «من» الأخـرى، فهي قبل كل شيء ليست زائدة، ولا أرى فيهـا أي معنى لابتداء الغـاية أو الغايـة أو بيان الجنس أو التعليل أو البـدل أو الفصل أو القيام مقام حرف جرّ آخر. والله أعلم.

من هذه الرؤية يكون معنى العبارة هو: ﴿**مِن بعض ما فوقه موجٌ**﴾. أي يوجد شيء آخر غير الموج فوقه، هو هنا ماء البحر السطحي الذي يعلوه الموج السطحي.

يساعد على هذا الفهم العبـارةُ التي بعدها والتي هي ﴿من فوقه سحاب﴾ إذ نعلم أن السحاب هو بعض ما فوق الموج السطحي، وبعضه الآخر هو الهواء.

ومثلها أيضاً ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم.. ﴾ حيث نعرف أن ما يعبد من دون الله كثير، كل ضالّ يعبد معبوداً من بعض ما دون الله سبحانه.

هذه الـرؤية لحرف الجر «مـن» في هذه الآية تجعـل دلالتها أيضـاً صحيحة بـالنسبة لحالة الموج الداخلي كما هي صحيحة بالنسبة لتراكب الأمواج.

تغير اللون مع شدة الحرارة

قال ﷺ: «**أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت. فهي سوداء مظلمة**».

رواه الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة. وأورد ابن كثير هذا الحديث نقلاً عنهما في تفسير سورة القارعة، وأضاف إنه روي أيضاً من حديث أنس وعمر بن الخطاب.

وقال أيضاً ﷺ: «**أتدرون ما مثل ناركم هذه من نار جهنم، لهي أشد سواداً من دخان ناركم هذه بسبعين ضعفاً**».

رواه الطبراني عن أبي هريرة مرفوعاً، كما رواه أبو مصعب عن مالك ولم يرفعه، وقد أورده ابن كثير في تفسير سورة القارعة.

- وقد أَخَذْتُ الحديثين وتخريجهما من تفسير ابن كثير (سورة القارعة).

يفصل لنا الحديث الأول كيف يتغير لون الإشعاع مع اشتداد الحرارة من الأحمر إلى الأبيض ثم إلى الأسود. ويؤيد الحديث الثاني كون الإشعاع أسود في الحرارة العالية جداً.

لو أتينا بقطعة حديد، أو أي شيء آخر، وسخناه تسخيناً كافياً فإنه يحمر، فإذا زدنا التسخين ورفعنا حرارته أكثر فإنه يغدو أبيض سيالاً، وإذا زدنا التسخين أيضاً ورفعنا حرارته أضعافاً نرى الإشعاع أخذ يميل إلى اللون الداكن ثم يتبخر، وإذا استطعنا أن نحتفظ بالأبخرة في مكان محصور ثم رفعنا حرارتها فإنها تسْودّ ثم تسْودّ. وكلما ارتفعت الحرارة كلما زاد الاسوداد.

اكتشفت الإنسانية هذه الحقيقة في الزمن الأخير مع التجارب المخبرية الواسعة، وكانت قبل ذلك تجهلها جهلاً تاماً.

فكيف عرفها محمد ﷺ؟! وهل يمكن أن يعرفها إلا عليم خبير؟!

أم هل عرفها محمد ﷺ من التجارب المخبرية التي كانت تجري في أندية قريش؟ أم في مضارب البدو؟ أم في أديرة بصرى؟.

التعليل الوحيد هو أن لهذا الكون خالقاً أرسل رسولاً أوحى إليه وبلغنا الرسول هذا الوحي، وذكر لنا أمثال هذه الأحاديث لتكون معجزات لعصرنا دالة على أنه جاء بالحق.

الكوكَبُ الأرضيّ

منشأ الأرض:

قال سبحانه **﴿أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾**[1].

إن السماوات (أو الكـون) بما في ذلك الأرض كانـت كتلة واحـدة فتقهـا الله نجومـاً وكواكب وغباراً وغازات وأشياء نجهلها موزعة على السماوات.

كانت الأرض جزءاً من تلك الكتلة الكونية الهائلة الملتصقة ببعضها. ولا توضح لنا الآية الكـريمة متى فتقت الأرض عن الكتلـة وكيف؟ هل تم ذلك دفعـة واحدة بحيث أن النجوم والكواكب بما في ذلك الأرض، استقلت عن بعضهـا وتميزت منذ الفتقة الأولى الوحيدة؟ أم إن ذلك تم على دفعات، بحيث أخذت الفتقات تتتابع واحدة بعد الأخرى حتى الكتلة الأخيرة التي كانت الأرض جزءاً منها ثم فتقت؟

آية أخرى توضح لنا الأمر.

قال سبحانه **﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها﴾**[2].

في تفسير قوله تعالى: **﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾** اختلاف يراه الباحث في كتب التفسير، ولم يستندوا في أقوالهم على خبر عن الرسول ﷺ. ممـا يسمح لنا أن نأخذ الكلمة بمعناها المعروف المشهور في الجاهلية وفي عصر الإسلام الأول وما بعده حتى الآن.

جاء في أسـاس البلاغة: «.. ويقال لـلاعب بالجوز: أبعد وادحه أي ارمـه وأزله عن مكانه. ودحا المطر الحصا عن الأرض: كشفه...».

وفي الصحاح: «.. ودحا المطر الحصا عن وجـه الأرض. ويقال للاعب بالجوز: أبعد المدى وادحه، أي ارمه. ويقال للفرس: مرّ يدحو دحواً، وذلك إذا رمى بيديه رمياً ...».

وفي القامـوس: «المدحاة، كمسحـاة، خشبة يدحـى بها الصبي فتمر على الأرض لا تأتي على شيء إلا اجتحفته...».

---

(١) الأنبياء (٣٠).

(٢) النازعات (٢٧-٣٠).

وفي اللسان: «... وفي حديث ابن عمر فدحا السيل فيه بالبطحاء، أي رمى وألقى... وسئل ابن المسيب عن الدحو بالحجارة فقال لا بأس به أي المراماة بها والمسابقة. ابن الأعرابي: يقال هو يدحو بالحجر بيده أي يرمي به ويدفعه. قال والداحي الذي يدحو الحجر بيده... ودحا المطر الحصا عن وجه الأرض... قال أوس بن حجر:

ينزع جلد الحصا أجشّ مبترك
كأنه فاحص أو لاعب داحي

ويقال للاعب بالجوز أبعد المرمى وادحه أي ارمه. وأنشد ابن بري:

فيدحو بك الداحي إلى كل سوءة
فيا شرّ من يدحو بأطيشَ مدْحَوي

والدحْو هو رمي اللاعب بالحجَر والجوز وغيره. اهـ.

ويستعمل لاعبو الكرة الخشبية، حتى قبل عقود قليلة، في البدو وفي حوران كلمة (دحا) بمعنى وكز الكرة بطرف عصاه لتتدحرج.

وهكذا يصبح معنى (دحا): قذف، أو رمى، أو دحرج، أو هذه المعاني مجتمعة. نعود إلى الآية الكريمة.

﴿أأنتم أشد خلقاً ... بعد ذلك دحاها﴾.

تبين لنا هذه الآيات بوضوح، أن السماء بنيت[1] بنجومها المنيرة وكواكبها الباردة التي تستنير بالنجوم المضيئة فيحدث فيها الليل والنهار **﴿وأغطش ليلها وأخرج ضحاها﴾**. ثم بعد ذلك دحا الله الأرض من كوكب كانت جزءاً منه ملتصقة به **﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾**.

كما نستشف من تتابع الآيتين **﴿وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها﴾** أن الأرض دحيت من كوكب بارد مظلم يستنير بنجم مضيء فيحدث فيه ليله وضحاه.

---

(١) انظر بحث بناء الكون.

قد يقـول قائل: إن طريقتي في هـذا الفهم من تتابع الآيتين فيهـا نظر، أو إنني أحمل الآية ما لا تحتمل من معاني؟.

لكننا عندما نأخذ في حسابنا أسلـوب القرآن الكريم نرى أن المعنى الذي فهمته هو صحيح. وأُورد بعض الأمثلة على هذا الأسلوب:

قال سبحـانه: **﴿وهو الـذي مد الأرض وجعـل فيها رواسي وأنهاراً﴾**[1]، **﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء**[2] **فراتا﴾** إلخ.

﴿ألم تـر إلى ربك كيف مد الظل ولـو شـاء لجعله سـاكنـاً ثم جعلنا الشمس عليـه دليلاً. ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً﴾.

ففي الآيـة الأولى ذكر الـرواسي وذكر بعـدها مبـاشرة الأنهار. وفي الآية الثـانية ذكـر الرواسي الشـامخات وأورد بعدها الإسقاء. وفي الآيـة الثالثة ذكـر كون الشمس على الظل دليلاً ثم أتبعها بكونه مقبوضاً. وقد مر شرح ذلك.

ذكـرت هذه الأمثلـة فقط لأنها بحثت في الصفحات السـابقة. ومن يـرد الزيـادةفما عليه إلا أن يراجع مباحث علوم القرآن ليرى من ذلك ما يروي غلته.

من هنـا نستنتج أن الأرض كـانت جزءاً من كتلـة بـاردة تضم جميع تـوابع الشمس الحالية بكوكب واحد بارد. كان هـذا الكوكب رفيقاً للشمس يستضيء به ويدوران حول بعضهما. (أي حول مركز مشترك بينهما).

ولعل مـداره كان أبعـد من مدار المشتري، ولعلـه أبعـد من زحل أيضاً. وبحـادث كوني من سنن الله لعله انفجار مفاجىء، ولعلـه انفصال بطيء، انقسم هذا الكوكب إلى كواكب صغيرة أكبرهـا المشتري الذي يبعد عن الشمس حـوالي ٧٧٥مليون كم ثم زحل الذي يبعد قريباً من ضعف هذه المسافـة وأصغرها عطارد القريبة من الشمس. والأرض وسط بينهما حجماً ومكاناً.

يؤيد هذ التفسير آية أخرى: **﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾**[3].

---

(١) الرعد (٣). (٢) المرسلات (٢٧).

(٣) الذاريات (٤٩).

عندما نقـارنها بالواقع، ونرى أن هنـاك من كل شيء زوجين متكاملين يتمم بعضهما بعضـاً: بروتـون وكهروب، ذكـر وأنثى، ليل ونهار... إلخ، نعرف أن للشمس أيضـاً رفيق مكمل له، بينهما تعادل في الكتلة وتقابل في الأوصاف.

لنفتش عن هذا الـرفيق، ولنفتش، ولن نجده، إننـا سنجد تـوابع كثيرة لا تصلح أية واحدة منها منفردة أن تكون ذلك الرفيق لصغرها.

من هـذا الـواقع، ومن الآيتين الكـريمتين ﴿**ومن كل شيء خلقنـا زوجين**﴾ و ﴿.. **كـانتا رتقـاً**﴾، ومن الـربط الموضـوعي بينهما، نعلم علم اليقين أنـه كـان للشمس رفيق تجتمع فيه توابعها الحالية.

ومن الآيتين ﴿**كانتا رتقـاً ففتقناهما**﴾ و ﴿**والأرض بعد ذلك دحاها**﴾ نعلم أن هذا الرفيق فُتِق بحادث من سنن الله الكونية فتشكلت منه التوابع الحالية: عطارد - الزهرة - الأرض - المريخ - المشتري - زحل - أورانوس - نبتون- بلوتـون وأقمارها وما انتثر منها من نجيمات لا تُرى وشهب ونيازك، وقد يكون منها المذنبات.

ونعود الآن إلى قوله سبحانه ﴿**ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ولو شـاء لجعله ساكناً ثم جعلنـا الشمس عليه دليـلاً. ثم قبضناه إلينـا قبضاً يسيراً**﴾ وإلى حرف الترتيب «ثم» الذي نراه فيها.

تدلنا الآية على أن الظل على الأرض مر بثلاث مراحل:

١ - مدّه الله سبحانه، ولم تكن الشمس دليله، أو لم تكن دليله الوحيد أو الأقوى.
٢ - ثم -في مرحلـة تاليـة، جعل الله سبحانـه الشمس دليله الـوحيد أو الأقـوى كما هو الآن.
٣ - ثم، في مرحلة ثالثة، قبضه إليه قبضاً يسيراً كما هو الآن أيضاً.

آية ثانيـة في القرآن الكريم، تلقي ضوءاً على المرحلـة الأولى من هذه المراحل، يقول سبحـانـه: ﴿**وجعلنـا الليـل والنهـار آيتين فمحـونـا آيـة الليـل وجعلنـا آيـة النهـار مبصرة...**﴾[1].

---

(١) الاسراء (١٢).

في تفسير ابن كثير عن ابن جريج عـن ابن عباس قال: كـان القمر يضيء كما تضيء الشمس، والقمر آية الليل والشمس آية النهار، فمحونا آية الليل... اهـ.

إن كان هذا الحديث عن الرسول ﷺ فهـو صادق وهو المطلوب، وإن كان اجتهاداً من ابن عباس –رضي الله عنهما– في فهم الآية فـاحتمال الصحة والخطأ فيه واردان –وإن كنت أنا (كاتب هذه الكلمات) أعتقد بصحته– لكنـه على كل حال، يساعدنا في معرفة تلك المرحلـة، فقـد كـان هناك نجم ملتهب تستضيء بـه الأرض، يمكن أن يكـون هـو القمـر قبل تبرده، وبقـربه الحالي منهـا، كما يمكن أن يكـون نجماً آخـر، كالمشتري مثلاً، الذي يمكن أنـه كان ملتهباً في ذلك الزمن وكـانت الأرض لم تزل قريبة منـه وبعيدة عن الشمس أكثر من بعدها الحالي بمرات قد تكون كثيرة.

هذه هي المرحلة الأولى.

«ثم» تبرد القمر، إن كان هو الـدليل في تلك المرحلة، أو تبرد النجم الآخر، وابتعدت الأرض عنـه واقتربت مـن الشمس قـربها الحالي، فصـارت الشمس هـي دليل الظل الأقـوى، أو الوحيـد لأن ضوء القمـر صـادر عن الشمس، ولم يكن الهواء قد وجـد على الأرض، أو كان هناك أشياء أخرى مجهولة لا يُقبض الظل فيها لسبب أو لآخر.

هذه هي المرحلة الثانية.

«ثم» وُجد الهواء بشكله الحالي فقُبض الظل القبض اليسير الذي نراه.

ملاحظـة:

كانـت تسيطر على الأوسـاط الفلكية في القرن الثـامن عشر فـرضية العـالم الفرنسي (بوفون) ثم جاءت بعدها فرضية كانْت، وكلتاهما تريان أن الشمس هي أم الأرض.

وقد جمع بعـد ذلك (سنـة ١٧٩٦) الريـاضي الفرنسي (دولا بـلاس) الفرضيتين في فرضية واحدة عدلها بعض الشيء.

ثم جـاء كلارك ماكسـويل بعد ذلـك بستين عامـاً ليدخل عليهـا تعديلاً آخـر، ثم أضـاف إليها (شـامبرلن ومولتـون) الأميركيـان و (جيمس جينز) الإنكليـزي تعديـلات

جديدة لكنها كلها لا تخرج عن نظرتهم إلى الشمس كأم للأرض انفصلت منها.

وفي سنة ١٩٤٣ ظهر (فيتساكر) العالم الطبيعي الألماني على الناس بنظرية جديدة ملخصها أن الأرض ورفيقاتها توابع الشمس تكونت من تكاثف المادة التي كانت مبعثرة بين النجوم قريبة من جاذبية الشمس وشكلت حولها غلافاً تجمّع مع الزمن في كتل هي التوابع الحالية.

إن كل هذه الفرضيات خطأ في أصولها وفروعها. والحقيقة التي لا حقيقة غيرها هي ما نستنبطه من القرآن الكريم. وهي أن الأرض ورفيقاتها توابع الشمس كانت رتقاً مجتمعة في كوكب رفيق للشمس وجد معها منذ وجدت وفتق معها منذ فتقت من التجمع الكوكبي الذي كانتا مندمجتين فيه. ثم فتق هذا الكوكب الرفيق ودُحِيَت الأرض ورفيقاتها.

إن تتبعنا لمنطق النظام الكوني من أصغر جزئياته حتى أكبرها ليفرض علينا فرضاً هذه الفكرة.

وسواء قبل البشر هذه الحقيقة في الوقت الحاضر أم لم يقبلوها، فستبقى حقيقة، وسيكتشفها العلم يوماً ما، وقد يكون قريباً ، وسيبقى إيراد القرآن الكريم لها معجزة خارقة، وسيبقى تساؤلنا المعهود:

كيف عرفها محمد ﷺ؟ وسنتساءل أيضاً: هل هناك احتمال آخر غير أنها وحي من لدن عليم خبير؟!.

كروية الأرض

قال سبحانه: ﴿**يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً**﴾[1] .

يغشي الليل النهار : يجلله به ويستره.
يطلبه حثيثاً: يلاحقه سريعاً، دون توقف.

لنتصور هذا.

---

(١) الأعراف (٥٤).

النهار، كائن من ضياء منبعث من الشمس يملأ الفضاء والجو في كل الجهات.

الليل، كائن آخر لا ضوء فيه إلا بصيص الشهب يلاحق النهار بسرعة والنهار يلاحقه. هذا يجري وذاك يطلبه دون توقف.

لكن إلى أين؟ وكيف؟ هل يجريان في طريق مستقيمة طرفها اللانهاية؟

لو كان ذلك لما مرّ على الأرض إلا نهار واحد لحقه ليل وانتهى الأمر. لكننا نراهما متعاقبين، فالنهار يطلع كل يوم من نفس الجهة التي طلع منها في اليوم السابق وتسير شمسه لتغيب في نفس الجهة التي غربت فيها بالأمس.

وهكذا العتمة تظهر من الشرق وتغور في الغرب. ثم يتكرر المشهد ويتكرر إلى ما شاء الله.

لنتصور الحركة في قوله تعالى ﴿**يطلبه حثيثاً**﴾ من خلال هذا الواقع فنرى أن الطريق دائرية لا لبس فيها.

لندرك هذا بسهولة يجب علينا أن نتفهم جيداً الأسلوب التصويري في القرآن. حينئذ، سيظهر لنا بوضوح، من خلال الآية، صورة طريق دائرية تدور حول الأرض، يجري عليها الليل والنهار، ذاك يغشى هذا يطلبه حثيثاً، وهذا يغشى ذاك يطلبه حثيثاً.

وقال تعالى: ﴿**يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل**﴾[1]، الآية واضحة كل الوضوح، يكور الليل على النهار فيخفيه ويكون الليل، ويكور النهار على الليل فيخفيه ويكون النهار.

وبين تكورهما على بعضهما نرى جرماً كروياً يتدحرج بينهما فيجعلهما يكوّران على بعضهما. هذا الجرم هو الأرض.

لنتصور أننا في منطقة النهار. وبعد ساعات سيغشى الليل هذه المنطقة، لكنه لا يغشاها بشكل عادي بل يكور تكويراً، أي ينحني بشكل كروي، ومن البدهي أن المنطقة يجب أن تكون كروية ليمكن فهم الكلام.

---

(١) الزمر (٥).

كانت الإنسانية تجهل هذا إلا بعض التخرصات. فكيف عرفه محمد ﷺ وأقره؟!

هل هناك احتمال آخر إلا أنه وحي من لدن عليم خبير؟!

وقال جل وعلا: ﴿وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي﴾[1]، ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي﴾[2].

كيف تكون الأرض ممدودة؟ وما معنى ذلك[3]؟.

«معنى ذلك أننا مهما سرنا فيها فستبقى ممدودة أمامنا، لن ننتهي فيها إلى حاجز يحول دون ما وراءه، أو هوة أبدية نقف عندها عاجزين.

فلنسر في أي اتجاه نريد، ولنسر الليالي والشهور والسنين والعمر كله، وسنبقى نسير، وستبقى ممدودة، ولا يوجد شكل من الأشكال الهندسية تتحقق فيه هذه الحالة إلا الشكل الكروي، فحيثما سرت عليه يبقى ممدوداً أمامك، وأي شكل آخر لا يمكن أن يحقق معنى هذه الآية».

ويقول سبحانه: ﴿أفلا ينظرون... وإلى الأرض كيف سطحت﴾ [الغاشية]

لننتبه إلى أن المسألة في هذه الآية مرتبطة بالساحة التي نراها عندما ننظر إلى الأرض ﴿أفلا ينظرون﴾.

فماذا نرى عندما ننظر إلى الأرض؟.

إننا نرى مساحة من الأرض دائرية مسطوحة محدودة بالأفق من جميع جهاتها، فإن كانت الآية من عند الله سبحانه، فيجب أن تكون صحيحة في كل مكان على سطح الأرض، أما إن كانت صحيحة في أماكن وغير صحيحة في أماكن أخرى، عندئذ لا تكون من عند الله (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) أي لوجدوا فيه اختلافاً مع الواقع الصحيح واختلافاً بين نصوصه.

فلو كانت الأرض مسطوحة بالمعنى الذي يتوهمه ذوو الفهوم القاصرة، لكانت

---

(١) الرعد (٣). (٢) الحجر (١٩).

(٣) مقتبسة من محاضرة للأستاذ محمد متولي شعراوي.

الآية عندئذ صحيحة ما دمنا بعيدين عن حوافّ الأرض، وغير صحيحة عندما نكون عند حوافها؛ لأننا نرى الأرض هناك مسطوحة من جهة الداخل، ومقطوعة من الجهة الأخرى حيث الهاوية الأبدية.

لكن القرآن هو من عند الله سبحانه، وهذه الآية هي أيضاً من عنده، ويجب أن تكون صحيحة في كل مكان على سطح الأرض، ولا يوجد شكل هندسي تتحقق فيه هذه النظرة المطلوبة إلا الشكل الكروي أو شبه الكروي، حيث لو كنا في أي مكان فوق الكرة ونظرنا، فسنرى مساحة من الأرض (والبحر طبعاً هو من الأرض) دائرية مسطوحة محدودة بالأفق من جميع جهاتها.

فكيف عرف محمد ﷺ ذلك؟! إن لم يكن وحياً فماذا؟!

حركــــة الأرض

يقول سبحانه: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾.

مر معنا قبل قليل معنى كلمة (دحا)، ويكون معنى الآية: (والأرض بعد ذلك قذفها أو دحرجها).

تبين لنا هذه الآية بوضوح حركة الأرض. إذ لو نظرنا إلى حصاة يدحوها المطر، أو إلى الكرة عندما يدحوها اللاعب بعصاه، أو إلى الجوزة يدحوها اللاعب بيده. أو إلى غريق يدحوه السيل بالبطحاء، أو إلى أي شيء يدحى، لرأيناه ينتقل من مكانه دائراً حول نفسه بسرعة أو ببطء، وهذه هي حركة الأرض.

ويعطينا معنى كلمة (دحا) أن الشيء الذي يدحى يكون كروياً أو شبيهاً بالكروي كما نرى في الأمثلة السابقة (حصاة، كرة، جوزة، حجر...).

كانت الإنسانية تجهل كل هذا، فكيف عرفه محمد ﷺ؟!

ملاحظة هامة: هي أن حقيقة كون الأرض مدحوّة (أي مقذوفة مدحرجة) كانت بالنسبة للمفسرين القدماء غريبة جداً وغير مفهومة ولا مقبولة،لذلك اجتهدوا فرأوا أن يكون معنى «دحا الأرض» هو بسطها، وقد كانوا معذورين بذلك، أما المحدثون فغير معذورين، لأن حركة الأرض صارت من البدهيات.

طبقـــات الأرض

قـال تعـالى: ﴿الـذي خلق سبـع سمـوات طبـاقـاً مـا تـرى في خلـق الـرحمن من تفاوت﴾[1]، ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طبـاقاً﴾[2]، ﴿الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن﴾[3].

في القرآن الكريم آيات كثيرة تخبرنا عن السمـوات والأرض، هذه ثلاث منها أُوردها دون غيرهـا لأنها تكفي لموضوع البحث من جهـة، ولأنها تتمم بعضها (بـالنسبة لموضـوع البحث أيضاً) من جهة ثانية.

فالآيـة الأولى والثانيـة تفهمنا أن الله سبحانـه خلق سبع سماوات طباقـاً، أي طبقة فـوق أخـرى. والآية الثـالثـة تـدلنـا أن الله جل شأنـه، خلق من الأرض مثل السماوات السبع، فتكون الأرض إذن ذات سبع طبقات.

لننتبه إلى قوله تعالى ﴿ومن الأرض﴾. فلم يقل ومن الأرضين (بصيغة الجمع) كما في قوله: ﴿سماوات﴾ بل جاء بها بصيغة المفرد المعـرف بألـ (الأرض) للدلالة على أن المراد بها هو الأرض التي نعرفها ونعيش عليها، وأنها هي ذات الطبقات السبع.

وقد وردت كلمـة (الأرض) في القرآن الكريم أكثر من خمسمائة مـرة. قسم كبير منها للدلالـة على الكرة الأرضية كلهـا، بصيغة المفرد، ولم ترد بصيغـة الجمع مطلقا. مما يـدلنا على أنها وحدة، وأن هذه الوحدة هي التي تتركـب من سبع طبقات يعلو بعضها بعضاً، أو يغلف بعضها بعضاً.

وقبل الولوج في الموضوع، أريد أن ألفت الانتباه إلى فكرة (الأعلى والأسفل) أو (فوق وتحت):

إن أسفل شيء بالنسبـة لنا هـو مركـز الأرض، وكل ما خـرج عن مركـز الأرض فهو أعلى منه أو فوقه.

أما بالنسبة للفضاء فليس هناك فوق أو تحت.

---

(١) الملك: (٣). (٢) نوح: (١٥) . (٣) الطلاق: (١٢).

إننا نرى القمر فوقنا، لكن لو صعدنا إليه ونزلنا على سطحه لرأينا إذ ذاك أن الأرض هي فوقنا، ولنظرنـا إليها كما ننظر الآن إلى القمر. ثم لرأينا أن القمـر تحتنا، ويصبح مركز القمر حينئذ أسفل شيء بالنسبة لنا.

يحدث نفس الشيء فيما لـو ذهبنـا إلى المريخ مثـلاً، أو إلى أي كـوكب آخـر. وبتعبير آخر: إن كلمة (فـوق) تعني الاتجاه الذي يعاكس جهة الجاذبيـة، بينما تعني كلمة (تحت) الاتجاه الذي يـوافق جهة الجاذبيـة وهذا بالنسبـة لأي كوكب قرب أو بعـد عندمـا نكون فوقه أو نكون في نطاق جاذبيته متأثرين بها.

ما هي طبقات الأرض؟

يخبرنـا القرآن الكـريم أن الأرض تتركب من سبع طبقات يعلـو بعضها بعضـاً(١)، وقد عرفت الآن هذه الطبقات بصورة علمية، وهي:

١ - **الطبقة الغازية (الهواء)**: مؤلفة في معظمهـا من الآزوت والأكسجين، وعناصر وأجسام مركبة أخرى كالهيدروجين وبخار الماء وغيرها...

سمكهـا غير ثـابت، يقـدر بعشرات الكيلـومترات. تتخلخل كلما زاد الارتفـاع، كثافتها على شاطىء البحر حوالي ١٫٣/١٠٠٠ من الماء. طبقاتها العلويـة مملوءة بالشوارد الكهربيـة وتسمى (الطبقة المتأينـة) ويظن أن هذه الطبقـة تلعب دوراً كبيراً في التقلبات الجوية وظواهـرها، متأثرة بدورها بـالإشعاع الهابط عليها من الشمس، كما يظن أنها هي التي توجـه الشفق القطبي، الذي يتجـاوز المنطقة القطبيـة أحيانـاً، وقد يصل قـريباً من خط الاستواء. وإذا حدث هذا ليلاً، صارالليل كالنهار المغشي بالغيوم المتفرقة.

والهواء بشكل عـام، والطبقـات العليـا منـه خـاصـة تمتص كثيراً من الإشعـاعـات والألوان مـا عدا اللون الأزرق، ولـو ارتفعنا في الجو ارتفاعاً كـافياً لرأينـا اللون السماوي يحيط بنا، حتى الأرض تغدو مائلة للزرقة.

---

(١) من واقع مفهـوم فكـرة الأعلى والأسفل المشروحـة آنفـاً، نـرى أن التعبير (يعلـو بعضهـا بعضـاً) والتعبير (يغلف بعضهـا بعضاً) لهما نفس المعنى، وذلـك بالنسبـة للأجـرام الكـونية أو لطبقـات الكون أو لطبقات الأرض.

ولو صعدنا فوق الطبقة الهوائية لرأينا نفس اللون السماوي أصبح تحتنا. وتعزى هذه الحادثة إلى ذرات الغبار وبخار الماء المنتشرة في الهواء.

وما القبة الزرقاء التي اعتدنا أن نطلق عليها اسم (سماء) إلا هذا اللون الأزرق الذي يرفضه الهواء. ويضاف إليه اللون الناتج من بخار الماء وذرات الغبار.

إن الطبقة الهوائية، بامتصاصها الكثير من الإشعاعات، تحمينا من الإشعاعات القاتلة التي لو وصلت إلى سطح الأرض بكاملها لما أبقت عليها من حياة. كما أنها تمنع عنا أيضاً رجوم الحجارة السماوية (الشهب) التي تتبخر بسبب الاحتكاك بالهواء قبل وصولها إلينا. ولعل هذا وذاك هو معنى قوله تعالى: ﴿**وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتنا معرضون**﴾.

٢ - **الطبقة المائية**: تكونت من اتحاد عنصري الأكسجين والهيدروجين، كثافتها ۰٩ ,١، وهذه الزيادة الكسرية في الكثافة آتية من الأملاح المذابة فيها. يتراوح سمكها في وضعها الحالي بين الصفر وعشرة كيلومترات. ولو أصبح سطح اليابسة مستوياً تماماً - بما في ذلك قاع البحار- لأحاطت هذه الطبقة الأرض بسمك قد يزيد عن ثلاثة كيلومترات.

يقسم القرآن الكريم الطبقة المائية إلى قسمين:

- البحر الملح، وهو مجموعة البحار الملحة.
- البحر العذب، وهو مجموعة البحيرات والأنهار والمياه الجوفية العذبة. وقد مر تفصيله.

٣ - **السيال**.

٤ - **السيما**. وقدمرّ شرحهما في بحث الجبال.

٥ - **السيما الحديدية، أو (السيحا)**: تحوم كثافتها حول ٥ ,٥، وقد تزيد.

٦ - **النيحا (NIFE)**: أخذ اسمها من الحرفين الأولين من النيكل والحرف الأول من الحديد.

٧ - **النواة المركزية**، ولما تزل غامضة[١]، ومن الجائز أن تحتوي على معادن ثقيلة

---

(١) كتبت هذا قبل أكثر من عشرين سنة، أما الآن (سنة ١٣١٥ هـ) فلا أعرف ماذا جدّ من اكتشافات.

مشعة. وتبلغ كثافتها ٥ , ١١ .

إن الفرضيات في الطبقات الثلاث الأخيرة أكثـر من الحقائق. والشيء المؤكد هو أن الكثافـة عند سطح موهـو تساوي ٣ , ٣، ثم تتـزايد تدريجيـاً إلى أن تصل إلى ٥ , ٥ عند أسفل السيحا. ثم ترتفع فجأة إلى ٥ , ٩ وتتزايد تدريجياً إلى ٥ , ١١ .

اكتشفت الطبقـات بواسطـة الزلازل الطبيعيـة، والصناعيـة خاصـة، إذ أن انفجاراً قوياً يحدث في مكان ما، يسبب اهتزازات تتناسب شدتها وسرعتها مع شدة الانفجار.

تنتشر هـذه الاهتـزازات في الأرض في جميع الاتجاهـات، بعضهـا سطحي وبعضهـا يغور في الأرض.

تسير الاهتزازات الغـائرة حسب قانـون معروف، هو أنها ثـابتة السرعـة ما دامت في وسط متجـانس الكثـافـة. فإذا انتقلت إلى وسـط أكثف، انعكس قسم منهـا ليرجع إلى السطح، ونفـذ القسم الآخر بسرعـة أكبر في الطبقـة الجديدة (الأكبر كثـافة)، كما تعـاني الاهتـزازات النافـذة بعض الانعكاسـات والانكسارات حتى تنفـذ من مكان آخـر من سطح الأرض.

تقاس سرعة الاهتـزازات المنعكسة، والتي نفذت، بقياس الزمن الـذي استغرقته في مسيرتها. وبتحليل الخطوط التي تـرسمها آلات قياس الـزلازل، وبالاستعانة بمعلـومات وقـوانين أخـرى معـروفـة، يمكن أخـذ فكـرة تقـريبيـة عن عـدد الطبقـات التي تمر بها الاهتزازات، وعن كثافتها وعمقها.

ومن الكثافة يمكن التكهن عن تركيب الطبقة الكيماوي.

إن بعض الكتب تدمج طبقة النيحـا مع النواة المركزية، وبعضها يـدمج معها طبقة السيما الحديديـة. كما إن بعضاً آخـر يضيف طبقة أخـرى هي (الطبقة الحيـة) أي الطبقة التي تتشكل من مجموعة الحيوانات والنباتات البرية والبحرية.

على أني لا أرى فيها طبقة، إذ أنها طارئة على الأرض -ولو طـال أمدها فأمد الأرض أطول- ثم لا نستطيع أن نرى في مجموعة الأحياء مفهوم الطبقة الأرضية بوضوح.

على كل حال: إن القـرآن الكريم يقرر أن الأرض سبع طبقات، عـرف الإنسان منها

خمساً معرفة يقينية، هي الطبقة الهوائية والمائية والسيال والسيما والطبقة التي تحت السيما حتى مركز الأرض، هذه الطبقة التي يجب أن تكون مؤلفة من ثلاث طبقات ليكون المجموع سبعاً، فإن استطاع الإنسان أن يصل إلى معرفتها بتفصيل ويقين فذاك فضل من الله، وأظنه واصلاً إليها (علم الإنسان ما لم يعلم).

هناك فكرة يتناقلها الناس، أو أكثرهم، عن بعد ما بين السماء والأرض، وما بين السماءين ، وعن وجود سبع أرضين تبعد إحداها عن الأخرى خمسمئة سنة أو سبعمئة... إلخ.

أُخذت هذه الفكرة من حديث نورده مع التعليق عليه كما ورد في تفسير ابن كثير.

يقول: «... أورد الترمذي عن ... عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة، قال: بينما نبي الله ﷺ جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب، فقال نبي الله ﷺ: هل تدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها الرقيع، سقف محفوظ، وموج مكفوف. ثم قال: هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فوق ذلك سماء بُعد ما بينهما مسيرة خمسمئة[1] عام... (حتى عد سبع سماوات ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض وسمك كل سماء مثلها) ثم قال: هل تدرون ما فوق ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال فوق ذلك العرش وبينه وبين السماء مثل بعد ما بين السماءين. ثم قال: هل تدرون ما الذي تحتكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها الأرض. ثم قال: هل تدرون ما الذي تحت ذلك؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإن تحتها أرضاً أخرى بينهما مسيرة خمسمئة سنة... (حتى عد سبع أرضين بين كل أرضَيْن مسيرة خمسمئة سنة). ثم قال: والذي نفس محمد بيده لو أنكم دليتم حبلاً إلى الأرض السفلى لهبط على الله. ثم قرأ: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾. ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه. ويروى عن أيوب ويونس (يعني ابن عبيد) وعلي بن زيد قالوا: لم يسمع الحسن من أبي هريرة».

يذكر ابن كثير بعد ذلك الذين أوردوا هذا الحديث ومنهم ابن جرير الذي رواه مرسلاً عن قتادة... إلى أن يقول (أي ابن كثير): «... وقد روي (أي الحديث) من

---

(١) لكتابة كلمة «مئة» هكذا دون ألف أنظر حاشية الصفحة ٣٤ .

حديث أبي ذر الغفـاري رضي الله عنه وأرضاه، رواه البزار في مسنـده، والبيهقي في كتاب الأسماء والصفات. ولكـن في إسناده نظـر، وفي متنه غـرابة ونكـارة. والله سبحانـه وتعالى أعلم.

وقال ابن جرير عند قوله تعالى: ﴿ومن الأرض مثلهن﴾: «حدثنا ... عن معمر عن قتادة قـال: التقى أربعة من الملائكة بين السماء والأرض فقـال بعضهم لبعض: من أين جئت؟ قال أحـدهم: أرسلني ربي عز وجل من السماء السـابعة وتـركته. ثم قـال الآخر: أرسلني ربي عز وجل من الأرض السابعة وتركته. ثم قال الآخر: أرسلني ربي عز وجل من المشرق وتركتـه. ثم قال الآخر: أرسلني ربي عز وجـل من المغرب وتركته». وهـذا حديث غريب جداً». (انتهى ما أورده ابن كثير).

بـالإضـافـة إلى تعليق ابن كثير واستنكـاره هـذه الأحـاديث، أورِد بعض الآيـات الكريمة لعرض هاذين الحديثين عليها.

قال تعـالى: ﴿... وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهـركم ويعلم ما تكسبون﴾[1]، ﴿... تسبح له السماوات والأرض ومن فيهن﴾[2]، ﴿... ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن﴾[3]، ﴿... ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً﴾[4]، ﴿... قل من رب السماوات والأرض قل الله﴾[5]، ﴿إن كل من في السماوات والأرض إلا آتى الرحمٰن عبداً﴾[6].

في هذه الآيـات الكريمة، وفي مئات غيرهـا، لا نرى أثراً لـلأرضين السبع الواردة في الحديثين السابقين.

- فهل الأرضين الست السفلى وسكانها خارجة من أحكام هذه الآيات؟؟.
- أم أن الحديثين غير صحيحين؟ والأرض بطبقاتها تشكل وحدة متماسكة؟.
- هذا ما يفهم من الآيات الكريمة.

---

(١) الأنعام (٣).
(٢) الاسراء (٤٤).
(٣) المؤمنون (٧٢).
(٤) الرعد (١٦).
(٥) الرعد: (١٧).
(٦) مريم (٩٤).

- وهناك آية تصل إلى حد التفصيل في ذلك، وهي قوله تعالى في سورة البقرة: **﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم﴾**.

إنه -سبحانه- يخبرنا عن خلق ما في الأرض، وعن سبع سماوات. أما الأرضين السبع بمفهوم الحديثين فغير واردة.

كما إننا نفهم من هاذين الحديثين أن الأرضين السبع تشكل نصف البناء الكوني السفلي -فيما عدا العرش- وإن السماوات السبع تشكل نصفه الأعلى.

فلو نظرنا في أحاديث المعراج الصحيحة، لرأينا أن الرسول ﷺ مر بالسماوات السبع، ولكن الأرضين بمفهومها ذي الطبقات المسكونة التي يفصل بين الواحدة والأخرى منها خمسمئة سنة، هذه الأرضين غير واردة مطلقاً!

فهل الله سبحانه لم يطلع عليها رسوله؟ وهو الذي أطلعه على الكون وما بعده من أكوان.

النتيجة: هذه الأحاديث غير صحيحة.

لكن هناك أحاديث أخرى وردت في الصحيحين تبين لنا بوضوح أن طبقات الأرض هي ما ذهبنا إليه.

- جاء في صحيح البخاري:

«من ظلم قيد شبر طوقه من سبع أرضين».

وورد نفس الحديث في صحيح مسلم باللفظ التالي:

«من أخذ شبراً من الأرض ظلماً طوقه إلى سبع أرضين».

وفي صحيح البخاري أيضاً:

«من أخذ شبراً بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين».

وهناك حديث بهذا المعنى ورد في الجامع الصغير للسيوطي عن الطبراني. وهو:

«أيما رجل ظلم شبراً من الأرض، كلفه الله تعالى أن يحفره حتى يبلغ آخر سبع أرضين، ثم يطوقه يوم القيامة حتى يُقضى بين الناس».

يقول السيوطي عن هذا الحديث إنه حسن.

ويقول المناوي الذي شرح الجامع الصغير في كتابه (فيض القدير):

«إن كثيرين رووا هذا الحديث كلهم عن يعلى بن مرة، وإن ابن حنبل رواه بعدة أسانيد، وإن الهيثمي يقول: إن رجال بعضها (أي الأسانيد) رجال الصحيح».

- إذن فهذا حديث حسن، يقربه الهيثمي بالنسبة لبعض أسانيده إلى درجة الصحيح-.

هذه الأحاديث تشعرنا بما يلي:

١ - إن الأرض السابعة هي في النهاية السفلى بالنسبة لنا (أي حول مركز الأرض الذي يقع فيها).

نفهم ذلك من قوله ﷺ: «خسفت به يوم القيامة إلى سبع أرضين». وفي قوله: «كلفه الله تعالى أن يحفره حتى يبلغ آخر سبع أرضين».

٢ - هذه الطبقات متصلة ببعضها وملتصقة.

نفهم ذلك من تطويق الظالم بما ظلم منها حتى سبع أرضين، ومن الخسف بها وه حفرها حتى الأرض السابعة.

ولقد ذهب بعض الذين بحثوا هذا الموضوع من الأقدمين إلى أن الأرضين السبع هي الأقاليم السبعة. أو القارات السبع.

كما ذهب بعض المُحدثين إلى أنها كواكب مسكونة موجودة في مكان آخر من الكون.

كل هذا يتعارض مع مفهوم الأحاديث، كما يتعارض مع مفهوم الآيات الكريمة التي تفهمنا أنها طبقات بعضها فوق بعض.

الخلاصة:

إن الأرض التي نعيش عليها -بطبقاتها السبع- هي المعنية بقوله تعالى: (ومن

الأرض مثلهن﴾.

كانت الإنسانية تجهل أن الأرض ذات سبع طبقات. بل كانت تجهل جهلاً تاماً مجرد وجود طبقات للأرض كائناً عددها ما كان.

فكيف عرفها محمد ﷺ؟! هل هناك احتمال آخر غير أنه وحي من لدن عليم خبير؟! اللهم إني آمنت بك وبقرآنك ونبيك.

اللهم إني آمنت أن ما جاء به نبيك هو الحق وأن ما سواه هو الباطل.

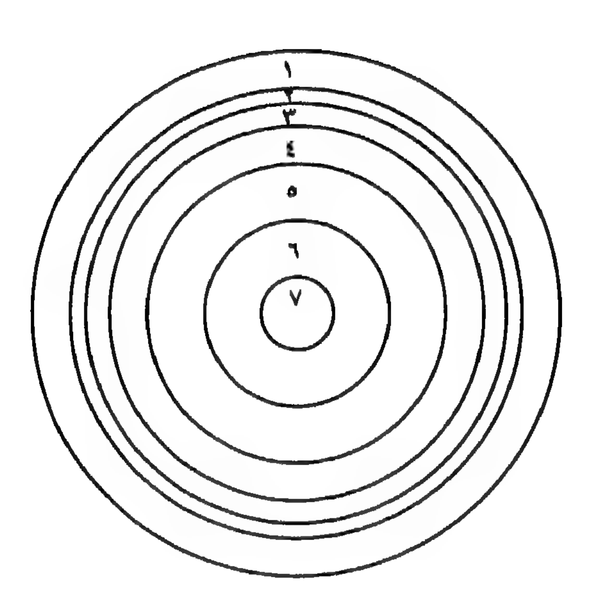
ملاحظة:

الآيات واضحة كل الوضوح بالدلالة على أن الأرض ذات سبع طبقات. وإنما اضطررت لهذا البحث الطويل لأن أكثر الناس في مجتمعنا يعتقدون بما ورد في الحديثين. ولقد سمعت مرة أحد الأساتذة الأفاضل، في الإذاعة، يذكر حديث الرقيع ويعلله ويؤوّل بعض نواحيه على أنه حديث صحيح.

لذلك رأيتني مضطراً لتوضيح عدم صحة هذا الحديث من جهتين:

أ - من جهة إسناده حسب قول ابن كثير وهو المحدث العالم.
ب - من جهة مخالفته وتناقضه مع الآيات القرآنية والأحاديث الأخرى.

مقطع تخيلي يمر من مركز الأرض



شكل (٣)

١ - الطبقة الهوائية .
٢ - الطبقة المائية .
٤ - السيال.
٤ - السيما.
٥ - السيما الحديدية (السيحا).
٦ - النيحا (NIFE).
٧ - النواة المركزية.

الكـــــون

شكله:

﴿الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن﴾[1].

تفهمنا هذه الآية الكريمة أن هناك تماثلاً بين الأرض والسماوات السبع ﴿ومن الأرض مثلهن﴾.

والسماوات السبع هي ما نطلق عليه اسم (الكون) في عصرنا الحاضر. وقد علمنا أن طبقات الأرض مكورة بعضها على بعض. ومن التماثل الذي تقرره الآية الكريمة بين الأرض والكون، نعرف أن السماوات السبع مكورة بعضها على بعض أيضاً، ويكون الكون كروي الشكل.

إن منطق الأشياء في كوننا. الأشياء التي أضحت يقينية لا شك فيها يقودنا إلى كروية الكون.

فإننا نرى، من جهة، أن الأشياء بطبيعتها تميل إلى التكور، ونرى، من جهة أخرى، أن الوحدات الفضائية، على الخصوص هي كروية:

- فوحدات الفضاء الذري، وهي البروتون أو النواة والكهارب كروية.
- ووحدات الفضاء الكوني التي هي الشموس وتوابعها هي أيضاً كروية.
- والكون وحدة في الفضاء اللانهائي، فهو إذن كروي.

كما أن الحسابات الرياضية الفلكية قادت إلى فكرة كروية الكون. فما الذي قاد محمداً ﷺ إلى هذه الفكرة؟!

أليس الأمر واضحاً؟!

طبقات الكون:

قال تعالى: ﴿الذي خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من

---

(١) الطلاق (١٢).

تفاوت﴾[1]، ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً﴾[2]، ﴿الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن﴾[3].

تبين لنا هذه الآيات الكريمة بوضوح تام ما يلي:

١ – يتركب الكون من سبع طبقات، تطلق الآية الكريمة على كل منها اسم (سماء). وقد مر معنا آنفاً أن هذه السماوات مكورة بعضها على بعض، أو يغلف بعضها بعضاً.

٢ – نعرف من البحوث العلمية الجيولوجية أن أكثف الطبقات في الأرض هي القريبة من مركزها، وأن أقلها كثافة (أخفها) هي الطبقة المحيطية (الهواء) وتتدرج كثافة بقية الطبقات بينهما .

فمن التماثل الذي تقرره الآية الكريمة **﴿ومن الأرض مثلهن﴾** بين طبقات الأرض والسماوات نعلم أن الطبقة الكونية (السماء) القريبة من مركز الكون هي ذات كثافة عالية. وكلما اتجهنا نحو المحيط الكوني صادفنا طبقات أقل كثافة تتركب نجومها من مواد أخف من الأولى.

ولا تحسبن السماء طبقة صلبة كتيمة!

إنما هي نجوم يفصل بينها السنين الضوئية وألوفها وملايينها، تسبح في الفراغ، بحيث أن مجموع هذه النجوم التي يفوق تعدادها الخيال، يشكل طبقة واحدة مغلقة بشكل الطابة تتجاوز سعتها حدود الخيال.

إن الآية الكريمة **﴿ومن الأرض مثلهن﴾** تقودنا –بعد معرفتنا اليقينية للأرض– إلى هذه النتيجة.

فأي طبقة أرضية، كالسيال مثلاً، التي نعيش عليها ونستند بأثقالنا، ولا يمكن لنظرنا أن يخترقها، والتي نظنها كتيمة متلاصقة الجزئيات، هي في الحقيقة غير ذلك.

إنها مؤلفة من وحدات، هي النوى والكهارب، تكدست بأعداد رهيبة الكثرة

---

(١) الملك (٩). (٢) نوح (١٥).

(٣) الطلاق (١٢) .

خاضعة لأنظمة محددة لا تتجاوزها. وهي متباعدة فيما بينها بنسبة تباعد النجوم والكواكب عن بعضها أو أكثر.

فالبعد، مثلاً، بين الشمس وأبعد توابعها (بلوتون) يساوي قطر الشمس مضروباً بخمسة آلاف تقريباً. بينما البعد في الذرة بين النواة وأقرب كهروب لها يساوي قطر النواة مضروباً بمثل هذا العدد أو أكثر.

ولو كشف عن أبصارنا فاستطعنا أن نخترق بها حدود المادة فتسرح في الفضاء الذري، لرأينا طبقة السيال (أو أي طبقة أخرى) فراغاً تسبح فيه نقط صغيرة متباعدة عن بعضها، هي النوى والكهارب، تنتقل بحركات تشبه حركات الكواكب، ولرأينا أن جسماً صغيراً لا تمكن رؤيته إلا بأكبر المجاهر يحوي ألوف المليارات من هذه النقط الصغيرة. وهذا هو سبب عدم اختراق البصر لها.

ولو زالت الفراغات بين النوى وكهاربها والتصقت الذرات ببعضها لأصبحت الكرة الأرضية كلها بحجم بناية كبيرة مع احتفاظها بكامل ثقلها.

وخلاصة القول: أن الطبقة الأرضية (أيّ طبقة) هي فراغ تسبح فيه نوى وكهارب متباعدة عن بعضها بعداً شاسعاً.

أو بتعبير آخر: هي طبقة من نوى وكهارب مكدسة بأعداد رهيبة متباعدة عن بعضها تباعداً كبيراً متجمعة بشكل طابة.

وبما أن الآية تقرر تماثلاً بين الأرض والسماوات.

إذن، فالسماء هي مجموعة من النجوم المتباعدة المكدسة بأعداد رهيبة، المتجمعة بشكل طابة سحيقة الأبعاد. وليست طبقة صلبة متلاصقة الأجزاء كما نظنها وكما هي الفكرة السائدة.

الأعجوبة أن آية أو بضع آيات، تقودنا، بدراسة موضوعية لها، إلى معرفة أسرار في الكون بقي العلم زمناً طويلاً حتى توصل إلى معرفة جزء منها وسيبقى زمناً آخر حتى يصل إلى معرفة الباقي.

فهل كل هذا من اختراع محمد ﷺ؟.

صور يقينية من التماثل بين الأرض والسماء:

لنعرض المعجزة العجيبة في قوله تعالى ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ بعرض الأمور التي غدت من اليقينيات فقط:

١ - في السماء نجوم وكواكب. وفي الأرض نوى وكهارب تماثلها.

٢ - في السماء تدور الكواكب حول النجوم. وفي الأرض تدور الكهارب حول النوى مثلها.

٣ - في السماء تبتعد الكواكب عن نجومها بعداً شاسعاً بالنسبة لحجومها. وفي الأرض تبتعد الكهارب عن نواها بعداً شاسعاً بالنسبة لحجومها.

٤ - في السماء تبتعد النجوم عن بعضها بعداً أكبر بكثير من بعدها عن كواكبها. وفي الأرض تبتعد النوى عن بعضها بعداً أكبر بكثير من بعدها عن كهاربها.

٥ - في السماء تتألف المجرات من تكدس أعداد هائلة من النجوم والكواكب. وفي الأرض تتألف القطع (من صخور وحصى وغيرها) من تكدس أعداد هائلة من النوى والكهارب.

٦ - في السماء تسير النجوم والكواكب المكدسة لتشكيل المجرات حسب نظام دقيق لا تحيد عنه. وفي الأرض تسير النوى والكهارب المكدسة لتشكيل القطع (من صخور وحصى وغيرها) حسب نظام دقيق لا تحيد عنه يماثل نظام النجوم والكواكب.

٧ - في السماء تتجاذب النجوم والكواكب فيما بينها حسب قوانين معينة. وفي الأرض تتجاذب النوى والكهارب فيما بينها حسب قوانين مماثلة لها.

فيا أيها الإنسان الحائر. يا من تفتش عن الحقيقة. هل تستطيع أن تجد تفسيراً لكيفية معرفة القرآن وجود تماثل بين الأرض والسماوات ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ والذي لم يعرف إلا في العصور الأخيرة بعد البحوث العلمية الكثيرة المضنية الطويلة.

وهل تستطيع أن تظن أن الإنسانية في زمن محمد ﷺ كانت تعرف شيئاً من ذلك؟ أو كان بإمكانها معرفته؟.

هل تستطيع أن تجد تفسيراً لهذا إلا أنه وحي من لدن عليم خبير أنزله على رسول أرسله؟ . أما أنا فلا أجد تفسيراً آخر.

تصوُّر لتوزع النجوم على طبقات الكون

عرف من البحوث الدقيقة أن أقرب شمس إلى مجموعتنا الشمسية تبعد عنها حوالي أربع سنين ضوئية وثلث. وهي النجم المعروف بـ(قنطوروس١) أي أكبر نجم مرئي في كوكبة قنطوروس. وإن من النجوم ما يبعد عنا ملايين السنين الضوئية وملياراتها.

تسبح هذه النجوم وكواكبها في الفراغ.

نقول إنها تسبح في الفراغ بالنسبة لحواسنا فقط. وإلا فمن غير المستبعد أن يكون هناك شيء ما لا ندركه يجمع بين نجوم كل سماء. كما أنه من الممكن أن يكون مثل هذا الشيء موجوداً بين نوى وكهارب الطبقات الأرضية.

نستطيع أن نتصور السماء الأولى مما يلي مركز الكون فراغاً تسبح فيه أجرام عالية الكثافة لا حصر لتعدادها، تغلفها السماء الثانية التي هي أيضاً فراغ تسبح فيه أجرام ذات كثافة أقل من الأولى بينها أبعادها بين بعضها أكبر منها. وهكذا حتى السماء السابعة التي تغلف الكون كله، والتي نظنها كذلك فراغاً تسبح فيه أجرام متباعدة بين بعضها أكثر من أي سماء أخرى، وقليلة الكثافة إلى حد أبعد من أجرام السماوات الأخرى. ولعل أثقل عنصر فيها هو أخف من الهيدروجين.

نقول هذا معتمدين على التماثل بين الأرض والسماوات. والله أعلم .

هل تختلف نجوم كل سماء عن السماء الأخرى؟

قال سبحانه: **﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينةٍ الكواكب﴾**[1]، **﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾**[2]، **﴿... وزينا السماء الدنيا بمصابيح﴾**[3].

تحصر هذه الآيات وجود النجوم المضيئة في السماء الدنيا. وكلمة (دنيا) هي مؤنث (أدنى) أي أقرب.

---

(١) الصافات (٦) . (٢) الملك (١٥). (٣) فصلت (١٢).

إذن، فأقرب سماء لنا، وهي السماء التي نحن جزء منها، هي المزينة بالنجوم المضيئة.

إن تحديد الزينة بالسماء الدنيا يدل على عدم وجود نجوم مضيئة كنجومنا في السماوات الأخرى. إذ لو كان ذلك موجوداً لقال: ﴿**زينا السماء، أو السماوات** «دون تحديد» **بزينة الكواكب**﴾.

وعليه فإنني لا أظن أن نفس العناصر والأجسام التي نعرفها في سمائنا، كالهيدروجين والأكسجين والماء والحديد وغيرها موجودة في السماوات الأخرى.

بل أظن أن لكل سماء عناصرها وأجسامها الخاصة بها. والله أعلم.

صلى الله عليك يا رسول الله.

من أين أتيت بهذه الأفكار الغريبة العويصة التي تظهر صحتها وقيمتها كلما توغل الإنسان بعيداً في المعرفة اليقينية للكون؟!

إننا نفتش في الفلسفات والعلوم التي كانت معروفة قبلك وفي زمنك وبعدك فلا نرى فيها شيئاً من الحقائق التي أتيت بها!

ولا نرى فيما أتيت به شيئاً من أساطيرها!

فمن أين إذن؟! اللهم إني أومن أنها من عندك. ولا يمكن أن نجد لها غير هذا التفسير إلا إذا غدونا وثنيين وألّهنا محمداً ﷺ (والعياذ بالله من الكفر بعد الإيمان).

خاطرة

أين موقعنا في الكون

قال تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾[1].

هذه آية تخاطب المسلمين، يدعونا فيها إلى العجب والتساؤل ما نراه من تحققها في كل ما نعلمه علم اليقين مما يمكن أن يدخل في عموم معناها.

- فقد نزل الإسلام في مكة والمدينة، وهما وسط في اليابسة.
- ثم انتشر شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً وبقي منبثقه وسطاً في العالم الإسلامي.
- والرقعة التي انتشر عليها الإسلام ليست في مشرق الأرض ولا مغربها، بل في وسط بين ذلك.
- والكرة الأرضية، بالنسبة للشمس، تقع في مكان وسط بين توابعها.
- وهي متوسطة الحجم بين توابع الشمس، فلا هي أكبرها ولا هي أصغرها.
- وهي وسط بطقسها فلا هي عالية الحرارة كالزهرة أو عطارد، ولا هي منخفضتها كزحل أو أورانوس.
- وهي وسط بإنارتها وبكمية الاشعاع الساقط عليها.
- وهي وسط بعدد أقمارها، فلا هي معدومة الأقمار كالزهرة ولا هي متعددتها كالمريخ وما بعده.
- وهي جزء من المجموعة الشمسية، والشمس نجم وسط بين النجوم من حيث حجمه وإشعاعه.
- وتقع المجموعة الشمسية في مكان من المجرة، لا هو في مركزها ولا في طرفها؟، بل في وسط بينهما.
- ومجرتنا وسط بين المجرات من حيث الحجم.

إن تحقيق الآية الكريمة في كل هذه المجالات يدعونا للعجب، كما يدعونا للتساؤل:

---

(١) البقرة (١٤٣).

- هل يمضي هذا التحقق إلى أبعد من هذا المدى؟ فتكـون مجرتنا في موضع متوسط من طبقتها السماوية.

وتكـون سماؤنا التي نحن جـزء منهـا متوسطـة بين السماوات، لا هي المركزيـة، ولا با لمحيطية، ولا بالكثيفة الأجرام ثقيلتها، ولا بخفيفتها قليلة الكثافة.

إن صح هذا، يكون موقعنا في السماء الرابعة أو ما حولها.

ولقـد سمعت أكثـر من مـرة مـن يقـول إن الشمس في السماء الـرابعـة مستنـداً إلى حديث شريف لم يقدر لي العثورعليه لأعرف رأي العلماء بصحته.

فإن كان الحديث صحيحاً فإنه يؤيد كوننا في السماء الرابعة.

وعلى كل حال هـذا مجرد تساؤل، وعلمه عنـد الله سبحانه ولا نعـرف ماذا سيأتي مع الأيام.

مواقــع النجــوم

يقول سبحانه: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنه لَقَسَمٌ لو تعلمون عظيم﴾[1].

جاء في تفسير ابن كثير: «واختلفوا في معنى قوله: ﴿بمواقع النجوم﴾ فقال حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: بمعنى نجوم القرآن، فإنه نزل جملة واحدة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقاً في السنين بعد، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية. وقال الضحاك عن ابن عباس: نزل القرآن جملة من عند الله من اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا، فنجمته السفرة على جبريل عشرين ليلة، ونجمه جبريل على محمد ﷺ عشرين سنة... وقال مجاهد أيضاً مواقع النجوم في السماء، ويقال مطالعها ومشارقها. وكذا قال الحسن وقتادة، وهو اختيار ابن جرير. وعن قتادة: مواقعها منازلها».

- انتهى قول ابن كثير -

هذا الاختلاف وكل اختلاف مثله، يفرض علينا البحث (ضمن الإطار المرسوم) فنفتش عن آية تعيننا، فإن لم نجد فحديث شريف، وإن لم نجد فنأخذ الكلمات بمعانيها اللغوية المعروفة المشهورة.

في تفسير هذه الآية لم أستطع رؤية آية أخرى تمدنا بالإيضاح اللازم، ولو كان فيها حديث شريف لما اختلف فيها المختلفون، أو لأورده ابن كثير. كما إننا نرى فيما أورده ابن عباس شيئاً من التأويل البعيد. والمعنى المباشر الذي تعطينا إياه الكلمات بمعانيها الواضحة هو قول مجاهد والحسن وقتادة.

كما إني استشف من قوله تعالى ﴿لو تعلمون﴾:

أ - زيادة في تأكيد عظمة مواقع النجوم.
ب - جهل الناس لهذه العظمة حال نزول القرآن.
جـ - دعوة للبحث والتفكير فيها.

وهذا يعني أن بالإمكان معرفتها. ومن البدهي أن من المستحيل معرفة مواقع نجوم

---

(١) الواقعة: ٧٥، ٧٦.

القرآن. بينما معرفة مواقع نجوم السماء ممكنة.

إذن، فالنجوم هنا هي نجوم السماء، ومواقعها بمعنى منازلها، أو أفلاكها.

الله سبحانه يقسم بما يشاء، وليس للمخلوق أن يُقسم إلا بالله. وعظمة القسم من عظمة المقسم به.

إذن، فمواقع النجوم شيء عظيم جداً جداً، بدلالة القسم بها، ثم وصف القسم بالعظمة مع توكيد ذلك بثلاث أدوات: إن واللام، وقوله تعالى: ﴿لو تعلمون﴾.

وفيما يلي لمحة خاطفة عن هذه العظمة.

مجموعتنا الشمسية:

أقرب كوكب إلى كوكبنا الأرضي هو القمر الذي يبعد عنا حوالي (٤٠٠) ألف كيلو متر، وهذا يعني أنه قريب جداً جداً، بل وأقرب من قريب. وتأتي بعده الشمس التي تبعد عنا قريباً من (١٥٠) مليون كيلو متر، وهي مسافة تتغير تغيراً طفيفاً لأن المسارالذي تتحرك فيه الأرض حول الشمس بيضوي الشكل.

أما الزهرة والمريخ فيختلف بعدها عنا من زمن لآخر اختلافاً كبيراً جداً، فبينما تقترب الزهرةمنا أحياناً إلى حوالي (٤٢) مليون كيلومتر، تبتعد أحياناً أخرى إلى حوالي (٢٥٠) مليون كيلو متر. وكذلك المريخ فإنه يقترب من الأرض كل (١٥) أو (١٧) سنة إلى حوالي (٧٠) مليون كيلو متر (وقد تقل عن ذلك أحياناً) ثم يبتعد عنها وقد يصل أقصى بعد له حوالي (٣٧٥) مليون كيلومتر. وكذلك الحال بالنسبة لبقية السيارات.

لذلك، من الأصح إيراد أبعاد السيارات بالنسبة للشمس. وفيما يلي جدول بهذه الأبعاد:

اسم الكوكب		بعده عن الشمس	
عطارد	حوالي	٥٨	مليون كم
الزهرة	حوالي	١٠٨	مليون كم
الأرض	حوالي	١٤٩,٥	مليون كم
المريخ	حوالي	٢٢٨	مليون كم
المشتري	حوالي	٧٧٤	مليون كم
زحل	حوالي	١,٤١٨	مليار كم
أورانوس	حوالي	٢,٨٥٤	مليار كم
نبتون	حوالي	٤,٤٧٢	مليار كم
بلوتون	حوالي	٥,٨٧٣	مليار كم

لأخذ فكرة عن هذه المسافات، نفـرض أن طائرة نفاثة تسير بسرعة (١٠٠٠) كم في الساعة بـدأت رحلتهـا من الشمس (وهـذا مستحيل طبعـاً) نحو (بلـوتـون) على خط مستقيم، فإنها لن تصل قبل ستمئة سنة من الطيران المستمر (على فرض أن السيار ثابت في مكانه)، وإذا أردنا الدقة، فإنها تحتاج إلى حوالي ٦٨٥ سنة.

ويمكن أخذ فكرة عن هـذه المسافة بطريقـة ثانية. فلو أردنا أن نعـد من الواحد إلى المليار عداً سريعاً دون توقف ودون أن نقطعـه بأكل أو شرب أو نوم للزمنا أكثر من عشر سنوات. أي يلزمنا ستـون سنة لنعد من الواحد إلى ستة مليـارات (البعد بالكيلو مترات بين الشمس وبلوتون).

هـذه الأبعاد التي تبـدو خياليـة هي أبعاد بين أفـراد عائلـة واحدة تسير مجتمعـة في الفضاء الرحب ملتفة حول أختها الكبرى الشمس.

لكنها رغم ضخامتها فهي ضئيلة تافهة أمام الأبعاد بين الشموس.

الأبعاد بين الشموس:

عندما نخـرج من نطاق مجموعتنا الشمسيـة لنرى المسافات بين شمسنـا وغيرها من الشمـوس، أو بين الشمـوس الأخرى، لا يبقى أي معنى للكيلـو مترات ولا لملايينهـا أو ملياراتها. وتصبح وسائل القياس السنين الضوئية، والبارسك (الفرسخ الفلكي)[1].

والسنة الضـوئية هي المسـافة التي يقطعهـا الضوء في سنـة واحدة[2] وهي تساوي (٩٤٦٠٨٠٠٠٠٠٠٠٠٠) تسعة تـرليون وأربعمئـة وستون مليـاراً وثمانمئة مليـون كيلو متر. وهذا رقم لـو أردنا أن نعد من الـواحد حتى نصله للـزمنا أكثر من مئـة ألف سنة لا نأكل فيها ولا نشرب ولا ننام. والفرسخ الفلكي يساوي ٣,٢٦ سنة ضوئية.

إن أقرب نجم إلى شمسنـا، وهو المسمّى (قنطـوروس أ) يبعد عنـا حوالي أربع سنين ضوئية وثلث السنة.

---

(١) البارسك = المسـافة التي يجب أن نبتعدهـا عن الأرض لنرى البعد بينهـا وبين الشمس من زاوية قدرها ثانية واحدة، والكلمة هي فَرْنَجَة لكلمة «الفرسخ».

(٢) سرعة الضوء = ٣٠٠,٠٠٠ كم في الثانية الواحدة.

وتبعد الشعرى اليمانية عنا بما يزيد عن ست سنين ضوئية.

كما يبعد النجم (دجاجة ٦١) حوالي ثماني سنوات ضوئية ونصف.

وقد رؤي أن هناك عدداً ضئيلاً جداً من النجوم لا يزيد عن السبعة تنقص أبعادها عنا عن عشر سنين ضوئية. بينما تبعد النجوم الأخرى مئات السنين وآلافها وملايينها وملياراتها.

المجرات

تتكون المجرة من نجوم وأتربة وغازات. وتحتوي مجرتنا التي نحن جزء منها على أكثر من مئة مليار شمس مثل شمسنا مضافة إلى توابعها التي قد يبلغ تعدادها أكثر من هذا العدد. عدا الشموس (العملاقة) و(فوق العملاقة) التي تعد با لملايين.

إن شكل مجرتنا يشبه فطيرة مستديرة ضخمة، منفوخة من وسطها.

ومن موقعنا داخل هذه الفطيرة لا نستطيع الرؤية إلى مسافة بعيدة باتجاه المركز بسبب وجود أتربة تحجب منطقة المركز عن الأنظار والمناظير. ولكن الرؤية بوضوح ممكنة في اتجاه الحافة القريبة منا. وأهم ما نراه هو حزام المجرة (درب التبان) ويرى كالغيم لكثرة نجومه.

أما حجم هذه الفطيرة (مجرتنا) فهو من الضخامة بحيث يصعب علينا تصوره، فإن قطرها يزيد على (١٠٠) ألف سنة ضوئية. وتقع المجموعة الشمسية على بعد (٣٠) ألف سنة ضوئية من المركز و(٢٠) ألف سنة ضوئية من الحافة. أي في مكان وسط بين المركز والحافة.

ومجرتنا -كما ذكرت آنفاً- منفوشة عند المركز ثم يقل سمكها تدريجياً في اتجاه الحافة حيث يبلغ نهايته الصغرى. وتتوزع نجومها إذ ذاك على أذرع لولبية. والشمس وتوابعها تقع بالقرب من أحد هذه الأذرع.

مئة ألف سنة ضوئية!! كلمة سهلة جداً!! لكن لو حولناها إلى كيلو مترات وأردنا أن نعدها (١،٢،٣،٤ ...) لاحتجنا إلى عشرة مليارات سنة لا نشرب فيها ولا نأكل ولا ننام!!

هذا هو قطر مجرتنا التي شمسنا إحدى نجومها.

وهناك في الكون مجرات أخرى يقدرون عددها بملياري مجرة، وهو تقدير غير صحيح، فقد تكون الحقيقة أضعافاً لهذا العدد.

وقد قدر البعد بيننا وبين مجرة قريبة من مجرتنا ما يزيد عن مليون ونصف من السنين الضوئية. ويمكن رؤية هذه المجرة شتاء بين نجوم كوكبة (المرأة المسلسلة) كبقعة مضيئة.

إنها تبعد عنا أكثر من مليون ونصف من السنين الضوئية (فقط) !! (ما أسهل لفظها!) ومنها نعلم أن المجرات الأخرى قد تصل المسافة بيننا وبينها إلى مليارات السنين الضوئية أو مئات ملياراتها أو ألوف ملياراتها أو أكثر!!.

وندرك شبحاً من الضخامة الرهيبة لهذه الأبعاد إذا عرفنا أن المسافة بيننا وبين القمر تساوي ثانية ضوئية واحدة وثلث الثانية فقط.

أفليس القمر، إذن قريباً جداً جداً جداً، بل وأقرب من قريب؟!

هذه صورة عن مواقع النجوم .

صورة أخرى

نعلم ألا شيء في الكون ساكن، فالكل في حركة مستمرة، من الكهارب حتى الشموس والمجرات.

بل إني أعتقد أن الكون ذاته (السماوات والأرض) يجري في فلك له **﴿وكل في فلك يسبحون﴾**، وإنه يدور أيضاً حول نفسه. ونستطيع أن نستنتج هذه النتيجة أيضاً من التماثل بين الأرض والكون.

وعلى هذا فمواقع النجوم غير ثابتة أو محصورة في منطقة واحدة، بل هي أفلاك مجهولة الحدود تسبح فيها النجوم.

وفي مجرتنا -ولعله في كل مجرة- تجمعات نجمية كروية تتألف من مئات الألوف من النجوم، تجمعت في الأصل وسارت هكذا في رحلتها عبر الزمن.

وليس من المستبعد أن تكون جميع النجـوم، أو أكثرها، موزعة على تجمعـات كروية، بحيث تكـون المجرة مـؤلفـة من وحدات هي التجمعـات الكـروية. والتجمع الكـروي مؤلف من وحدات هي الشموس بتوابعها أو رفاقها.

ومن الجائز أن هذه التجمعات الكروية تـدور حول نفسها إلى جانب دورانها كجزء من المجرة حول مركز المجرة.

فلو استطعنا تحديد مسارات النجوم (مواقعها) في التجمع الكروي، كما لو استطعنا تحديد مسارات التجمعات الكروية في المجرة، ثم لو استطعنا تحديد مسارات المجرات، لرأينا أفـلاكاً معقدة تتكون من دوائر مفتـوحة أو أقواس شاسعـة تتصل أطرافها لتشكل دائرة مفتوحة أو أقواساً أكبر وأكبر تدور حول مركز المجرة الذي يدور حول مركز الكون راسماً دوائر معقدة التعرج، تتجاوز أبعادها مئات المليارات من السنين الضوئية!!.

ولو أضفنا حركة الكون في مساره لعـرفنا أن للنجوم مواقع (أفلاك) لا يعلـم مبتداها ومنتهاها إلا الله سبحانه.

ولعل أسهل تعبير يقرب هـذه الصورة إلى أذهاننا هـو قولنا: «مواقع النجـوم معقدة الأشكال، لا نهائية الأطوال»[1].

هذه هي مواقع النجوم!!!
وهذه هي عظمة مواقع النجوم!!!
وهذه واحدة من آيات القرآن العظيم!!!
﴿فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾.

والآن. أورد السؤال المعهود:

هل يمكن لإنسان وجد قبل أربعة عشر قرناً أن يقول مثل هذا الكلام؟!

---

(١) لا نهائية الأطوال بالنسبـة للعقل الإنساني المحدود. أما بارىء النجوم ومـواقعها فكل شيء عنده بمقدار.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للتّسليَة

١ - عندما ننظر إلى كوكب في السماء، فإننا لا نراه في لحظة نظرنا إليه؟ وإنما نراه قبل مدة تختلف حسب بعده عنا. فمثلاً عندما ننظر إلى قنطوروس الأول[1] فإننا في الحقيقة نراه في الحالة التي كان عليها قبل أربع سنين وثلث، لأن ضوءه الساقط على أعيننا انطلق منه منذ أربع سنين وثلث، ولو حدث له حادث الآن فلا يمكننا رؤية هذا الحادث إلا بعد هذه المدة.

ومثلاً آخر، مجرة المرأة المسلسلة: فعندما نراها -سواء كان ذلك بأعيننا المجردة أو بأكبر نظارة فلكية فى المراصد- فإنما نراها في ماضيها قبل مليون ونصف من السنين أو أكثر.

أما وضعها الحالي فنجهله كل الجهل ولا يمكن رؤيته من الأرض إلا حين وصول الضوء الذي ينطلق منها في هذه اللحظة إلى الأرض، وذلك بعد مليون وخمسمائة ألف سنة!!. وهب أن حادثاً كونياً سبب إزالتها من الوجود في هذا الوقت، فإننا سنبقى نراها كما هي حتى يسقط على أعيننا آخر شعاع انطلق منها قبل أن تزول. أي بعد مليون ونصف من السنين أو تزيد.

إذاً - وكما يقولون- إذا أردت أن ترتد إلى الماضي السحيق، فليس من وسيلة أسهل من أن ترفع عينيك إلى النجوم.

٢ - هناك شبه كبير بين مجرتنا ومجرة المرأة المسلسلة. فلهما نفس الحجم تقريباً، كما لكل منهما أذرع لولبية صادرة عن المركز، كما يوجد في كل منهما أتربة وغازات مبعثرة في الفضاء السحيق بين النجوم (بحيث لو استطعنا أن نجمع الأتربة أو الغازات الموجودة في كيلو متر مكعب لما ملأت زاوية في علبة ثقاب) ولكن مجموع هذه الاتربة والغازات المبعثرة في فضاء المجرة يكفي لبناء نجوم وكواكب أكثر من نجوم المجرة وكواكبها). كما يحيط بكل من المجرتين هالة من التجمعات الكروية التي تحتوي على نجوم زُرق

---

(١) قنطوروس لا يُرى عندنا في نصف الكرة الشمالي، وإنما يمكن رؤيته ابتداء من جنوب خط الاستواء بقليل حتى القطب الجنوبي.

متألقة، ويمكن تمثيل مجرتنا، أو مجرة المرأة المسلسلة بالشكل التالي (شكل٤):



٣ - تختلف النجوم بعضها عن بعض اختلافات واسعة المدى، فهناك نجوم بالغة الضخامة جداً ويسمى النجم من هذا النوع (فوق العملاق)، قطره أكبر من قطر الشمس بحوالي (٤٥٠) مرة. ونجوم أقل ضخامة يسمى واحدها (العملاق) قطره أكبر من قطر الشمس بحوالي (٢٥) مرة. ثم النجوم (السوية) التي تؤلف الغالبية العظمى من النجوم، وإليها تنتسب شمسنا، ثم النجوم الأقزام البيض ويبلغ قطر بعضها ١/٢٠٠ من قطر الشمس، وهي عالية الكثافة جداً، فقد تزن سعة لتر واحد من مادتها خمسين طناً. ويظن أن الأقزام البيض هي كواكب تابعة لشمس ما ضغطت مادتها بحادث كوني مجهول، ويظن أن من الممكن أن تنفجر هذه الأقزام لتشكل التوابع التي تدور حول النجم، مثل توابع الشمس.

وأنا أظن أنها أجرام تسربت إلى سمائنا من سماء أخرى أقرب إلى مركز الكون (كما يحدث مثل هذا في الأرض، فقد نرى مادة من طبقة السيما متسربة في السيال، ومن السيال معلقة في الماء، ومن الماء معلقة في الهواء، كما يوجد مثل هذا التسرب في الاتجاه العكسي. , أي إننا نرى مادة من الهواء متسربة في الماء، ومن الماء متسربة في السيال، ومن السيال متسربة في السيما كجذور الجبال).

وطبعاً هذا ظنٌّ لا يغني من الحق شيئا.

الأطوارُ الّتي مرَّ بهَا الكون

يقول سبحانه: ﴿وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾[١]، ﴿أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾[٢]، ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها، رفع سمكها فسواها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها، والأرض بعد ذلك دحاها﴾[٣].

﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها﴾[٤].

﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم﴾[٥].

يعرف كل من قرأ القرآن ثلاثة أنواع من الأيام:

١ - اليوم الأرضي (٢٤ ساعة).

٢ - يوم مقداره ألف سنة.

قال تعالى: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾[٦]، ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾[٧].

٣ - يوم مقداره خمسون ألف سنة.

قال سبحانه: ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾[٨].

---

(١) هود (٧). (٢) الأنبياء (٣٠). (٣) النازعات (٢٧-٣٠).

(٤) فصلت (٩ - ١٢). (٥) البقرة (٢٩). (٦) الحج (٤٧).

(٧) السجدة (٥). (٨) المعارج (٤).

فأي نوع من هذه الأنـواع الثلاثة تعنيه الآيـات الكريمة ﴿خلق السماوات والأرض في ستة أيام...، خلق الأرض في يومين...، فقضاهن سبع سماوات في يومين﴾؟.

لا أظنه يومنا الأرضي، وعلمه عند الله.

وكذلك العرش فلا نعلم عنه إلا أنه أعظم مما نستطيع أن نعلم.

– ما عدا ذلك فـإننا نستطيع أن نعرف من الآيات الكـريمة بعض الأطوار الكبرى التي مر بها الكون.

١ – طور أول (مائي): نعرفـه من قوله تعالى: ﴿وكان عرشه على الماء﴾. التي تدلنا على أن الكون أو الأكوان كانت في هذا الطور في حالة مائية ولا يعلم مدته إلا الله.

كما إننا لا ندري إن كان ذلك الماء من نفس نوع الماء الـذي نعرفه في كوكبنا الأرضي، أم شيئاً آخر؟.

على أننا نستطيع أن نظن أنه من نوع آخر قياساً على قوله ﷺ:

«ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء» -الطبراني-.

وقوله سبحانه: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن...﴾[1].

من الآية والحديث نعرف أن في الجنة ماء يختلف بنـوعه عن مائنا. وقياساً على ذلك، نستطيع أن نظن أن الماء الذي خلقت منه السماوات والأرض يختلف بطبيعتـه عن مائنا. والله أعلم.

٢ – طور ثـان (كتلة هـائلة حبلى): كان الكـون في هذا الطور كتلـة واحدة هـائلة، تنطوي على نجوم وكواكب مخلّقة متصل بعضها ببعض.

نعرف ذلك من قوله تعالى: ﴿أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما...﴾، ومن قوله: ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده﴾.

---

(١) محمد (١٥).

فمن قوله تعالى: ﴿رتقاً ففتقناهما﴾ نفهم أن السماوات والأرض كانتا مجتمعة في كتلة واحدة تحوي كواكب غير مختلط بعضها ببعض، بل كانت ملتصقة (رتقاً) ففتقت.

والآية الثانية ﴿يوم نطوي السماء..﴾ تبين لنا هذه الحال بصورة أوضح. ففي اليوم الآخر ستطوى السماوات كطي السجل للكتب، وبدهي أن الكتب عندما تطوى إلى بعضها في سجل فإنها لا تمتزج مع بعضها، بل يبقى كل كتاب محتفظاً بكيانه، ولكنها جميعها متصلة ببعضها ملتصقة مطوية.

ومن قوله سبحانه: ﴿... كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ نفهم أن بدء الخلق كان كذلك (أي نجوماً مطوية إلى بعضها) وسيعود كذلك.

إذن، فقد كانت هناك، في هذا الطور، كتلة هائلة تنطوي على كواكب مخلّقة منها الأرض.

فهي بذلك كانت وكأنها حبلى، فتقت فولدت السماوات والأرض.

ملاحظة:

يجعل بعض المفسرين من قوله تعالى: ﴿... كانتا رتقاً ففتقناهما﴾ أي كانتا رتقاً لا تمطر ولا تنبت ففتقنا السماء بالمطر والأرض بالنبات.

على أن الآية الكريمة ﴿يوم نطوي السماء...﴾ تغنينا عن الرجوع إلى مثل هذا التفسير التأويلي، ويكون المعنى هو ما أوردته في البحث.

وكذلك قوله سبحانه: ﴿... ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات...﴾ تدل بوضوح أن السماوات السبع كانت سماء واحدة، أي كانت رتقاً، ثم فتقها سبحانه.

٣ - طور ثالث (نجمي غازي): نرى في هذا الطور نجوماً وكواكب منفصلة عن بعضها متحركة. كما نرى إلى جانبها قسماً من الكون -ولعله القسم الأعظم- بحالة غازية.

نرى النجوم والكواكب في قوله تعالى: ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها

أقواتها في أربعة أيام﴾.

تخبرنا هذه الآية عن بدء خلق الأرض. وهناك آية ثانية تخبرنا أنه قبل خلق الأرض، كان في الكون كواكب تستضيء بشموس.

قال تعالى: **﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها. رفع سمكها فسواها. وأغطش ليلها وأخرج ضحاها. والأرض بعد ذلك دحاها﴾**.

أي إنه كان في الكون ليل ونهار قبل دحو الأرض. وهذا يقتضي حسب ما نعلم من سنة الله في خلقه -وجود شموس تضيء وكواكب باردة تستضيء.

ثم دحيت الأرض.

- نرى النجوم والكواكب في هذه الآيات.

- أما القسم الغازي من الكون فنراه في قوله سبحانه: **﴿... ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض...﴾**.

هذه الآية من قوله تعالى: **﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض...﴾** إلى قوله: **﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان...﴾** تدلنا -إلى جانب الآيات السابقة- على وجود الكواكب والنجوم والغازات إلى جانب بعضها في هذا الطور، ولم تكن السماوات السبع قد تميزت فيه بعد.

٤ - طور رابع (ذو طبقات سبع) وهو الطور الحالي: توزعت النجوم في هذا الدور على طبقات سبع متميزة عن بعضها، وهي السماوات السبع.

يدلنا على ذلك قوله سبحانه: **﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض أئتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها...﴾**.

ويوم القيامة هو نهاية هذا الطور وبدء طور آخر.

لم أستطع أن أستنبط من القرآن الكريم كيف كان الكون قبل الطور الأول (المائي) ولا أدري هل نستطيع أن نستشف من قوله تعالى: **﴿وكان عرشه على الماء﴾** أن الطور

المائي أزلي.

أقول: كتبت الجملة السابقة «لا أدري ... أن الطور المائي أزلي» في الطبعة الأولى لهذا الكتاب وكنت ساهياً عن قوله سبحانه **﴿أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا﴾** التي تدل على أن الإنسان كان في الأصل عدماً بجسمه وروحه، وبما أن الأصل الأول لجسمه كان من ذلك الماء، إذن، فقد كان ذلك الماء في الأصل عدماً. وأستغفر الله سبحانه من تلك الغلطة.

كما لم أستطع أن أتبين الطريقة التي كان ينقل الكون بها من طور إلى آخر. ولا أريد أن أترك لخيالي العنان فيتخبط في تلك المتاهات، لسببين:

١ - ليس هذا من موضوع الكتاب.

٢ - كل ما يتصوره الخيال وما يأتي به من الطرق التي نتخيل أن يكون الكون قد انتقل بها من طور إلى آخر، لا تعدو أن تكون من الظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً.

إن العجب العجاب في هذه الآيات، وما يدعو للدهشة والاستغراب هو مخالفتها الكاملة لكل ما كان يتخيله الفلاسفة ويتناقله الناس في زمن محمد ﷺ وقبله وبعده، عن الكون وبنائه ومبدئه وتطوره.

موضوع هذه المخالفة نكاد نحس بصحته، وإن كانت البراهين المادية غير متوفرة، فيما أظن، بعد -ما عدا مشاهدة الغازات المنتشرة في الفضاء بين النجوم والتي يمكنها أن تشكل عدداً من النجوم أكثر بكثير من الموجودة. هذه المخالفة لا يمكن أن تفسر إلا بأنها من عند الله.

إذ لو كانت من عند محمد ﷺ لجاء بها يتناقله الناس -وخاصة اليهود والنصارى- أو لتأثر بآرائهم على الأقل، أو لجاء بخرافات وأساطير مثل التي كانت موجودة.

اللهم إني آمنت بك وبنبيك.

مِن شجُون الحَديث

١ – هناك نظرية قـديمة تسمى (وحدة الوجود) نراها في أكثـر الفلسفات القديمة، ولعل الأصل الـذي تفرعت عنـه هـو الهندوسيـة[1]، وأبـرز من يصرّح بها من متصوفـة المسلمين هـو الشيـخ محيي الـدين بـن عـربي، وكـان أشهـر من نـادى بها في الغـرب الفيلسوف اليهودي باروخ سبينوزا.

ملخص النظرية:

إن المخلـوقات بجميع أنـواعها، إنما هي جـزء من الله، ولا شيء في الوجـود إلا الله، وما الكون بما فيه بالنسبة لله إلا كموج البحر بالنسبة للبحر.

وهذه صور من نصوص وترانيم وحدوية مختلفة.

– جاء في الرامـايانا (كتاب هنـدوسي مقدس): «إن الله هو مد الخلـود وجزره حيث العمل والعامل واحد»، «يقول الله للعقل: أنا هـو الكائن فما العالم إلا بصري وما الصور والمواد والجواهر إلا عناصري».

– ومن (كريشنا مورتي) وهو كتاب بوذي:

«كما ينصب النهر العظيم في البحار».
هكذا مشيت إليك
ونفسي غنية من السفر الطويل
غنية بخبرة الأجيال
ويا حبيبي
كما يمترج الندى
بالعصارة التي تغذي الزهرة
كذلك أصبحنا أنا وأنت الآن واحداً.

ومن الأوبـانيشاد (وهي الاجـزاء الأخيرة من الفيدا) (كتـاب الهندوس): «هـذه هي

(١) بل الأرجح أنها أقدم من ذلك، ولعلها وجدت منذ أن أُنزل إبليس إلى الأرض أو بعد ذلك بقليل.

الحقيقة. مثلما تنطلق، بالألوف، من النار الملتهبة، الشرار المماثلة بطبيعتها للنار، كذلك، يا حبيبي، من الذي لا يزول تولد الكائنات المتنوعة وإليه ترجع...».

– أوبانيشاد مونداكا–

«... كما يخرج العنكبوت خيوطه ويلفها حوله.
وكما يرتفع العشب على الأرض.
وكما ينمو شعر الرأس والجسد في الإنسان.
هكذا يرتفع ويوجد كل شيء هنا من الذي لا يفنى».

–أوبانيشاد مونداكا–

ومما جاء في التلمود:

«... وتتميز أرواح اليهود عن باقي الأرواح أنها جزء من الله ...».

ومما جاء في كتاب الفتوحات المكية الذي ألفه الشيخ محيي الدين بن عربي: فسبحان من أظهر الأشياء وهو عينها.

فما نظرت عيني إلى غير وجهه وما سمعت أذني خلاف كلامه

(فتوحات ٢/ ٦٠٤)

ومما جاء في (فصوص الحكم):

«فإن الإله المطلق لا يسعه شيء لأنه عين الأشياء وعين نفسه، والشيء لا يقال فيه يسع نفسه ولا لا يسعها...».

–نص حكمه فردية في كلمة محمدية–

وفيه:

فأنت عبد وأنت رب لمن له فيه أنت عبد
وأنت رب وأنت عبد لمن له في الخطاب عهد

–نص حكمة عليّة في كلمة اسماعيلية–

ومن الأناشيد التي يرددها الكثيرون:

ما الكون إلا القيوم الحي.

نرجع إلى القرآن الكريم لنعرض هذه النظرية عليه، فنقرأ: ﴿**وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين**﴾[1].

ونقرأ: ﴿**وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون، سبحان الله عما يصفون**﴾[2].

من الواضح أن فكرة وحدة الوجود تجعل الأرض والشمس والقمر والنجوم والجنّة والنار أجزاءً من الله، كما تجعل الملائكة والإنس والجن كذلك أجزاءً منه، ومنهم أنا وأنت وهو وهي، فالآية الأولى ﴿**وجعلوا له من عباده ...**﴾ صريحة بتكفير من يقول بهذا ﴿**إن الإنسان لكفور مبين**﴾.

والآية الثانية ﴿**وجعلوا بينه وبين الجنة ...**﴾ تنزه الله سبحانه. عن هذا الوصف الذي يصفونه.

ونقرأ في القرآن أيضاً: ﴿**أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً**﴾[3].

فلو كان الإنسان جزءاً من الله لكان شيئاً قبل أن يخلق وحين خلق وسيبقى شيئاً إلى الأبد. ولكننا نرى الآية الكريمة صريحة بأن الإنسان خُلق من لا شيء أو من العدم. وهذا ينقض فكرة وحدة الوجود من أساسها.

٢ - ظهرت نظرية سنة ١٩٤٨ عرفت بنظرية (استحداث المادة) أو (حالة الاستقرار). ملخصها:

«كل حجم من الحيز في جميع أنحاء الكون يجب أن يحتوي دائماً على نفس الكمية من المادة. ولما كان كل حجم هو تزايد بسبب توسُّع الكون المستمر، فلا بد من استحداث مادة جديدة من العدم استحداثاً مستمراً للاحتفاظ بالتوازن. وتظهر المادة الجديدة في شكل ذرات الهيدروجين. ومن السهل تبيان كيف أن معدل الاستحداث

---

(١) الزخرف (١٥).

(٢) الصافات (١٥٨، ١٥٩).

(٣) مريم (٦٧).

بطيء جداً بحيث أننا لا نستطيع أن نلاحظه مباشرة. وتتجمع ذرات الهيدروجين بطريقة لم يتم بحثها بعد في مجموعات شمسية متحدة تنقسم بعد ذلك إلى النجوم وسحب الغبار والغاز».

ظهرت هذه النظرية أول ما ظهرت في لندن على يد جماعة من الكتاب قاموا لها بدعاية واسعة. وأول من نادى بها هو (فرد هويل).

لا نقبل هذه النظرية للأسباب التالية:

١ - تتناقض مع قوله تعالى: ﴿**أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما**﴾.

٢ - ينقضها ما فهمناه من القرآن الكريم من أن الكون كان ماء، ثم كتلة مادية هائلة الحجم فتقت لتكون النجوم والكواكب والغازات وسحب الغبار.

٣ - لا يستطيع إنسان أن يؤكد أن الهيدروجين موجود في الأجرام القريبة من مركز الكون أو الأجرام المحيطية، وفي القرآن الكريم ما نستشف منه أن لكل طبقة كونية (سماء) موادها الخاصة بها. وقد مر هذا في بحث سابق.

٤ - في القرآن الكريم آية هي ﴿**والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون**﴾ يمكن أن يشمل تعميمُها هذه النظريةَ بعد تعديلها. ولكننا لا نعتقد ذلك. والله أعلم.

توسُّـــع الكـــون

يقول سبحانه: ﴿... والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾[1].

– من الواضح أن المراد بكلمة (السماء) هو السموات كلها (أو الكون). ومثل هذا مكرر في القرآن.

– الأيد هو القوة.

– موسعون = اسم الفاعل من فعل (أوسع) من (السعة).

– إن وجود كلمتي ﴿والسماء بنيناها﴾ قبل كلمة (موسعون) هو حسب الأسلوب القرآني الذي مر معنا أمثلة عليه– قرينة تجعلنا نرد معنى (موسعون) على السماء وبنائها. ومن التعبير «إنا لموسعون» نفهم أحد أمرين:

أ – إما الاستمرار في الفعل. وهذا مثل قوله سبحانه ﴿فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون﴾. فقدرة الله مستمرة.

ب – أو حصول الفعل في زمن مستقبل بالنسبة لزمن الكلام. وهذا مثل قوله تعالى على لسان إخوة يوسف ﴿سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون﴾ أي فيما بعد.

– أما المعنى الثاني فيقتضي توسع السماء بعد ثباتها الحالي (في زمن الكلام). وهذا يعني تغيراً شاملاً لنظام الكون. ونعلم من القرآن والأحاديث أنه لا تغير في الكون إلا يوم القيامة. كما نعلم من قوله تعالى ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾ أن هذا التغيير سيكون بجمع السماوات لا بتوسيعها، فينتفي المعنى الثاني.

– ويبقى المعنى الأول وهو الاستمرار في التوسيع.

– أي إن الكون آخذ في التوسع.

لقد دلت الأرصاد (التي لم تأخذ الصفة التأكيدية بعد) أن المجرات القريبة منا (بحيث يسهل رصدها) تبتعد عنا بمعدل يحوم حول (٦٠) ألف كيلو متراً في الثانية.

ويظن ﴿والظن لا يغني من الحق شيئا﴾ أن الأجرام الموجودة في الطبقة المحيطية

---

(١) الذاريات (٤٧).

من الكون (السماء السابعة) تبتعد عن مركزَ الكون بسرعة الضوء.

أورد هذه النظرية التي يلوكها علماء الفلك للاستئناس فقط، لأنها لم تدخل بعد إلى عالم الحقائق الحسية[1].

ومع ذلك، فهي حقيقة، لأن القرآن الكريم يخبرنا بها.

إن إيراد القرآن الكريم لهذه الحادثة عجيب من وجهين:

١ - لم يقل بها إنسان قبل النبي ﷺ ولا في زمنه ولا بعده حتى السنوات الأخيرة. وهي غريبة جداً على العقل الإنساني في ذلك الوقت. ولدى أكثر الناس في وقتنا هذا.

٢ - كونها حقيقة سيتأكد منها البحث العلمي عاجلاً أو آجلاً، وقد دلت المراصد على وجود تغير في طيف الضوء الآتي من مجرة المرأة المسلسلة مثلاً، بشكل انحراف نحو الأحمر، والتعليل العلمي لهذا الانحراف هو ابتعاد المجرة، وهناك من يعطيه تعليلاً آخر، لكنه فيه نظر.

أفلا يدل إيراد القرآن لهذه الآية على أنه ليس من عند بشر؟!!!

للتسليـــة

١ - إن حادثة توسع الكون يمكنها تفسير سبب تفلطح المجرة كالفطيرة وتفرع أذرعها:

لنتصور التجربة الآتية:

لنأت بالجزء الداخلي (المطاط) من كرة القدم (فوتبول) ولنلصق عليها جيداً قطعة صغيرة بشكل نصف كرة من معجون ذي رخاوة مناسبة.

ثم لننفخ الكرة، فتتوسع، ولنلاحظ ماذا يحدث لقطعة المعجون. إنها تأخذ بالتفلطح شيئاً فشيئاً حتى إذا بلغ تمدد الطابة حداً معيناً، أخذت أطراف القطعة بالتشقق.

---

(١) كان هذا في زمن الطبعة الأولى لهذا الكتاب، أما في زمن هذه الطبعة الرابعة، فلا أعرف ماذا جدّ في مثل هذه المواضيع.

وأخيراً نحصل منها على شكل فطيرة منفوشة الوسط يقل سمكها كلما اتجهنا نحو الحافة، تنتهي بأذرع بينها شقوق سببها التمدد.

يمكن أن يكون مثل هذا ما حصل للمجرة.
كما يمكن أن يكون شيئاً آخر.
وعلى كل حال، يبقى هذا التفسير دعماً لفكرة توسع الكون.

٢ - **قد يتساءل المرء عن حجم الكون.** لكن لا يوجد أي دليل في الوقت الحاضر يعطي فكرة صحيحة عنه إلا بعض التخرصات.

إن الشيء الوحيد اليقيني هو أن الكون واسع الأرجاء سعة تفوق حدود الخيال بأكثر مما يتصوره الخيال ﴿**فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنه لقسم لو تعلمون عظيم**﴾.

وقد حاول بعض الرياضيين أن يتخيل رقماً لنصف قطر الكون بناءً على حسابات خاصة، فكان الرقم (٣٥) مليار سنة ضوئية.

يكون قطر الكون بذلك (٧٠) مليار سنة ضوئية.

وإذا كانت سرعة الأجرام الكونية المحيطية في انطلاقها مبتعدةً عن المركز تساوي (كما يظنون) سرعة الضوء، فإن قطر الكون يحتاج إلى خمسمائة مليون سنة ليزداد طوله بنسبة ١/ ٧٠ .

طبعاً، كل هذه تخرصات ، وقد يكون قطر الكون أكبر بكثير مما يظن.

٣ - يمكن أن نظن أن توسع الكون السريع المستمر طيلة الأزمنة السحيقة السحيقة يترك في مركزه فراغاً سحيقاً سحيقاً، بحيث يصبح كالطابة، في وسطه فراغ تغلفه قشرة من نجوم منتشرة متحركة متميزة إلى سبع طبقات، سمكها يتجاوز حدود الخيال. وقد يكون هذا الظن خطأ.

٤ - من كل ما تقدم نستطيع أن تتصور بناء الكون كما يلي:

- كتلة مركزية (في مركز الكون) تتألف من مادة عالية الكثافة جداً جداً، بحيث من الممكن أن يكون وزن السانتمتر المكعب منها يزن ألوف الأطنان أو ما هو أكثر، ومن الممكن أن يكون بينها فراغات، وقد لا يكون. ولا ندري إن كانت هذه أو الطبقة

المحيطة بها، هي المعنية بقوله تعالى: ﴿والسماء ذات الحبك﴾ اشارة إلى أنها متصلة ببعضها؟.

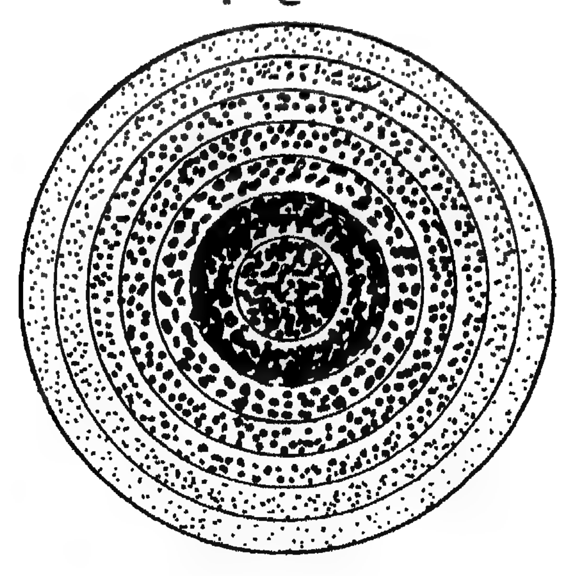
- تغلف السماءَ المركزية نجومٌ تسبح في الفراغ تحيط بها من جميع جوانبها، كثافةُ مادتها أصغر من كثافة مادة السماء المركزية، وأبعاد أجرامها عن بعضها أكبر من أبعاد الأولى، وكذلك سرعاتها. وهذه هي السماء الثانية.

- وتغلفها السماء الثالثة بنجومها المتباعدة أكثر والتي هي أقل كثافة وأكبر سرعة.

- وهكذا حتى السماء المحيطية التي تنطلق نجومها في اللانهاية بسرعة كبيرة جداً، لكن هذه السرعة مهما كبرت فلا يكاد الكون يتأثر بها لسعته الهائلة الرهيبة، ومن الجائز ألا يكون فيها أجرام متميزة كثيرة أو كبيرة وأن أكثر مادتها غازات خفيفة، ولعل أثقل عنصر فيها أخف من الهيدروجين، والله أعلم، فما هذه إلا تخرصات مبنية على المنطق الإنساني المركب على الخطأ.

- قلت: إن النجوم تسبح في الفراغ، بانياً هذا القول على ما يرى بين الأرض والقمر وبينها وبين رفيقاتها السيارات. لكن من الجائز أن يكون هناك شيء ما لا ندركه بحواسنا يجمع بين نجوم كل طبقة، ونظنه فراغاً لعدم إدراكنا له.

- وهذا مقطع تخيلي للكون-



كل نقطة تمثل مليارات المجرات (شكل رقم ٥)

نسبية الأيام

قال سبحانه: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾[1]، ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾[2]، ﴿تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾[3].

في الوجود أيام مختلفة الأطوال اختلافاً شاسعاً. فنحن نعرف يومنا الأرضي، والآيات الكريمة تخبرنا عن نوعين آخرين، أحدهما أطول من يومنا الأرضي بمئات الألوف من المرات، والثاني أطول بملايينها.

واليوم -كما هو معلوم- بالنسبة لكوكب ما، هو المدة التي يقضيها هذا الكوكب في دورانه حول نفسه دورة واحدة. وهذه المدة تختلف من نجم إلى آخر.

فاليوم في الأرض أربع وعشرون ساعة.

وفي المريخ أطول من اليوم الأرضي بسبع وثلاثين دقيقة.

ويبلغ يوم القمر قريباً من تسع وعشرين يوماً أرضياً.

ويختلف يوم الشمس من منطقة إلى أخرى، فهو في خط استوائها يبلغ حوالي خمسة وعشرين يوماً أرضياً، بينما يتجاوز الثلاثين يوماً أرضياً بالقرب من قطبيها. وهذا بسبب عدم صلابتها.

ويوم عطارد يساوي ٨٨ يوماً أرضياً. إلخ...

أما الشموس الأخرى فمجهولة أيامها، كما تتعذر معرفة يوم المجرة. وما يقال عن الزمن اللازم لها لتدور حول نفسها دورة واحدة ينقصه اليقين العلمي. ولا ندري ما يأتي به المستقبل. لكن من المعقول أن يختلف يوم المجرة من منطقة إلى أخرى لأن نجومها غير متماسكة،

أما اليوم الكوني، أي الزمن الذي يدور فيه الكون حول نفسه دورة واحدة فعلمه عند الله.

هكذا نرى أن لكل نجم يومه، كما أن لكل تجمع نجمي صغر أم كبر يومه أيضاً.

ولا ندري عن اليوم الذي مقداره ألف سنة مما تعدون، والذي مقداره خمسون ألف سنة، هل هما بالنسبة لشيء في كوننا أم خارج عنه؟؟.

وجه الإعجاز في هذه الآيات:

كيف عرف محمد ﷺ أن في الوجود أياماً مختلفة الأطوال؟!

---

(١) الحج (٤٧). (٢) السجدة (٥).

(٣) المعارج (٤).

الحيَاة في الكون

قال تعـالى: ﴿ومن آيـاتـه خلق السماوات والأرض وما بث فيهما مـن دابة وهـو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾[1].

الآية واضحة كل الوضوح.

فمن آيات الله الدالة عليه وعلى قدرته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما (أي في السماوات والأرض) من دابة. والدابة هي كل ما يدب على الأرض.

إذن، فهنـاك، في بعض الكـواكب المنتشرة في السماوات، تـوجـد حيـوانـات تـدب عليها، وحسب سنـة الله في أرضه، لا توجـد الحيوانـات دون نبات تتغذى عليـه، فتكون الحياة النباتية والحيوانية مبثوثة في الكون، وليست محصورة في الأرض وحدها.

أما الحياة الإنسـانية العاقلة فليس في القـرآن الكريم ما يـدل على وجودها على غير الأرض، ولم يمر عليَّ حديث بذلك (لقلة البضاعة).

ويجب أن لا نظن مطلقاً أن الملائكة يدخلون في معنـى كلمة (دابة) لأنهم لا يدبون على الأرض ولا يسيرون على أقدام .

ولا تعني كلمـة دابـة إلا كـائنـات حيـة يشكل الماء العنصر الـرئيسي في تـركيبهـا العضوي أياً كانت هده الدابة، لقوله تعالى: ﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾[2].

والملائكة نورانيو الأجسام.

وآية ثانيـة في القرآن الكريم تؤيـد هذا القول. يقول سبحـانه في سورة النحل (٤٩) ﴿ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون﴾.

حيث تقرر هذه الآية -فيما يخص موضوعنا- وجود الدواب في السماوات، وأنها غير الملائكة.

---

(١) الشورى (٢٩). (٢) النور (٤٥).

لنتساءل: هل كان في زمن محمد ﷺ أو قبله أو بعده من يعرف أن في السماوات دواب؟!.

ألم تكن نظرتهم إلى السماء نظرة تقديس ملائكي: أو إلاهي، فلا يوجد في السماء إلا الملائكة، أو الآلهة. فجاء القرآن الكريم ليقرر أن في السماء دواباً كالأرض.

إن وجود الحياة النباتية خاصة والحيوانية أصبح شيئاً مسلماً به الآن وإن لم ينزل الدليل الملموس على ذلك، لأن هذا الدليل لا يمكن أن ينزل قبل وصول الإنسان إلى تلك الكواكب، وهذا ليس ببعيد.

فكيف عرف محمد ﷺ ذلك؟

هل هناك تفسير آخر غير أن في الوجود عليم خبير، وأن هذا العليم الخبير أوحى إلى محمد ﷺ ما أوحى؟!

صدقوني، صدقوني، صدقوني، أن هاتين الآيتين وحدهما كافيتان للبرهنة على أن محمداً رسول الله؟ (دوابٌ في السماوات !!! يا لطيف!!!)

جَهَنَّـــم

قال سبحانه: ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين. لترون الجحيم. ثم لترونها عين اليقين﴾(١)، ﴿وما أدراك ما سقر، لا تبقي ولا تذر، لواحة للبشر﴾(٢)، ﴿إنها ترمي بشرر كالقصر، كأنه جمالة صفر﴾(٣)، ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة﴾(٤)، ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾(٥)، ﴿إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور تكاد تميّز من الغيظ...﴾(٦)، ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾(٧).

وقال ﷺ: «ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»(٨). «هذه النار جزء من مئة جزء من نار جهنم»(٩). «أبردوا بالصلاة فإن شدة الحر من فيح جهنم»(١٠).

«اشتكت النار إلى ربها فقالت رب أكل بعضي بعضاً فأذن الله لها بنفسين، نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر وأشد ما تجدون من الزمهرير»(١١).

ندرس قبل البدء في البحث تفسير الآيات الثلاث الأوليات:

أ – ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين، لترون الجحيم، ثم لترونها عين اليقين﴾.

أُورد تفسيرها من تفسير النسفي لأنه موجز من جهة ويشتمل على ما أورده الخازن وابن كثير من جهة ثانية.

يقول النسفي: «... ﴿كلا﴾ تكرير الردع للإنذار والتخويف. ﴿لو تعلمون﴾ –جواب لو محذوف– أي لو تعلمون ما بين أيديكم. ﴿علم اليقين﴾ علم الأمر اليقين أي كعلمكم ما تستيقنونه من الأمور، لما ألهاكم التكاثر أو لفعلتم ما لا يوصف. ولكنكم ضلاّل جهلة. ﴿لترون الجحيم﴾ هو جواب قسم محذوف، والقسم لتوكيد الوعيد...».

---

(١) التكاثر ( ). (٢) المدثر (٢٧، ٢٨، ٢٩). (٣) المرسلات (٣٢، ٣٣).
(٤) التحريم (٦). (٥) البقرة (٢٤). (٦) الملك (٧، ٨).
(٧) الفرقان (١٢). (٨) البخاري ومسلم. (٩) ابن حنبل، وهو على شرط مسلم.
(١٠) البخاري ومسلم. (١١) البخاري ومسلم.

- لا يوضح النسفي متى تكون رؤية الجحيم، فأنقل ذلك من تفسير الخازن. يقول: «... والمعنى أنكم ترون الجحيم بأبصاركم بعد الموت...».

مناقشة التفسير:

١ - لا يوجد حديث شريف يستند إليه في الحذف والتقدير، ولو وجد لأورده المفسرون وخاصة ابن كثير. وهذا يعني أن الحذف والتقدير رأي رأوه من عندهم وحسب اجتهادهم. ويجوز لنا أن نناقشه.

٢ - الآيتان ﴿**كلا لوتعلمون .. لترون ..**﴾متواليتان، ترابطهما ظاهر ومعناهما واضح ولا حاجة بنا إلى التأويل والتقدير. فكلمة ﴿**لترون**﴾ هي جواب لـ ﴿**لو تعلمون**﴾.

٣ - كان في أذهان المفسرين صورة عن السماوات والأرض ليس لها سند من قرآن أو حديث، وإنما بنوا بعضها على المشاهدة العادية للسماء والنجوم، وبعضها الآخر على ما تسرب من اليونانيات والإسرائيليات، ولا أظن أن هناك من يجهل تلك الصورة، بل إن كثيراً من الناس يحملونها ويدافعون عنها حتى يومنا الحاضر. وبناءً على ذلك، فقد كان المعنى الواضح للآيتين غير مفهوم لديهم، فتأولوه ليصبح مقبولاً.

٤ - إن الأسلوب الذي أسير عليه في التفسير هو الأخذ بالمعنى الظاهر الواضح المباشر، كما بينته في مقدمة الكتاب.

٥ - عندما نأخذ بالمعنى الظاهر، فسنرى آيات وأحاديث تدعمه وهي مذكورة في أول البحث.

٦ - نحن مع تفسير المفسرين فيما عدا الحذف والتقدير.

فيكون المعنى: «... ﴿**كلا**﴾ تكرير الردع للإنذار والتخويف. ﴿**لو تعلمون علم اليقين**﴾ لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين، أي كعلمكم ما تستيقنونه من الأمور. ﴿**لترون الجحيم**﴾ هي جواب ﴿**لو تعلمون**﴾ أي لترون الجحيم عندما تعلمون الأمور علم اليقين. ﴿**ثم**﴾ أي ثانية أو بعد ذلك ﴿**لترونها عين اليقين**﴾ أي لترونها

الرؤيـة التي هي نفس اليقين وخالصتـه، ويكون هـذا يوم القيامـة عندمـا تعرض جهنم ويراها الناس معدّة لاستقبال الكافرين.

- وها نحن نعلم علم اليقين، إذن فبإمكاننا رؤية الجحيم-

ب - **﴿وما أدراك ما سقر، لا تبقي ولا تذر، لواحة للبشر﴾**.

يقول ابن كثير في تفسير **﴿لواحـة للبشر﴾**: «... وقولـه تعالى: **﴿لواحة للبشر﴾** أي للجلد (بمعنـى تغير لون الجلد). وقـال أبو رزين: تلفـح الجلد لفحـة فتدعه أسـود من الليل، وقال زيد بن أسلم: تلـوح أجسادهم عليها. وقال قتادة: لواحـة للبشر أي حراقة للجلد. وقال ابن عباس: تحرق بشرة الإنسان».

وفي تفسير النسفي ما لا يخرج عن معناه. ونلاحظ أنهم يرون أن:

لواحـة : مبالغـة اسم الفاعل مـن لوّح أو لاح. يقـال (لوحته الشمـس ولاحته) أي غيرت لونه.

البشر: جمع بشرة وهي القسم الظاهر من الجلد.

ويضيف الخازن قـوله: «... وقيل تلـوح لهم جهنم حتى يروهـا عيانـاً»، كما يضيف القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن):

«... وقـال ابن عبـاس: (لواحـة) أي تلـوح للبشر من مسيرة خمسمائة عـام. الحسن وابن كيسان: تلوح لهم جهنم حتى يروها عياناً.

ويضيف الـزمخشري في (الكشـاف): «... وعن الحسن: تلـوح للنـاس لقـولـه **﴿ثم لترونها عين اليقين﴾**. ويقول سيد قطب في الظلال:

«... ثم هي تتعـرض للبشر وتلـوح. (لواحـة للبشر) ... كما قـال في سورة المعـارج: **﴿تدعو من أدبر وتولى﴾** ... فهي تدل على نفسها...».

أي إنهم يرون هنا أن:

لواحة: مبالغة اسم الفاعل من (لاح) بمعنى ظهر وتعرض.

البشر: الناس.

فبأي رأي نأخذ؟

إننا نلاحظ في القول الأول أن قتادة وابن عباس يجعلان (لواحة) بمعنى حراقة. ولو فتشنا كتب اللغة لما عثرنا على هذا المعنى.

ونرى أن في إعطاء (لواحة) معنى الحرق شيئاً من الزيادة في المعنى. كما نلاحظ أن ابن كثير ينسب إلى ابن عباس قوله: (تحرق بشرة الإنسان). والقرطبي ينسب له قوله: (أي تلوح للبشر من مسيرة خمسمائة عام).

فبم نأخذ؟

نحن هنا أمام أمرين:

أ - إما أن يكون ابن عباس يرى المعنيين ولا يرجح أحدهما على الآخر، ففسر مرة بالقول الأول ومرة بالثاني.

ب - أو أن يكون أحد القولين المنسوبين له ضعيفاً.

- كما نلاحظ أيضاً في التفسير الأول أن المعنى (تغير لون الجلد) لا يتفق مع قوله تعالى في مكان آخر: **﴿سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها..﴾** ومع قوله: **﴿وقودها الناس والحجارة﴾**. ومع قوله تعالى في الآية التي قبلها مباشرة **﴿لا تبقي ولا تذر﴾**. إذ مع هذه الصور الرهيبة والمناظر المخيفة يكون فعلها أنها تلوح الجلد فقط. ونار الأرض تعمل مثل هذا وأكثر منه؟!

يزول التناقض إذا فهمنا من الآية وصفاً لفعل جهنم في الناس عن بعد ودون تحديد للزمن لا دليل عليه.

إذا كان فهمنا صحيحاً، فهذا يعني أن جهنم تلوّح جلودنا حتى في حياتنا الدنيا هذه. والأحاديث الشريفة تؤيد ذلك.

جاء في صحيحي البخاري ومسلم: «أبردوا بالصلاة فإن شدة الحر من فيح

جهنم»، ونعلم أن شدة الحر تلوّح الجلود.

وجاء أيضاً: «اشتكت النار إلى ربها فقالت رب أكل بعضي بعضاً فأذن الله لها بنفسين، نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير»، فشدة الحر من جهنم وهي تلوح الجلد.

- أما المعنى الثاني، فيتبادر إلى الذهن مباشرة لدى قراءة الآية، كما تؤيده الآية الكريمة ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين. لترون الجحيم﴾. بل إن الحديثين السابقين يؤيدانه أيضاً. وسنرى ذلك بعد قليل. ولا يشكل تناقضاً مع الآيات القرآنية الأخرى. لذلك، فأنا أرجحه.

جـ - إنها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالة صفر.

هناك أكثر من قول في معنى كلمتي (القصر، وجمالة) وفي قراءتها. وكذلك في كلمة (صُفر) ولكن المرجح لدى المفسرين هو:

القصر: الحصن العظيم. وبقراءة ابن مسعود: القصر بمعنى القصور، أي جمع.

جمالة: جمع جمل (الحيوان المعروف).

وهو المعنى الواضح الذي نأخذ به.

أين جهنم

قال تعالى: ﴿إن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾.

- لا أظنني بحاجة إلى التذكير بأن كلمة ﴿السماوات﴾ تعني ما يوجد فيها من نجوم وكواكب ونيازك وغبار وغازات-.

إن معنى الآية واضح. فالسماوات والأرض (الكون) كانتا رتقاً أي ملتصقة ببعضها، أو كتلة واحدة، بما في ذلك الشمس والقمر والنجوم، لأن الآية لم تستثن شيئاً.

ويقول سبحانه: ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده﴾.

أي إن السماء ستطـوى كلهـا، بما في ذلك الشمـس والقمـر والنجـوم، لأن معنى ﴿نطوي السماء﴾ شامل لااستثنـاء فيه، ولأن الآيـة تقول ﴿كما بدأنـا أول خلق نعيده﴾ وفي أول الخلق كانت السماء والأرض رتقاً وستعودان كذلك.

إذن، ستكـون الشمس والقمـر والنجـوم ضمن الكتلــة الكـونيـة النـاتجة عن طي السماء. وهناك حديث صحيح يستثني الأرض من ذلك .

وجاء في مشكـل الآثار للطحـاوي: «يجاء بالشمس والقمـر ثوران يكـوران في النار يوم القيامة».

وأورد أبو يعلى: «الشمس والقمر ثوران عقيران في النار».

وفي البخـاري ومسلم: «يجمع الله الناس يـوم القيـامة فيقـول: من كـان يعبد شيئـاً فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت..»

وفي مسلم: «... فلا يبقى أحـد كان يعبـد غير الله سبحانه من الأصنـام والأنصاب إلا يتساقط في النار».

– يعلمنا الحديثان الأولان أن الشمس والقمر في النار.

– ويعلمنا الحديثان الآخـران أن كل من كان يعبد غير الله سبحانـه يتبع معبوده إلى جهنم أي إن معبوده يدخل جهنم قبله.

فإذا علمنـا أن الشمس والقمر والنجـوم عبدت في الـوثنيـات القديمـة (كالقبطيـة مثلاً) وتعبـد حتى الآن في الهند وفي العـراق وغيرها، نعلـم أنها كلها في جهنم (وخـاصةً الشمس والقمر).

لنعد إلى الآيتين الكريمتين ﴿إن السماء والأرض ... يوم نطوي...﴾.

إنهما ينبئـان أن السماوات –دون استثنــاء– ستطـوى في كتلـة واحــدة (بما في ذلك الشمس والقمر والنجوم).

وتنبئنا الأحاديث الشريفة أن الشمس والقمر والنجوم هي في جهنم، وتكون النتيجة:

- **الشمس والقمر والنجوم داخلة في الكتلة الكونية.**
- **الشمس والقمر والنجوم داخلة في جهنم.**

إذن، فالكتلة الكونية هي جهنم.

وهي في طورها الحالي (الحياة الدنيا) مجزأة إلى نجوم وكواكب ونيازك وغبار وغازات.

وهي في طورها الحالي موزعة على زوجين: نجوم ملتهبة لها كل صفات جهنم الواردة في القرآن والحديث، وكواكب باردة يشملها قوله تعالى ﴿**وقودها الناس والحجارة**﴾، لأن الكواكب الباردة هي حجارة مختلفة الأنواع مثل الأرض.

رؤية جهنم:

تقول لرفيقك: لقد رأيت البحر. وأنت لم تر منه إلا جزءاً صغيراً رأيته وأنت واقف في زاوية من الشاطىء اللبناني مثلاً.

ويقول آخر لآخر: لقد رأيت الهند. وهو لم يـر منها إلا مدينة أو مـدينتين. وهذا من باب إطلاق اسم الكل على الجزء.

وهو أيضاً ما يدعى بـ (اسم النوع).

فعندما تقول إنك رأيت البحر، فأنت تعني رؤيتك نـوع البحر لا كله. وهكذا. وهو وارد في كل اللغات، كما هو في القرآن الكريم. قال سبحانه: ﴿**أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن...**﴾، ﴿**... وترى الفلك مواخر فيه...**﴾.

فنحن لا نـرى كل الطير وكل الفلك، وإنما بعض الطير وبعض الفلك أو نـوعهما. وكذلك في قوله سبحانه ﴿**لترون الجحيم**﴾ و ﴿**لواحة للبشر**﴾.

أين هو الجزء الذي نراه؟

قال تعالى: ﴿**كلا لو تعلمون علم اليقين، لترون الجحيم**﴾، ﴿**وما أدراك ما سقر، لا**

تبقي ولا تذر، لواحة للبشر﴾.

قلنا آنفاً: إن جهنم (الكتلة الكونية) موزعة في طورها الحالي على زوجين: نجوم ملتهبة لها كل صفات جهنم الواردة في القرآن والحديث، وكواكب (الخنس) باردة يشملها قوله تعالى: ﴿**وقودها الناس والحجارة**﴾ لأن الكواكب الباردة هي حجارة مختلفة الأنواع مثل الأرض والقمر.

يكفي لتحقق الآية الأولى أن نرى واحداً من النجوم الملتهبة التي هي من نوع جهنم ولها جميع صفاتها، كالشمس مثلاً. مع العلم أن بالإمكان رؤية نجوم أخرى مثلها أو أكبر وأشد حراً.

ويكفي لتحقق الآية الثانية أن يكون نجم واحد من نوع جهنم وله جميع صفاتها لواحاً للبشر، كالشمس اللواحة للبشر (بالمعنيين الواردين في تفسير الآية) مع العلم أن هناك نجوماً كثيرة مثلها أو أكبر منها وأشد حراً هي أيضاً لواحة للبشر (بمعنى ظاهرة ومتعرضة للناس).

هل الشمس من نوع جهنم؟ وهل لها جميع صفاتها؟

ندرس أولاً صفات الشمس من حيث المظهر، ثم ندرس ثانياً صفاتها من حيث طبيعتها.

١ - من حيث المظهر:

قال تعالى: ﴿**إذا ألقوا فيها سمعوا لهاشهيقاً وهي تفور. تكاد تميّز من الغيظ**﴾. ﴿**إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيّظاً وزفيرا**﴾. ﴿**إنها ترمي بشرر كالقصر، كأنه جمالة صفر**﴾.

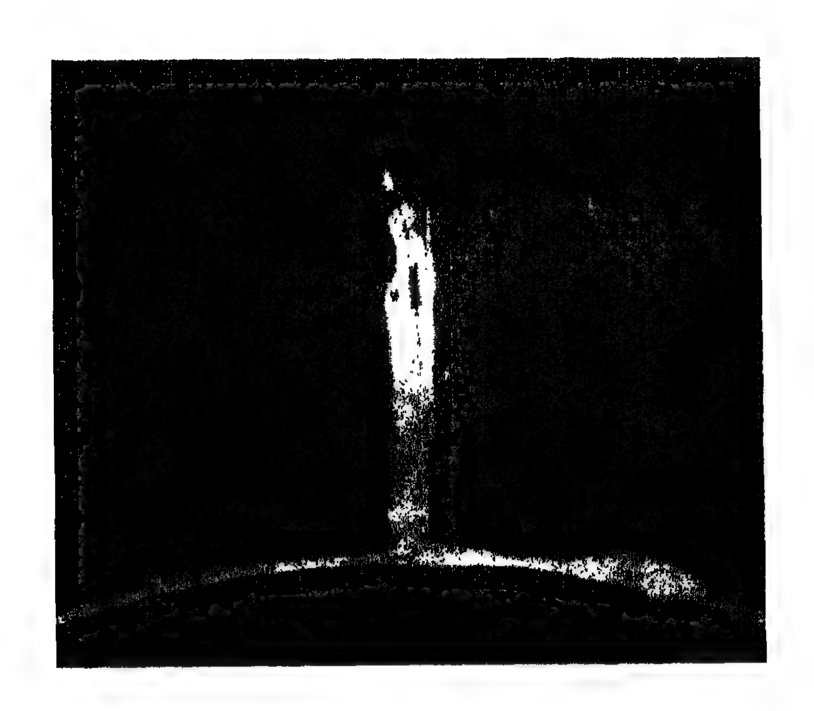
- تفور. تكاد تميز من الغيظ. ترمي بشرر كالقصر.

صور بصرية بالغة الدقة تكاد ترينا سطح جهنم.

- سمعوا لها شهيقاً، تغيظاً وزفيراً، تكاد تميز من الغيظ.

صور سمعية تكـاد تشعرنا بالصخب العنيـف العنيـف والانفجارات المدمرة المدارة في جهنم.

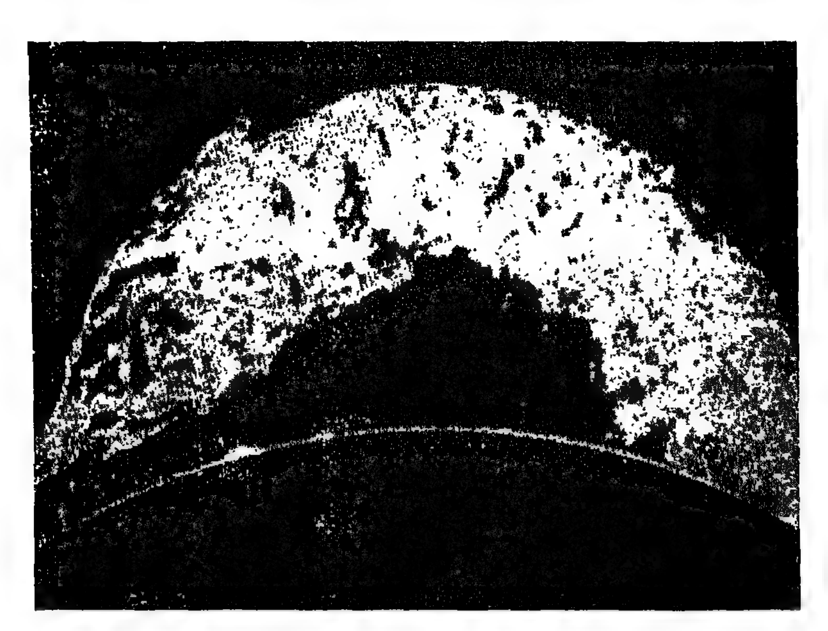
لنتأمل بهدوء هـذه الصور البصرية السمعيـة الرهيبـة لجهنم، ولنتخيلها في أذهـاننا -أعاذنـا الله منها- ثم لنتأمل الصور الفـوتوغرافيـة التالية التي أُخـذت للشمس ما بين ١٩٤٦ حتى ١٩٥٨:



شكل (٦)

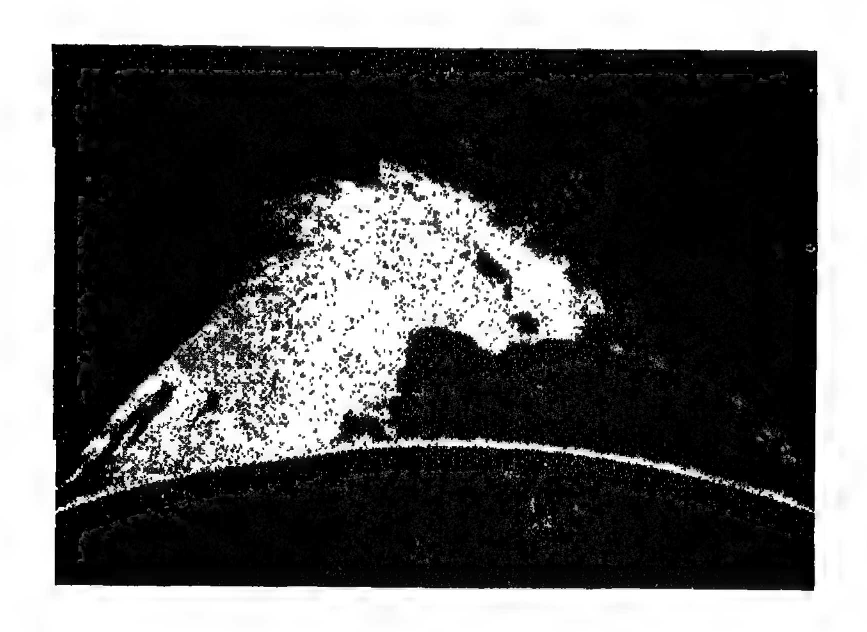
نتوء ينقذف إلى ارتفاع (٢٥٠٠٠) ميل

وقد سقط معظم المواد ثانية فوق سطح الشمس



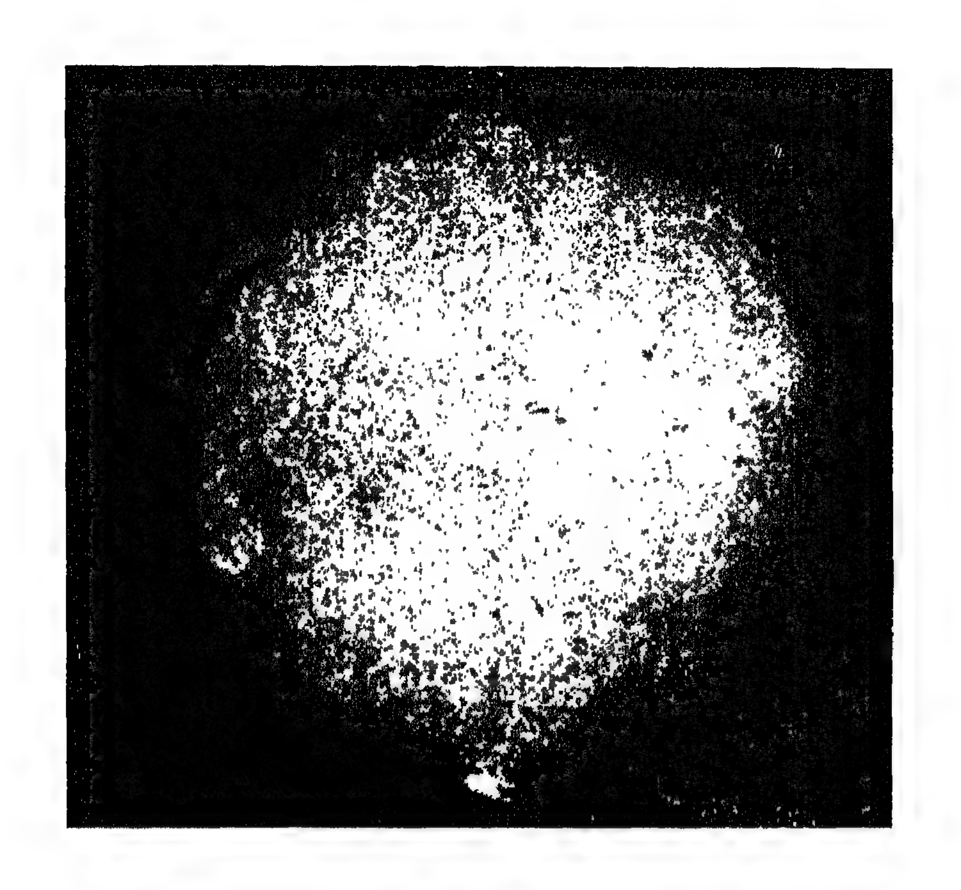
شكل (٧)

أكبر نتوء صور حتى تاريخ (٤ حزيران ١٩٤٦)



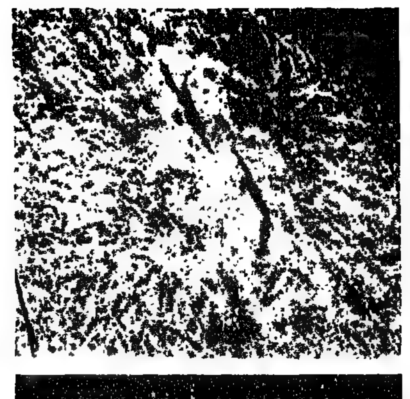
شكل (٨)

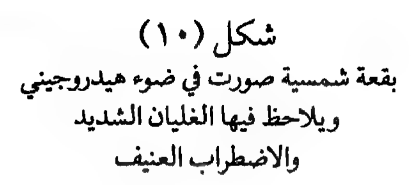
نتوء يلتوي فوق الشمس



شكل (٩)

الشمس وقد صورت في ضوء هيدروجيني في شهر أيار ١٩٥٦
حيث ظهرت المناطق المضيئة تحيط بالبقع المظلمة
وأحياناً تثور في جو الشمس الغازي نيازك فوق المناطق والبقع المضيئة

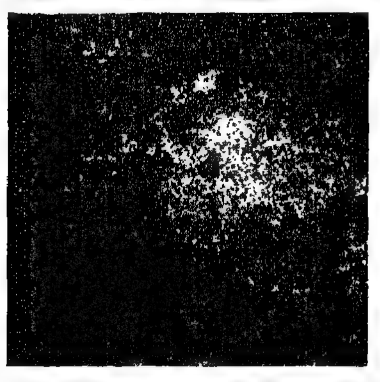




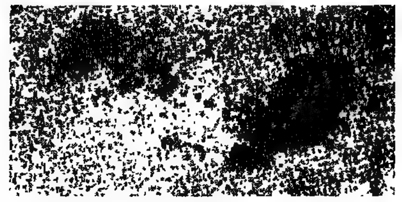
شكل (١٠)
بقعة شمسية صورت في ضوء هيدروجيني
ويلاحظ فيها الغليان الشديد
والاضطراب العنيف



شكل (١١)
صورة أخذت في (٣ تموز ١٩٥٧)
في الساعة العاشرة صباحاً
حيث بدأ التأجج



شكل (١٢)
صورة أخذت في نفس اليوم السابق وبعد أربعين
دقيقة حيث نما التأجج بنسبة عظيمة



شكل (١٣)
أكبر كلف شمسي
صور حتى ١٧ نيسان ١٩٤٧

نلاحظ في هذه الصور أربعة أنواع من الهيجانات:

١ - فقاعات ضخمة يتراوح قطر الواحدة منها بين ٣٠٠ إلى ١٥٠٠كم. ويسمي الفلكيون هذه الفقاعات بـ (الحبيبات) وهي تعطي سطح الشمس شكلاً ذا حبب يشبه سطح البرتقالة. شكل ٩، ١٠ .

٢ - اندفاعات ناتجة عن تمادي الحبيبات في تمددها حتى تنفجر مرسلة ألسنة من اللهب تمتد إلى ألوف كثيرة من الكيلومترات بلغ بعضها (٤٠٠) ألف كم. شكل : ٦،٧،٨ .

٣ - تأجج يشمل منطقة واسعة جداً يسبب انتفاخاً هائلاً. شكل: ١١، ١٢

- هذه الأنواع الثلاثة من الهيجانات هي انتفاخات في سطح الشمس واندفاعات غازية تخرج بشدة من باطنها.

٤ - البقع الشمسية، أو الكلف الشمسي: وهي بقع مظلمة نسبياً، تصل من الكبر أحياناً بحيث يمكن رؤيتها بالعين المجردة من خلال زجاجة ملونة. وهي أنواع أخر من الهيجانات معاكسة للسابقة، فهي انخفاضات في سطح الشمس وامتصاص للغازات التي تندفع بشدة إلى باطنها.

لنعد إلى الصور القرآنية.

أ - تفور: ما علينا إلا أن نعيد النظر في الصور المارة قبل هذه الصفحة مباشرة لنرى الفوران بكل وضوح.

ب - الشهيق: قلنا إن البقع الشمسية هي انخفاضات في سطح الشمس يحدث فيها امتصاص للغازات. وقد لوحظ أن هذه البقع مراكز لدوامات عنيفة تظهر فيها الحركة الحلزونية للغازات بوضوح قرْبَها مما يدل على أنها تمتص إلى داخلها. وهذا هو الشهيق الذي نستطيع أن نتصور شدته إذا علمنا أن متوسط سعة البقعة قد تصل إلى (٤٠) ألف كيلومتر مربع، أما البقعة الكبرى فقد تجاوزها بملايين المرات ، حتى إنه بالمستطاع سماع شهيقها على ارتفاع ٢٥٠-٣٠٠كم عن الأرض بواسطة آلات الرصد.

جـ - الزفير: إن الفقاعات الضخمة والاندفاعات الغازية الشديدة تخرج من باطن الشمس إلى جوها الذي يبلغ ضغطه ملايين المرات من الضغط الجوي الأرضي، فيحدث الزفير الذي نستطيع أن نتصور شدته إذا تأملنا الصور المعروضة.

د - سمعوا لها تغيظاً. تكاد تميز من الغيظ:

عندما نسمع صوت الرعد الناتج عن تفريغ كهربي بسيط أو صوت مدفع ناتج عن انفجار كيماوي أبسط، نستطيع أن نتخيل الأصوات الشديدة الجبارة الناتجة عن الانفجارات الشمسية الهيدروجينية الشاملة المستمرة حيث انفجار واحد منها هو أقوى من ألوف القنابل الهيدروجينية، حين نتخيل هذا نستطيع أن نسمع تغيظها بخيالنا. وإذا نظرنا إليها بمنظار خاص، أو نُظرنا إلى الصور المعروضة فقط، فإننا نراها بكل وضوح تكاد تميز من الغيظ، كما أننا نستطيع سماع هذا التغيظ بواسطة آلات الرصد على ارتفاع ٢٥٠-٣٠٠كم عن الأرض، بل لا أستبعد أن يصل الصوت أحياناً إلى أسماع الناس على الأرض، فلا ينتبهون له، أو يظنونه صادراً عن مصدر ما مما هو حولهم أو قريب منهم حسب ما يرون.

صلى الله عليك يا رسول الله.

بكل هذه الدقة، وكل هذا الوضوح، نقلت إلينا هذه الصور اللفظية! فكيف عرفتها؟! .

أما الشرر كالقصر، كأنه جمالة صفر.

إن الشرر هو أصغر القطع التي تقذفها النار- أي نار- وتخبرنا الآية الكريمة أن أصغر القطع التي تطلقها جهنم (الشرر) هي بحجم القصر.

فهل تطلق الشمس مثل هذا الشرر.

لم أعثر فيما قرأت على ما يشير إليه. والظاهر أن الوسائل العلمية الحالية لا تساعد على رؤيته[1].

---

(١) بعد طباعة هذا الكتاب لأول مرة، بمدة ليست طويلة، قرأت في مرجع أُنسيته أن آلات الرصد المطوّرة رصدت هذا الشرر على سطح الشمس بوضوح.

لكننـا نستطيع -حسب سنـة الله في خلقـه- أن نكـون على يقين من وجـوده في الشمس، أو في أي شمس أخرى.

- لنلاحظ الموج المتـلاطم في البحر، نَرَ سلسلـة من الأمواج التي تتـدرج في الصغر حتى تصل إلى مويجات سعتها بالميلليمترات (تراكب الأمواج).

ونرى أن المويجات كلما صغرت كلما زاد عددها.

- لنتأمل شلالاً تنحـدر مياهه هـادرة إلى الحضيض، نَرَ كتلاً مـائية تتبعثر منـه هنا وهناك ترافقها كتل أصغر منها، وهكذا ... حتى تصل إلى نقاط صغيرة ورذاذ.

ونرى أن النقاط كلما صغرت كلما زاد عددها.

- لننظـر في مقطع حجـارة، إلى تفجير حشـوة ديناميت، نـر حجـارة كبيرة تنفلق، وأصغر منها تتبعثر، وأصغر تتطاير، وهكذا ... حتى يصل صغرها إلى درجة الغبار.

ونرى أن القطع كلما صغرت كلما زاد عددها.

- لنشاهـد حريقاً نَـرَ اللهب يندفع، وبين حين وآخـر تنطلق كتل ملتهبة في الهواء، بينما تنطلق الكتل الصغيرة جداً (الشرر) باستمرار.

وإذا قُدّر لأحـدنا أن يرى بـركاناً في حـالة ثورانـه، يراه ينفث المهل والكتل النـارية السائلة، وتتناثر منه كتل صغيرة في الهواء، وتتطاير قطع أصغر وأصغر حتى الغبار الذي تحمله الريح بعيداً!.

ونرى أن القطع المتناثرة كلما صغرت كلما زاد عددها.

لو تتبعنا هذا لرأيناه قاعدة عامة تشمل كل شيء من هذا القبيل.

وقياسـاً عليه، نستطيع أن نقرر بـاطمئنان أن الانـدفاعات الكبرى التي نـراها على سطح الشمس ليست وحيدة، بل ترافقها اندفاعات أصغر وأصغر لا نراها، حتى تصل إلى درجة شرر كالقصر يتناثر باستمرار.

وبالإمكان تصوره:

حادث ما تحت سطح الشمس أو أي شمس أخرى -وما أكثرها من حوادث- يدفع بشدة كتلة صغيرة جداً، كالقصر فقط، فتنطلق في الجو، ويكون مركز تأثير الحادث في منتصف سطحها الأسفل حيث تبرز المنطقة المقابلة في الأعلى قبل غيرها فوق سطح الشمس، ثم يبدأ انفصال الكتلة. وأول ما ينفصل هو مركز تأثير الحادث الواقع في منتصف السطح الأسفل وما حوله، حيث تظهر الكتلة في هذه اللحظة من الخارج كالتل الصغير، أو كالقبة، ثم تسير في الاندفاع نحو الأعلى فتنفصل الأطراف ساحبة معها ذيولاً وأهداباً نارية كأنها الأرجل، ثم تذهب في الاندفاع في طبقة الكرة الملونة (الكروموسفير) الغازية حيث تفرض عليها سرعتُها وانعتاقُها من ضغط الكتلة الشمسية أخذَ أحسن شكل ملائم لهذا الاندفاع في ذلك الجو.

وهكذا تظهر كالجمل، لها سنام في وسطها الأعلى، وأهداب وامتدادات في أطرافها كأطراف الجمل وامتداداته.

عندما تنطلق هذه الشرارة في طبقة الكروموسفير، التي هي الطبقة الباردة نسبياً في جو الشمس، تبرد قليلاً بسبب التبادل الحراري الذي يجري بينهما من جهة، وبسبب تمددها لدى تخلصها من ضغط الكتلة الشمسية من جهة أخرى، وتبردها هذا يجعل لونها مائلاً إلى الصفرة. فتظهر كأنها جمالة صفر.

- (النتيجة: للشمس من حيث مظهرها الخارجي جميع صفات جهنم الواردة في القرآن).

٢ - من حيث طبيعتها:

قال سبحانه: ﴿... وقودها الناس والحجارة ...﴾، ﴿لا تبقي ولا تذر﴾، ﴿كلا لينبذن في الحطمة، وما أدراك ما الحطمة، نار الله الموقدة﴾.

- فهل الشمس كذلك؟

تتألف الشمس من نسبة ضئيلة من المواد الثقيلة المعروفة في أرضنا تقدر بحوالي

١/ ١٠٠ . أما الباقي فيتقاسمه الهيدروجين والهيليوم مع زيادة طفيفة في الهيدروجين.

تحدث في الشمس انفجارات نـووية مستمرة يتحول فيهـا الهيدروجين إلى هليوم كما يحدث أثناء انفجار القنبلة الهيدروجينية.

هذا هو التفاعل الرئيسي في الشمس.

وهو يقـود بطبيعة الحال إلى انفجـارات ذرية أخـرى محدثة تحولاً نـووياً في كثير من الأجسام الموجودة.

وفي جسم الإنسـان كمية وافرة مـن الهيدروجين، الـوقود الرئيسي للشمـس، كما فيه أجسام أخرى تصلح لذلك.

وكذلك الحجارة بجميع أنواعها.

- إذن، فالناس، والحجارة وقود للشمس إذا سقطوا فيها .

- وقد عرفنا الانفجار الذري المحدود والبسيط نسبياً في هيروشيما وناغازاكي وعرفنا قوته المدمرة الحطمة التي لم تبق شيئاً ولم تذر. فكيف بالانفجارات الهيدروجينية والنووية المتنوعة الشديـدة المستمرة الغزيرة الشاملة. وكيف بـالضغط الجوي الرهيب الذي يبلغ حوالي (٤٠) ألف طن على السانتمتر المربع؟!

- إنها الحطمة التي لا تبقي ولا تذر، وهي نار الله الموقدة التي لا تخبو ولا تنطفئ.

وقال ﷺ: **«ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»**، وفي رواية: **«هذه النار جزء من مئة جزء من جهنم»**.

قلنا آنفاً إن ١/ ١٠٠ من الشمس من المواد الثقيلـة المعروفة في الأرض. وهذا القسم الضئيل يتجمع في مـركـز الشمس، يغلفـه القسم البـاقي المؤلف من غـازين هما أخف الغـازات المعـروفة: (الهيـدروجين والهيليـوم) ويشكـلان حـوالي ٩٩٪ من الشمس، مع زيادة طفيفة في الهيدروجين.

لـذلك فبإمكاننـا أن نقول إن الشمس غـاز، لكنها ليست كـالغاز في أرضنـا ولا كما

نتصوره نحن! بل أكثف من ماء محيطاتنا بمرة ونصف، وسطحه يغلي ويغلي ويفور.

وقد كشفت خطوط اللون والظل في المطاييف، أن درجة حرارة سطح الشمس العادية (٦٠٠٠°) مئوية. ودرجة حرارة الكلف (٤٠٠٠°) مئوية، ودرجة حرارة التأجج (٢٠٠٠٠°) مئوية . أي إنه أعلى من حرارة السطح بشكل عام بمرات.

يندفع التأجج من أعماق الشمس، فنستدل من شدة حرارته أن حرارة أعماقها أعلى من حرارة سطحها بكثير. وهو أمر بدهي. وكلما زاد العمق زادت الحرارة.

تقدر حرارتها المركزية بـ(٢٠) مليون درجة مئوية، في مركز القسم الصلب أو الثقيل منها.

أما الطبقة الغازية نظرياً والسائلة عملياً فهي أقل من ذلك بكثير جداً، إذ أن فورانها المستمر لا يسمح لحرارتها أن ترتفع ارتفاعها في المواد الثقيلة الموجودة في المركز.

والفوران هو اندفاع المائع الناري ذي الحرارة العالية بشدة من الأعماق إلى السطح لينزل بدله مائع ناري أبرد. (وهذا هو الفوران).

وهكذا تحدث في جوف الطبقة السائلة عملية تبريد مستمرة.

وقد رأينا أن حرارة التأجج (٢٠) ألف درجة. وبدهي أنه فقد كثيراً من حرارته أثناء الاندفاع لمروره بطبقات أبرد من جهة. ولتمدده من جهة ثانية.

وعرفنا أن الفوران المستمر يمنع الحرارة في الأعماق من الارتفاع إلى الدرجات العالية جداً.

وقد لا تصل إلى (١٠٠) ألف درجة مئوية، وإن تجاوزتها فليس غير القليل.

إن أوصاف جهنم التي مرت معنا (الفوران، الشهيق، الزفير) وأوصاف حالة أهل جهنم في آيات وأحاديث لم نوردها لأنها ليست من موضوعنا، تدلنا على أن هذه الطبقة المائية عملياً والغازية نظرياً هي التي تقوم بالوظيفة الجهنمية. والقسم المؤلف من المواد الثقيلة يشكل القاع.

نعود للحديثين:

«ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم»، «هذه النار جزء من مئة جزء من جهنم».

تختلف درجة الحرارة في نارنا الأرضية من مادة إلى أخرى. وأحر نار وقود معروف في زمن الرسول ﷺ لا تتجاوز درجتها (١٢٠٠)° مئوية أو أكثر قليلاً. وهذا هو جزء من سبعين جزءاً. فتكون بذلك درجة الحرارة في بعض أعماق جهنم حوالي (٨٠٠٠٠)° مئوية.

وفي عمق أكثر منه يكون أشد من نارنا بمئة مرة، فتكون درجته قريبة من (١٢٠٠٠٠)° مئوية .

وهذه هي حرارة القسم المائع من الشمس.

والخلاصة: إن نارنا جزء من سبعين جزءاً من المائع الناري في الشمس في أعماقه المتوسطة.

وهي جزء من مئة جزء منه في أعماقه الأكثر بعداً.

وبذلك تكون الشمس مثل جهنم.

ويقول أيضاً ﷺ: **«أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة». «أتدرون ما مثل ناركم هذه من نار جهنم، لهي أشد سواداً من دخان ناركم هذه بسبعين ضعفاً».**

مر معنا في بحث سابق أن الجسم الذي ترتفع حرارته يحمر لونه، فإذا اشتدت الحرارة أكثر غدا أبيض، فإذا زاد ارتفاع الحرارة أكثر أخذ يميل إلى اللون الداكن حتى يغدو أسود. وكلما ازدادت الحرارة كلما زاد سواداً.

وعليه فالمائع الناري في الشمس الذي تبلغ حرارته عشرات الألوف الكثيرة من الدرجات هو شديد سواد اللون، مثل جهنم.

- وقال ﷺ: **«اشتكت النار إلى ربها فقالت رب آكل بعضي بعضاً...».**

إن الانفجارات الشديدة الشـاملة التي تحدث في الشمس -وفي أي شمس أخرى- تجعلها تستهلك من مادتها ملايين الاطنان في الثـانية الواحدة، تنطلق في الفضاء بشكل إشعاعات مختلفة الأنواع.

وتكون الشمس بذلك مثل جهنم يأكل بعضها بعضاً.

أما النفَسـان اللذان يـذكرهما الحديث (... فأذن الله لها بنفسين...) فنجهـل ما هما بـالضبط، وإن كنا نعـرف أن لها شهيقـاً تمتص فيه الغـازات من جـوها وزفيراً تخرج فيـه الغازات من باطنها.

وقال سبحانه: ﴿**كلا لينبذن في الحطمة، وما أدراك مـا الحطمة، نار الله الموقدة، التي تَطَّلع على الأفئدة**﴾.

- إن جهنم حطمة تحطم كل شيء ولا تبقي ولا تذر.

وقد رأينا قبل قليل أن الشمس كذلك، ومثلها بقية النجوم الملتهبة.

- وجهنم نار الله الموقدة.

والشمس نار الله الموقدة التي لا تنطفيء ولا تخمد. وكذلك كل نجم ملتهب.

- وجهنم تطلع على الأفئدة.

والشمس تطلع على الأفئـدة بأشعتها المتنـوعة التي تخترق كل شيء، كأشعـة إكس، والأشعة الكونية، وغيرها وغيرها، مما نراه ومما لا نراه.

ولولا طبقـة الهواء التي تمتص هذه الإشعـاعات، لما بقي على الأرض من حيـاة. قال ﷺ عن الشمس فيما يرويه ابن قتيبة في (تأويل مختلف الحديث): «**لولا ما يزعها من أمر الله تعالى، لأهلكت ما على الأرض**».

- فالشمس إذن مثل جهنم، حطمة، ونار الله الموقدة، وتطلع على الأفئدة.

النتيجة: للشمس من حيث مظهرها وطبيعتها جميع صفات جهنم الواردة في القرآن والحديث.

ومن كل ما سبق يمكن أن نستنبط ما يلي:

- تنضم الشمس يوم القيامة إلى جهنم لتكون جزءاً منها.
- سوف لن يتغير من صفاتها وطبيعتها شيء عندما تدخلها.
- إذن فهما من جنس واحد.
- إذن فالشمس هي جهنم.
- وكل نجم ملتهب نراه أولا نراه هو جهنم.

- والكواكب الباردة، كالقمر والمريخ وغيرها وغيرها، ستدخل جهنم، لكن صفاتها وطبيعتها ستتغير آنذاك لتصير ذات طبيعة جهنمية ملتهبة، فهي إذن وقود لجهنم، **﴿وقودها الناس والحجارة﴾**. والكواكب الباردة هي حجارة في أكثرها.

بالتالي: الكون (الدنيا) بكليته هو جهنم، وهي موزعة حالياً على نجوم مضطربة وكواكب خنس وغبار وغازات. والشمس جزء منها تمثلها وما علينا لنرى طبيعتها الجهنمية إلا أن نضع عيننا على عدسة نظارة فلكية خاصة نوجهها نحو الشمس.

أحاديث شريفة أخرى تؤيد ذلك

قال ﷺ: **«أبردوا بالصلاة فإن شدة الحر من فيح جهنم». ﴿اشتكت النار إلى ربها فقالت: رب أكل بعضي بعضاً، فأذن الله لها بنفسين، نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر وأشد ما تجدون من الزمهرير»**.

- يخبرنا ﷺ أن شدة الحر من فيح جهنم، وأنه من نَفَسِها. وكل الدنيا، حتى البهائم، تعلم أن شدة الحر من فيح الشمس، وأنه آت من الشمس، (من الوظيفة الجهنمية فيها).

إذا فالشمس هي جهنم.

- أما أن أشد ما نجد من الزمهرير (شدة البرد) هو أيضاً من جهنم! فهذا شيء كانت تجهله البشرية جهلاً تاماً حتى قبل سنوات قليلة، عندما لوحظ، أثناء البحوث الجيوفيزيائية الواسعة، أن تغيرات الطقس في الأرض تحدث بُعيد حدوث العواصف الشمسية التي تنفث ذريرات وإشعاعات مختلفة. وخاصة عندما تبلغ البقع

الشمسية ذروتها، حيث تحدث العواصف الشديدة في الأرض ويشتد البرد في بقاع منها وتكثر الفيضانات.

والبقع الشمسية هذه هي نَفَسٌ تأخذه الشمس (شهيق).

وهذا أيضاً يعني أن الشمس هي جهنم.

وهنا نتساءل: كيف عرف محمد ﷺ أن شدة البرد تسببها نار حامية؟ وهي فكرة غريبة جداً لا تقبلها العقول!.

وكيف عرف أن هذا يحدث بسبب نفس تتنفسها تلك النار؟!.

ثم كيف عرف أن النار تتنفس؟!

أليس هذا دليلاً على أنه رسول الله يوحى إليه؟.

وأنقل قولاً لابن قتيبة[1] في هذا الموضوع من كتابه (تأويل مختلف الحديث). يقول جواباً على تساؤلات:

«... إن الشمس والقمر لم يعذبا بالنار حين دخلاها. فيقال ما ذنبهما، ولكنهما خلقا منها، ثم ردا إليها.

وقد قال رسول الله ﷺ في الشمس -حين غربت- في نار الله الحامية- **لولا ما يزعها من أمر الله تعالى لأهلكت ما على الأرض.** (رواه أحمد عن عبد الله بن عمر، وورد في تخريج الإحياء جـ٤ ص٣٨٠).

وقال: **«ما ترتفع في السماء قصمة إلا فتح لها باب من أبواب النار، فإذا قامت الظهيرة فتحت الأبواب كلها»**.

وهذا يدلك على أن شدة حرها من فوح[2] جهنم. ولذلك قال: **«أبردوا بالصلاة فإن شدة الحر من فوح جهنم»**.

فما كان من النار، ثم رد إلى النار، لم يقل إنه يعذب ...

-انتهى قول ابن قتيبة-

---

(١) ابن قتيبة فقيه وأديب، من علماء القرن الثالث الهجري في بغداد. ويقال: هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة.

(٢) وردت الروايتان فوح، وفيح.

ألخص المعجزات في الآيات والأحاديث الواردة فيه:

١ - معرفته ﷺ أن في الوجود ناراً لها هذه الصفات!
٢ - معرفته أن الحجارة وقود لها! وهو أمر ما كان يقبله عاقل حتى هذا القرن.
٣ - معرفته ﷺ أنها تفور! ومن كان يظن أن ناراً تفور؟.
٤ - معرفته أن لها شهيقاً! وهذا أمر غريب يكاد يرفضه العقل!.
٥ - معرفته أن لها زفيراً! وهذا غريب أيضاً.
٦ - معرفته أن لها تغيظاً! وأنها تكاد تميز من الغيظ!.

والفوران والشهيق والزفير والتغيظ هي أمور كانت تجهلها البشرية حتى هذا القرن بعد تصميم النظارات الفلكية الخاصة.

٧ - معرفته ﷺ أن شدة البرد من النار! وهذا من أعجب العجائب وأغربها!
٨ - معرفته أن شدة البرد هذه هي من نفس تتنفسه تلك النار! وهذا أعجب وأغرب.
٩ - معرفته بلونها الأسود!
١٠ - معرفته الشرر الذي يتطاير على سطحها كالقصر، كأنه جمالة صفر!. وهذا أمر مجهول حتى هذا الوقت، وهو حقيقة واقعة ستكتشف إن عاجلاً أو آجلاً[١].
١١ - توضيحه ﷺ أن الشمس هي من هذه النار!.
١٢ - وأهم شيء على الإطلاق هو وجود جهنم، وأنها حق نراها بأعيننا!.

فيا أيها المكذب،
أفبعد هذا كله تكذيب ؟!.
هذه جهنم لواحة للبشر.
وما عليك إلا أن ترفع رأسك للسماء لترى توهجها.

وما عليك إلا أن تنظر بنظارة فلكية خاصة توجهها نحوها لترى طبيعتها.

---

(١) كما قلت في صفحة سابقة، كنت قرأت بعد الإصدار الأول لهذا الكتاب أن ذلك اكتشف.

ملاحظـــات

١ - قال تعالى: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ [الذاريات].

من كل شيء دون استثناء، خلـق سبحانه زوجين متكـاملين متقابلين، هـذا موجب وذاك سالب، هذا مضيء وذاك مظلم... الخ.

من كل شيء، حتى من الوظائف الشمسية.

فالوظائف الشمسية زوجان :

- وظيفة جهنمية، لا تبقي ولا تذر، وقودها الناس والحجارة.
- ووظيفـة حيويـة تشع الدفء والنـور والطـاقة التي تختلط حيـاة في النباتـات ثم الحيوانات.

٢ - تجري مراقبـة الشمس ورصدهـا بواسطة منـاظير فلكية لـدى الكسوف الكلي، وذلك لأن توهجهـا الشديد يحول دون إمكان التحـديق فيها في الأحوال العاديـة. أما في حـالة الكسـوف الكلي فيخف أثر تـوهجها على العين كثيراً، ويمكن رؤيـة محيطها ومـا يجري عليه براحة ووضوح.

وقد صنعت مناظير مغشاة بالسواد تبدو الشمس من خلالها وكأنها في حالة كسوف كلي.

ويجري تصويرها بإحدى هاتين الوسيلتين.

ويعرف تركيبها الكيماوي بواسطة التحليل الطيفي.

وتعرف الإشعـاعات الصـادرة عنها بـواسطة أجهـزة تتلقى هـذه الإشعاعـات عند وصولها إلى الأرض.

٣ - تفـرغ عدة فلكيين لمراقبـة البقع الشمسيـة (الكلف) ودراستهـا لمدة طويلـة في صبر وأناة واستنتجوا ما يلي:

- إنها انخفاضات في سطح الشمس يبلغ عمقها حـوالي (٧٠٠) كم وقد تزيد على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذلك كثيراً في أحوال نادرة.

- لوحظ أنها تميل إلى الظهور في مجموعات خاصة أزواجاً أزواجاً، يتناثر حولها بقع أخرى أصغر منها.

- لوحظ بوساطة تحليل الطيف أن هذه البقع مراكز لدوامات اضطراب عنيفة، إذ تظهر الحركة الحلزونية للغازات بوضوح قرب هذه البقع وكأنها تمتص إلى داخلها. وهذا هو الشهيق الذي يمكننا أن نتصور شدته وعنفه إذا عرفنا أن الكلفة العادية قد تصل سعتها إلى أكثر من (٤٠) ألف كم٢ . بينما بلغت مساحة البقعة المنشورة صورتها آنفاً قريباً من (١٤,٥) مليار كم٢ حيث أن باستطاعتها ابتلاع مائة كرة أرضية مثل أرضنا.

- لوحظ أن عدد البقع غير ثابت، بل يتدرج من حد أدنى إلى حد أقصى خلال دورة مقدارها(١١) عاماً تقريباً وقد تزيد وقد تنقص قليلاً.

- لوحظ أنه عند بلوغ البقع حداً أعلى من المعتاد، تظهر الفيضانات في أجزاء من الأرض، بينما يعم القحط أماكن أخرى تبعاً لجغرافيتها.

- كما لوحظ أن الأمطار في الأرض والعواصف، وغزارة نمو النباتات كلها، تتبع دورات متواقتة مع دورات الكلف الشمسي. بل وقد لوحظ أن ارتفاع حوادث الطرق يتبع دورات مماثلة.

الجنَّـــــة

قال تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنـة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾[1]. ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض﴾[2].

وفي صحيحي البخاري ومسلم وغيرهما :

... يـذكر ﷺ عـروجـه ومـروره بالسماوات حتى وصـولـه السماء السـابعة، وفـرض الصـلاة... إلى أن يقـول: «... ثم انطلق بي (أي جبريل) حتى انتهـى بي إلى سـدرة المنتهى، وغشيها ألوان لا أدري مـا هي، ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها حبـايل اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك[3]».

نفهم من الحديث الشريف أن الجنة بعد السماء السابعة.
أي خارج نطاق كوننا.
ونعلم من الآيات الكريمة أنها بحجم كوننا الشاسع.

إذن ، فهي كون آخـر غير كوننا، جار لـه في اللانهاية، أو هما رفيقان متكـاملان غير متشابهين.

وأفهم من ذكـر كلمـة (الأرض) في قولـه تعـالى: ﴿عرضهـا السماوات والأرض﴾. و﴿عـرضها كعـرض السماء والأرض﴾. الدقـة في التساوي الحجمـي بين الكونين. لأن حجم الأرض لا قيمة لـه بالنسبـة لحجم الكون، فـذكرهـا في معرض ذكـر التساوي بين الكونين يشعر بدقة هذا التساوي. والله أعلم.

إن وجـود هـذا الكون الـرفيق لكـون الـدنيا، والمكمـل له يتفق والمفـاهيم العلميـة ومقاييسها، وعدم وجوده يشكل تناقضاً غير مقبول.

إننا نميز بين ثلاثة أنواع من الفضاء:

---

(١) آل عمران (١٣٣).　　(٢) الحديد (٢١).　　(٣) البخاري.

١ - **الفضاء الذري**: وهو فضاء لا نستطيع رؤيته لأن أبعاده أصغر من الموجات الضوئية بكثير، تسبح فيه النوى والكهارب التي لو استطعنا أن نلصقها إلى بعضها في الكرة الأرضية، مثلاً، بإزالة الفراغ بينها لأصبحت الأرض بحجم تُلَيْلٍ صغير مع احتفاظها بوزنها.

والوحدات المادية الأساسية التي يحويها هذا الفضاء زوجان: البروتون، والكهروب. غير متساويين وإنما متكاملان، ما ينقص في هذا يوجد في ذاك، متباعدان عن بعضهما بعداً شاسعاً بالنسبة لحجمهما، متجاذبان، يدور أخفهما حول أثقلهما.

٢ - **الفضاء الكوني**: وهو هذا الفضاء المحدود بين النجوم، نراه ، ونجتاز عبره ملايين الأميال كل يوم دون أن نشعر.

والوحدات المادية الأساسية التي يشملها هي أيضاً زوجان: الشمس الملتهبة، والكوكب البارد، غير متساويين، وإنما متكاملان، ما ينقص في هذا يوجد في ذاك، متباعدان عن بعضهما بعداً شاسعاً بالنسبة لحجمهما، متجاذبان، يدور أخفهما حول أثقلهما، أو يدوران حول مركز مشترك لهما.

٣ - **الفضاء اللانهائي**: وما الفضاء الذري، ثم الكوني، إلا أجزاء محدودة منه، وهو غير محدود. أو هي امتداداته داخل الكون.

والوحدات المادية الأساسية التي تتحرك فيه، يجب أن تكون زوجين، قياساً على ما سبق، ولأن القانون الذي يسيطر على الوحدات الذرية والكونية فيجعلها زوجية ما هو إلا امتداد لقانون كلي يسيطر على اللانهاية وما فيها من وحدات كبرى أو صغرى.

وبما أن كون الدنيا هو وحدة مادية أساسية في اللانهاية..

فيجب أن يكون هناك كون ثان رفيق له، لتكون الوحدات المادية في اللانهاية زوجين، غير متساويين، وإنما متكاملان، ما ينقص في هذا يوجد في ذاك، متباعدان عن بعضهما بعداً شاسعاً بالنسبة لحجمها، متجاذبان، يدور أخفهما حول أثقلهما، أو يدوران حول مركز مشترك لهما.

- هذا الكون الثاني هو الجنة.

وفي الحقيقة، إن هذه الزوجية التكاملية مطّردة في كل شيء: ذكر وأنثى. موجب وسالب. ليل ونهار. حرارة وبرد. ولادة وموت. صحة ومرض ... الخ.

قال سبحانه: «**ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون**».[الذاريات].

وكذلك الكون، خلق الله منه زوجين: كون الدنيا (أو جهنم)، وكون الجنة، يتماثلان في الحجم كما يخبرنا القرآن الكريم ﴿.. **جنة عرضها السماوات والأرض**﴾. ولكنهما لا يتشابهان بخواصهما، بل يتكاملان، كالبروتون والكهروب، والشمس والتابع. والذكر والأنثى...

ففي كون الدنيا : التناقض والتحول القلق.
وفي كون الجنة : التلاؤم والاستقرار.
وفي كون الدنيا : الحرارة الرهيبة والبرودة المطلقة.
وفي كون الجنة : لا ترون شمساً ولا زمهريراً
وفي كون الدنيا : الآلام والشيخوخة والموت.
وفي كون الجنة : السعادة والخلود .

إلى آخر ما نراه في القرآن الكريم والحديث الشريف من صفات الجنة.

النتيجة:

الجنة موجودة كما وصفها محمد ﷺ، فهو صادق، أخبرنا ما أخبرنا به وحياً من عليم خبير.

ولنلاحظ أنه ﷺ تفرد في وصف الجنة والنار بما وصفهما من بين جميع الديانات والفلسفات التي كانت معروفة في عصره. وحتى الآن.

اللهم إني أشهد أنه رسولك، وأنه جاء بالحق من عندك.

وهكذا يظهر لنا بوضوح تام يقيني: أن جهنم حق، وأن الجنة حق، وأن الإسلام حق، وأن ما جاء به الإسلام حق، وأن ما سواه هو الباطل.

﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾.

إلحَــاق وَتعْليــق

١ - توجد في الفضـاء الكوني أعداد هائلة من الـذرات الحرة (الغبار والغازات) أو المجتمعـة في كتل صغيرة أو كبيرة، كـالنيـازك، تنطلق بين النجوم وكـأنها تائهـة في هـذا الفضاء السحيق.

كما يوجـد ما يماثلها في الفضـاء الذري حيث تقفـز شوارد سالبـة غالباً ومـوجبة في حالات خاصة هنا وهناك وكأنها ضائعة.

وواضح أن القـوانين التي تسيطـر على الـذرات في الفضاء الـذري إنما هي امتـداد لتلك التي تسيطر على النجـوم في الفضاء الكوني، وهـذه بدورها امتداد للقـوانين الكلية التي تسيطر على الكون وما بعده من أكوان في الفضاء اللانهائي.

لذلك فإني أظن أن بين الكونين، كون الدنيا وكون الجنة، وفي ذلك الفضاء السحيق السحيق، توجـد نجوم لا تتبع هذا الكون ولا ذاك، تظهـر وكأنها تائهة في اللانهايـة، وقد يكون بعضها مفرداً وحيداً وقد يكون بعضها الآخر يتحرك في تجمع نجمي صغير، يشكل كوناً صغيراً جداً جداً قائماً بأمر الله.

ولعل هـذه الأجرام هي الأعـراف التي ذكرهـا الله تعالى في قـوله: **﴿وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم...﴾** وفي قوله تعالى أيضاً: **﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم...﴾**.

ومن التفاسير التي وردت لكلمة (الأعراف) أنها تلال بين الجنة والنار، والله أعلم.

٢ - أميل إلى الظن أن في الـلانهاية أكـوانـاً أخرى غير كـوني الـدنيا والجنـة، وذلك انطلاقاً من قوله سبحانه **﴿ويخلق مالا تعلمون﴾**.

٣ - أعيد إلى ذهن القـارىء ما مر في مكـان سابق من هذا الكتـاب من أنهم قدّروا قطر كون الدنيا بـ(٧٠) مليار سنة ضوئية. وهو مجرد تقدير لا يعتمد إلا على الظن.

وقد تكون الحقيقة أضعاف ذلك.

أعيد هـذا لنتصور سعـة الجنة التي هي بحجم الكون، ونلمّس صـدقه ﷺ عنـدما قال: «**إن أدنى أهل الجنة منزلة له عشرة أضعاف الدنيا (أي الأرض)**[1]».

٤ - في الجامع الصغير عن (الضيـاء عن ابن عبـاس): «**ليس في الجنـة شيء ممـا في الدنيا إلا الأسماء**»[2]، ليس في الجنة شيء -دون استثناء- مما في الأرض.

وعليه نستطيع أن نقـرر مطمئنين أن المادة في كون الجنـة بذراتها ونواهـا وكهاربها لا تشبـه مـا في الأرض. ولعـل تفسير ذلك هـو أن النـوى في مـادة الجنـــة تحمل شحنـات سالبـة،بينما تحمل كهاربها شحنـات موجبة، بعكس مـادة كون الـدنيا التي تحمل نـواها شحنات موجبة وكهاربها شحنات سالبة.

---

(١) مسلم وابن حنبل.

(٢) هذا الحديث هـو إخبار عن أمر غيبي لا يُعرف إلا عن طـريق الوحي. ولو لم يكن ابن عبـاس قد سمعه من الرسول ﷺ لما قاله.



القسم الثالث

قصَّة ذِي القَرنين



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذو القرنـــــــين

﴿ويسألونك عن ذي القـرنين قل سأتلو عليكم منـه ذكراً، إنـا مكّنّا لـه في الأرض وآتينـاه من كل شيء سببا، فأتبـع سببا، حتى إذا بلغ مغـرب الشمس وجـدها تغـرب في عين حمئة ووجد عندهـا قوماً، قلنا يا ذا القرنين إما أن تعـذب وإما أن تتخذ فيهم حُسنا، قال أمـا من ظلم فسوف نعـذبه ثم يـرد إلى ربه فيعـذبه عـذاباً نكرا، وأمـا من آمن وعمل صالحاً فلـه جزاء الحسنى، وسنقول لـه من أمرنا يسرا، ثـم أتبع سببا، حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدهـا تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا، كـذلك وقد أحطنا بما لـديه خُبرا، ثم أتبع سببـا، حتى إذا بلغ بين السدَّين وجـد من دونهما قومـاً لا يكادون يفقهـون قولاً، قـالوا يا ذا القرنين إن يأجـوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خَـرجا على أن تجعل بيننـا وبينهم سدا، قـال ما مكّنّي فيـه ربي خير فأعينوني بقـوة أجعل بينكم وبينهم ردما، آتوني زُبَر الحديد حتى إذا سـاوى بين الصدَفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتـوني أفرغ عليه قِطرا، فما اسطـاعوا أن يظهروه وما استطـاعوا له نقبا، قـال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعـد ربي جعله دكاء وكـان وعد ربي حقـا، وتركنا بعضهم يـومئذ يموج في بعض[1] ...﴾.

هـذه قصة ذي القـرنين كما يرويها القـرآن الكريم. ومن المتعـذر علينا بمعلـوماتنـا التاريخيـة الحالية معـرفة هُويتـه: من أي بلد؟ وفي أي عصر وجـد؟. ولكننا نستطيع من تتبع رحلته وأعماله، بتأمل الآيات الكريمة، أن نتبين بعض تلك الملامح.

يقول سبحانه: ﴿إنا مكّنّا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا﴾.

---

(١) سورة الكهف: (٨٤-١٠١).

إذن فقد كان ملكـاً واسع الملك قوياً ﴿إنا مكنا له في الأرض﴾ واسع الإمكانيات. بل أوتيها جميعها بالنسبة لعصره ﴿وآتيناه من كل شيء سببا﴾.

غزا العالم القديم من غربـه حتى شرقه غزو فتح أو نشر دعوة أو استكشاف أو جميع ذلك.

ولعله كـان في مسيرته تلك على رأس إحدى الموجات التـاريخية الكبرى التي نقلت شعوباً من مكان إلى مكان، ومزجت ثقافـات بثقافات، إذ نفهم من الآيات الكريمة أنه كان يسير بجيش كبير وقوة ضخمة، وفي مثل هـذه الحالة يتخلف في كل مكان يقيم فيه مدة كافية (طيلة فصل الشتاء) بعضٌ مِـن أتباعه، لأسباب كثيرة، ويتبعه بعض السكان لأسباب أكثر.

ونستطيع أن نعتقـد، دون تحفظ، أنه كـان يقضي فصل الشتـاء، أو أكثره، في مكـان واحد.

﴿فأتبع سببا، حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة﴾.

يقول ابن كثير: «إنـه سلك طريقـاً حتى وصل إلى أقصى ما يُسْلـك فيه من الأرض. من ناحيـة المغرب، وأنه رأى الشمس في منظره تغـرب في تلك العين، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحل البحر يراها كأنها تغرب فيه».

ويقول سيـد قطب: «والظاهـر من النص أن ذا القرنين غـرب حتى وصل إلى نقطة على شـاطىء المحيط الأطلسي -وكـان يسمى بحـر الظلمات ويظن أن اليـابسـة تنتهي عنده -فرأى الشمس تغـرب فيه. والأرجح أنه كان عنـد مصب أحد الأنهار حيث تكثر الأعشاب ويتجمـع حولها طين لزج هـو الحمأ، وتـوجد البرك وكأنها عيـون الماء... فرأى الشمس تغرب هناك و «وجدها تغرب في عين حمئـة» . ولكن يتعذر علينا تحديد المكان، لأن النص لا يحدده، وليس لنا مصـدر آخر موثـوق به نعتمد عليه في تحديـده. وكل قول غير هذا ليس مأموناً لأنه لا يستند إلى مصدر صحيح». اهـ.

إذن، ففي مكـان ما، من شـواطىء الأطلسي التي تمتد ألـوفاً من الكيلـومترات، من النوروج في شمال أوروبـا حتى الكاب في جنـوب إفريقيا، يـوجد مغـرب الشمس الذي

وصل إليه ذو القرنين، والذي نستطيع -مع كثير من الاطمئنان- أن نقتصر منه، لمجال بحثنا، على شواطىء أوروبا والقسم الشمالي من شواطىء إفريقيا الغربية، وأن نحذف القسم الجنوبي منها (ابتداء من ليبيريا حتى الجنوب) وذلك لأننا نستبعد كل الاستبعاد أن يكون منطلقُ ذي القرنين من مكان على خط الاستواء أو عبره في الجنوب. إذ من المؤكد أنه من بلد كانت تسودها حضارة، ولا نظن هذا وجد، ذاك الزمان، في تلك المناطق.

ولمثل السبب، نستطيع أن نحذف شواطىء النوروج.

نظرة على الشواطىء الباقية (من الدانمارك شمالاً حتى ليبيريا جنوباً) في ماضيها البعيد الذي يمتد في أعماق العصور الجيولوجية الأخيرة، ثم يسير مع الزمن حتى ما قبل قرون قليلة لا تزيد على الخمسة فقط، نظرة عليها طيلة تلك العصور، نر العين الحمئة التي تزداد سعة وعمقاً مع توغلنا في الماضي، ويقل عمقها مع الزمن بسبب الرسوبات، حتى جاء الإنسان ليسويها نهائياً بعد أن ارتفع قاعها إلى ما فيه الكفاية، وغدت العين الحمئة عيوناً كثيرة أو مستنقعات طمرها الناس شيئاً فشيئاً منذ خمسة قرون وسكنوها، وأصبحت البلد الزراعية والصناعية المعروفة بالبلاد الواطئة (هولاندا وبلجيكا). كانت -ولم تزل- أرضاً أكثر انخفاضاً عن سطح البحر بأمتار منذ خمسة قرون، أي في القرن الخامس عشر ميلادي، ولكنها كانت أكثر انخفاضاً منذ عشرات القرون. أو في عصر ذي القرنين، مملوءة بالمياه الآسنة التي تشكل بحيرة تحافظ على منسوب مياهها، وهي تتصل بالبحر في حالة مدّه أو ثورة أمواجه، وتنفصل عنه بعض الأحيان، بينما كانت ثلوج الشتاء وأمطار الصيف، والأنهار الكثيرة التي أكبرها نهر الراين والموز، والسيول التي لا تكاد تنقطع ولا تعد، والتي تنحدر من جبال الفوج وآردن، أو من السهول المرتفعة في الشمال منها وفي الجنوب، تأتي كل هذه الأنهار والسيول حاملة معها الأتربة والطين الذي يصبغ هذه البركة الكبيرة بصبغته فتغدو حمئة.

إن كثرة الأمطار والسيول والأنهار التي تصب فيها تجعل ملوحة البحر بعيدة عن شواطئها الشرقية بعداً كافياً، فتبقى عذبة المياه، مما يسمح للطين أن يبقى عالقاً بها مدة طويلة. وبما أنه دائم الورود إليها، لذلك تبقى مياهها حمئة على مدار السنة، وكلما توغلنا

فيها نحو الغرب، كلما قل عكرها بسبب ازدياد ملوحتها الآتية من البحر.

يكاد طول هذه العين من الشمال إلى الجنوب أن يبلغ ثلاثمئة من الكيلومترات بينما يقترب بعض عرضها من المئتين.

إنني أعتقد أن هذه هي العين الحمئة التي انتهى إليها ذو القرنين في مغرب الشمس، لسببين:

١ - لا نعرف مكاناً آخر توفرت فيه نفس المظاهر أو ما هو قريب منها.

٢ - من البدهي أن ذا القرنين كان يتجنب في مسيرته الجبال والمسالك الوعرة التي يصعب على الجيش اجتيازها، ان لم يتعذر، وكان يتوخى الطرق السهلة. فإذا قبلنا أن العين ليست في الشواطىء الإفريقية، عندئذ تكفينا نظرة نلقيها على مصور أوروبا الطبيعي لنرى أن الطرق السهلة تقود إلى البلاد المنخفضة. فجبال الألب والغابة السوداء والفوج وغيرها تقف حاجزاً شاق الاجتياز، إن لم يكن متعذره، دون شواطىء فرنسا وإسبانيا. كما إنني أستبعد أن تكون المسيرة بحراً في السفن، لأن التحركات العسكرية في التاريخ، وكذلك الهجرات، كانت تتم براً إلا ما ندر.

كان هناك أقوام يسكنون المكان ﴿ووجد عندها قوماً﴾، أقام فيهم ذو القرنين زمناً حاكماً نافذ الأمر ﴿... إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا...﴾ ونشر رسالة الإيمان والعمل الصالح ﴿وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاءٌ الحسنى...﴾.

لقد كان ذو القرنين مؤمناً موحداً، يحمل رسالة الإيمان ينشرها أينما حل في مسيرته. وهذا يذكرنا بمسيرات الطلائع الإسلامية التي حملت رسالة الإسلام تنشرها في كل مكان.

وليس من الضروري أن يكون نبياً رسولا ليقوم بهذا العمل، فأبو عبيدة وخالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص والصحابة كلهم وغيرهم لم يكونوا أنبياء، ولكنهم كانوا يحملون رسالة نبي بلغوها العالم، وكافحوا وضحّوا لإزالة الطواغيت التي تقف حائلاً دون هذا التبليغ.

﴿ثم أتبع سببا، حتى إذا بلغ مطلع الشمس..﴾. أي وصل أقصى ما يُسلَك فيه

من الأرض من ناحية المشرق. فأين هذا؟.

إن القرآن الكريم -كما هي طريقته العامة- لا يحدد لنا هذا المكان، ولكنه يصفه صفة تساعدنا على التعرف عليه.

تقول الآية: **﴿حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾**..

إنه وصف يعطينا الحالة الطبيعية الرئيسية التي كانت تسيطر على ذلك المكان، فما معناه؟ .

جاء في تفسير ابن كثير في معنى قوله: **﴿لم نجعل لهم من دونها سترا﴾**:

«إن أرضهم (أي سكان تلك المنطقة) لا تحمل البناء، فإذا طلعت الشمس تغوّروا في المياه، وإذا غربت خرجوا يتراغون كما تراغى البهائم». اهـ.

لنناقش هذا القول: - كون الأرض لا تحمل البناء جائز. إما لعمق رملها، أو لأنها وحلة بسبب كثرة المياه، أو لأنها دائمة الثلج.

- أما أن يتغوروا في المياه إذا طلعت الشمس، فهذا غريب! لأن الإنسان حيوان هوائي يختنق في الماء، ولم يرد في أثر من الآثار خبر ينبيء عن وجود مثل هذا الإنسان المائي الهوائي.

- أما كونهم، إذا غربت الشمس خرجوا يتراغون كما ترغى البهائم، فهذا يناقض قوله تعالى في سورة النمل: **﴿ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً﴾**.

وقوله في سورة النبأ: **﴿وجعلنا الليل لباساً، وجعلنا النهار معاشا﴾**.وغيرها آيات كثيرة. وهذا يعني أن خروجهم في الليل للمعاش ونومهم في النهار يناقض الآيات الكريمة، وبالتالي، يناقض فطرة الحياة وطبيعتها.

إذن فهو قول غير مقبول.

وجاء أيضاً في تفسير ابن كثير عن طريق آخر: «إنهم بأرض لا تنبت لهم شيئاً، فهم إذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب، حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى

حروثهم ومعايشهم».

وقولنا في هذا مثله فيما سبقه . ولا نقبله.

وعن طريق ثالث: «ليست لهم أكنان، إذا طلعت الشمس طلعت عليهم، فلأحدهم أذنان يفرش إحداها ويلبس الأخرى».

وهذا أغرب! فلم يسمع أحد بهذا الإنسان، ولم يرد فيه شيء عن رسول الله ﷺ، ثم هو ينفي أن يكون لهم ستر من الشمس من شجر أو بيوت أو غيرها، ويجعل لهم ستراً من آذانهم. فلا نقبله.

وهناك أقوال أخرى لا تخرج عن هذا المعنى.

وتورد الكتب الأخرى (غير ابن كثير) نفس التفاسير وإن اختلفت الألفاظ.

ويضيف النسفي أن الستر هنا يعني اللباس، ويجعل هؤلاء القوم هم الزنوج.

لكننا نعلم أن الزنوج ليسوا في مشرق الأرض، بل في إفريقيا، وبينهم وبين المشرق ألوف الأميال.

أما أنا، فإني أميل إلى قول لمحمد أمين الديك، يورده العقاد في كتابه (التفكير فريضة إسلامية) يقول:

«... بمعنى بلغ مكاناً تشرق الشمس عليه فوجدها تظهر على قوم ليس لهم من ورائها ليل، والذي يجعلني أفهم احتمال الآية لهذا المعنى ما يأتي من النقط:

أولا - التعبير بكلمة «وجد» الذي يشعر بما يفيد حكاية الحال، أو وصف ما شاهده في ذلك المكان.

ثانياً - إن من معاني دون: وراء وبعد.

ثالثاً - إن القرآن عبّر عن الليل بأنه لباس في قوله تعالى: ﴿**وجعلنا الليل لباسا**﴾ وعبّر عنه بأنه يلتصق بالنهار التصاق الجلد باللحم في قوله تعالى: ﴿**وآية لهم الليل نسلخ منه النهار**﴾. وعبر عنه بأنه يغطي ويستر ضوء النهار، بقوله تعالى: ﴿**يغشي الليل**

النهار﴾، وبأنه يغطي ويستر ضوء الشمس بقوله تعالى: **﴿والليل إذا يغشاها..﴾**...

– انتهى–

إنني مع أمين الديك في فهمه وتفسيره.

وإذا قبلنا البلاد الواطئة مغرباً للشمس، ثم اتجهنا نحو الشرق انطلاقاً منها، فإن أقصى نقطة نصل إليها هي الرأس الشرقي على مضيق بيرنغ مارّين بطريق الشعوب شمالي البحر الأسود، فسفوح الأورال الجنوبية، فسهوب سيبريا الشمالية، ثم نصل، آخر ما نصل إلى هذا المكان الواقع على خط العرض ٦٨ تقريباً حيث يصل نهاره صيفاً إلى ما يقرب من شهر لا تغيب الشمس أثناءه. ولا يكون لسكانها ستر من دونها طيلة هذه المدة.

وكما قلنا سابقاً، وكما هو طبيعي، إن ذا القرنين كان يقيم شتاء. ويسير صيفاً، فكان من البدهي أن يصل في الصيف حيث يجد الشمس لا تغيب **﴿وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا﴾**.

ومن الجائز أن يكون قد اجتاز البحر إلى آلاسكا حتى وصل إلى الشواطىء الشمالية لبحر (هدسن) أو تجاوزها أيضاً إلى شواطىء جزيرة بافن.

أقول إن هذا جائز رغم أني استبعدت البحر منذ البداية، ولذلك فإني أهمل آلاسكا ظناً بأن الجيش لم يركب البحر، وأن ذا القرنين لم يتجاوز الرأس الشرقي. ومن الممكن أنه وصل إلى مكان في شمالي الرأس الشرقي حيث يتجاوز نهاره الشهر، وقد يصل إلى الشهرين.

﴿ثم أتبع سببا، حتى إذا بلغ بين السدّين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً، قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض..﴾.

عاد أدراجه، لأن الطريق أمامه انتهى، فقد وصل الى المشرق.

عاد في طريق غير الذي سلكه في تشريقه، إذ لو كان نفسّه لكان من الواجب أن يبلغ السدين قبل وصوله إلى المشرق، لا بعده.

وعندما تكون البلاد المنخفضة مغرباً، ومضيق بيرنغ مشرقاً، فيجب أن تكون طريقه هذه إلى الجنوب من الأولى، إذ لا يوجد في الشمال منها إلا المحيط المتجمد.

لقد عاد في طريق تتجه نحو الغرب الجنوبي، حيث نرى أنفسنا بين طريقين:

١ – إما أن يكون تتبع السفوح الجنوبية لجبال ستانوڤويْ محاذياً شواطىء بحر (أُختسْك) حتى وصل إلى سهول منجوريا الغنية التي يفصلها عن هضاب (شام) في منغوليا وغوبي الصحراوية جبل (خينغان) الكبير فيكون السد الذي بناه واقعاً في أحد الممرات التي تخترق جبال (خينغان) إلى غوبي.

لكنني أستبعد هذا الطريق، إذ لو اتبعه في عودته إلى بلاده الواقعة على الأرجح حول الشرق الأوسط، لطال عليه الأمد، ولصادف كثيراً من المشاكل ومن وعورة الجبال وثلوجها، وحينئذ قد يذكر القرآن الكريم بعضها.

أما والقرآن لم يذكر شيئاً، فمن الأرجح أنه سار في الطريق الثاني.

٢ – أن يكون تتبع سفوح ستانوڤوي الشمالية حتى سفوح (يابلونوڤي) الشمالية والتي توجد عبرها إلى الجنوب صحاري منغوليا، ثم واصل سيره ماراً بسفوح جبال آلطاي... إلخ.

حتى إذا وصل بين السدين، طلب منه القوم عمل شيء يقيهم من يأجوج ومأجوج، فبنى السد.

قبل دراسة السد ومكانه، يجب أن نأخذ فكرة واضحة عن يأجوج ومأجوج ومكانهما، مما يساعدنا في البحث:

جاء في تفسير ابن كثير: «يأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام كما ثبت في الصحيحين: «**إن الله تعالى يقول : يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: ابعث بعث النار، فيقول: وما بعث النار، فيقول: من كل ألفٍ تسعمئة وتسعٌ وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة، فحينئذ يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها، فقال: إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه، يأجوج ومأجوج**».

وجـاء فيه أيضـاً: «وقال بعض العلماء: إنما سمـي الترك تركـاً لأنهم تُرِكـوا من وراء السـد من هـذه الجهـة، وإلا فهم أقـربـاء يأجـوج ومأجـوج، ولكن كـان في أولئك بغي وفساد...». اهـ.

- وطبعاً إن سبب تسمية الترك كما مر غير صحيح-.

وجاء في المعجم الكبير للطبراني مـرفوعـاً: «إنكم تقولـون لا عدو لكم، ولا تـزالون تقاتلـون عدواً حتى تقـاتلوا يـأجوج ومأجـوج، عراض الوجـوه، صغار العيـون، صهب الشعور، من كل حدب ينسلون، كأن وجوههم المجان المطرقة».

ويورد ابن كثير نفـس الحديث مروياً عـن الإمام أحمد في مسنده وعن ابـن أبي حاتم كما يلي: «إنكم تقولـون لا عدو لكم، وإنكم لا تزالـون تقاتلون عـدواً حتى يأتي يأجوج ومأجوج[1]، عراض الوجـوه، صغار العيون، صهب الشعاف، من كـل حدب ينسلون، كأن وجوههم المجان المطرقة».

وفي القـرآن الكـريم: ﴿حتى إذا فتحت يأجـوج ومأجـوج وهم من كل حـدب ينسلون﴾.

نفهـم مما سبق:

١ - يأجـوج ومأجـوج أمتان من بنـي الإنسان، وليس كما يقـول بعضهـم بأن طـول أحدهم شبر وطول لحيته فتر..وغير هذا من الخزعبلات. وهما أمتان كبيرتان جداً.

٢ - عنـدما تفتح يأجـوج ومأجوج، أي عنـدما يغـزون العالم في مستقبل من الـزمن (وأظنه قريباً) سيكونون لكثرتهم المذهلة من كل حدب ينسلون.

٣ - لهم صفات خـاصة لا تجتمع في غيرهم، فهم عـراض الوجوه، صغـار العيون، صهب الشعور، كأن وجوههم المجان المطرقة.

---

(١) نفهم من هذا الحديث وما قبله أن مقاتلة يأجـوج ومأجوج هي آخر حرب يخوضها المسلمون وقد تكون الأخيرة بالنسبة لكل شعوب الأرض. وفي هذا معجزة إخبارية تتوضح عندما تتحقق.

٤ - موطنهم الشرق الأقصى لقوله ﷺ في حديث طويل: «... ثم تأتي طيور كأعناق البخت فتحملهم فتلقي بهم في المهبل، قالوا وأين المهبل يا رسول الله؟ قال: في أقصى الشرق.

لو فتشنا عمن تنطبق عليهم هذه الأوصاف، لما رأينا غير الشعوب الصينية، فهي تنطبق عليهم تماماً تماماً.

وأما الاسم (يأجوج ومأجوج) فهو اسم القبائل القديمة. وليس من الضروري بقاء نفس الاسم حتى الآن، فعاد وثمود، وطسم وجديس ... لم يبق لهم أثر في عصرنا. كما أنه من الجائز أن يكونوا موجودين حتى الآن باسمهم هذا.

كما نفهم من القصة بكاملها، ومن التعبير (بين السدّين) أن يأجوج ومأجوج كانوا يعيشون في أرض محاطة بالجبال كأنها السدود، وأن هناك ممراً (بين السدين) كانوا يخرجون منه..

ونفهم من قوله تعالى: ﴿إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض﴾ أن سكان هذه الأرض المغلقة فيهم شِرّة، فهم يعتمدون على الغزو والنهب والسلب، يعبرون الممر بين السدين إلى حيث الأرض الخصبة الغنية.

بناءً على هذا، علينا أن نفتش عن سد ذي القرنين بين الجبال المحيطة بمنغوليا، والتي تطل من الجانب الآخر على سهول غنية.

أما جبال ستانوفُويّ ويابلونوڤي فلا أظنها تخلو من ممرات، لكنها ستكون طويلة ووعرة بحيث يصعب على الغزاة اجتيازها باستمرار ليثيروا الفزع ويفسدوا في الأرض.

يبقى علينا أن نفتش فيما بقي من الجبال.

هناك ممر بين جبل (سايان) وجبل (تانو أُولا) يشكل الحوض الأعلى لنهر (ينيساي) ويصل بين منغوليا في الداخل وسيبريا الشرقية في الخارج.

كما يمكن أن يوجد ممر بين (تانو أولا) وبين جبال آلطاي.

ويوجد في جبال آلطاي ممر (أولانا دابا) يصل بين منغوليا وسيبريا الغربية.

كما أن فجوة واسعة عرضها الكثير من الكيلومترات، تقع بين جبال (آلطاي) وجبل (تارباغـاتاي)، تصل بين شمالي زونغاريا في منغوليـا وبين حوض نهر (إيريتش) الأعلى. وأستبعد أن يكون السد في هذا المكان بالذات.

ثم هنـاك بوابـة زونغاريـا التي تقع بين جبل تاربـاغاتـاي في الشمال وجبال (تيـان شان) في الجنوب، وتصل بين زونغاريا في الشرق، وقازاقستان في الغرب.

وأخيراً ممـر يصل بين سينكيـانغ (تكـلامكـان) التـي هي جـزء من منغـوليـا، وبين أوزبكستان، ويقع بين جبال تيان شان في الشمال وجبال (بامير) في الجنوب.

وإذا علمنا أن اللغة التركية واللغات الصينية من عـائلة واحدة هي الطورانية علمنا أن الأتـراك هم فئة من يأجـوج ومأجـوج نزحـوا قبل بنـاء السد من الـداخل إلى الخارج ليكونوا بلاد تركستان. ومن الممكن العكس أي إن يأجوج ومأجوج هـم الذين نزحوا من الغرب إلى الشرق.

إذا علمنا ذلك، فلنا أن نظن أن سـد ذي القرنين موجود في أحد الممرّين: إمـا بوابة زونغاريا، أو الممر الذي يصل بين سينكيانغ وأوزبكستان.

كما لنا أن نظن، أو نرجح، أن مكانه في أحد ممرات جبل (تانو أُولا) ولعله في أول ممر فيه. إذ أستشف من قوله تعالى: ﴿**حتى إذا بلغ بين السدين**﴾ أنه لم يمر على (بين سدين) قبل هذا.

ويقول القرآن الكريم: ﴿... **وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولا...**﴾.

جاء في تفسير ذلـك أن لغتهم كانت غـريبة بحيث لا يفهمـون على ذي القرنين ولا يفهم عليهم.

ينطبق هـذا القول على الشعـوب التي كانت تحيط بمنغـوليا، فلغـاتهم من العائلـة الطورانيـة التي لم تكن قد ابتعدت عن منـاطقها بعد، شأن اللغـات الأخرى. وعلى ذلك كان من الصعب التفاهم معهم أو وجود ترجمان مباشر.

وهذا يـؤكد لنـا أن ذا القرنين لم يكن من بلاد مجاورة لهم، كبـلاد فارس مثـلاً، إذ لو

كان منها لوجد الترجمان المباشر.

وهذا يعني أن كورش الفارسي الذي كان يقال إنه انحدر من هضاب بامير، ليس هو ذا القرنين.

من ممر بين الجبال الوعرة المسالك التي تفصل صحاري منغوليا عن هؤلاء القوم، كانت قبائل يأجوج ومأجوج تعبر إليهم للتجارة حيناً، وللنهب والسلب حيناً آخر.

وقد كانت يأجوج ومأجوج تعيش عيشة بداوة على الأرجح، فكانوا -كعادة البدو- كثيراً ما يخرجون جماعات كبيرة أو صغيرة، عبر الممر، ينهبون ويسلبون ويقتلون ويسْبُون، ثم يعودون قبل أن يتهيأ لهم الناس.

من المنطق أن نظن أن هؤلاء القوم **﴿الذين لا يكادون يفقهون قولا﴾** قد جربوا مرات عديدة بناء سد في ذلك الممر فكانت يأجوج ومأجوج تهدمه، حتى يئسوا من جدوى ذلك.

ولما وصل إليهم ذو القرنين، شكوا إليه أمرهم، ولعلهم أخبروه بعدم جدوى السدود الحجرية (نفهم هذا من بنائه السد بالحديد والنحاس من جهة، ومن قوله تعالى: **﴿فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا﴾**. التي نستشف منها أنهم كانوا ينقبون السدود وجربوا في هذا فلم يفلحوا.

أقام لهم ذو القرنين سداً من نوع جديد، قِطَع الحديد صبَّ عليها النحاس المذاب بعد أن ارتفعت حتى أصبح ارتفاعها مساوياً للجبلين.

جربت يأجوج ومأجوج عندما اصطدمت به أن يتخلصوا منه، فما استطاعوا أن يظهروه، لعلوه، وما استطاعوا له نقبا، لمتانته.

من البدهي أن بناء السد كان في أضيق مكان في هذا الممر، بين جدارين جبليين يرتفعان عمودياً أو شبه عمودي على جانبي الممر، ويتسلسل الجبلان على امتدادهما عاليين وعرين متعذري الاجتياز أو صعبيه:

قد يقول قائل: من أين أتى بكل هذا الحديد وذاك النحاس؟.

- إن نظرة واحدة نلقيها على خارطة توزع المعادن في العالم، ترينا أن القوس الواصل بين سفوح جبل (سايان) الشمالية، وبحيرة بلخاش، هي من أغنى مناطق العالم بالحديد والنحاس.

ومن البدهي أنها كانت كذلك في عصر ذي القرنين، إن لم يكن حديدها ونحاسها في ذلك الوقت أسهل حصولاً منهما الآن بكثير.

تكون الأرض غالباً صخرية في أي فجوة ضيقة بين جبلين.

والجبال الالتوائية كلسية في معظمها، وجبال تلك المناطق التوائية، إذن فقد بني السد على صخر كلسي.

لذلك فهو سيغور في الأرض لثقله العظيم الناجم عن ثقل الحديد والنحاس وكبر كميتهما، لكنه سيغور ببطء لصلابة القاعدة الكلسية التي يرتكز عليها، والحديد والنحاس يتآكلان مع الزمن بتفاعلهما مع العوامل الطبيعية، فيهترىء السد شيئاً فشيئاً.

كما إن الأتربة تتجمع حوله مع الزمن، تعلوها الحشائش، وقد تعلوها الأشجار.

هذه العوامل الثلاث تخفي، شيئاً فشيئاً، معالم السد، ومن الجائز أن يكون الناس قد عادوا إلى الممر طريقاً بين السهلين، يمرون فوق السد وهم يحسبونه مرتفعاً عادياً من الأرض.

لقد كان، في زمن الرسول ﷺ، قائماً فوق الأرض، فقد جاء في الصحيحين وغيرهما: «استيقظ ﷺ من نومه وهو محمر الوجه وهو يقول: لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا». وحلق. (أي عمل حلقة بسبابته وإبهامه).

وطبعاً، هذا الذي فتح من الردم كان بسبب الاهتراء.

- ولو آتاني الله سبباً لأتبعت سبباً أفتش عنه، ففي العثور عليه نصر للإسلام عظيم وفتح في التاريخ مبين.

ومن الجائز أن يكون لبنائه أثر على قبائل يأجوج ومأجوج المنغولية، بعد أن سدت

في وجهها أبواب العمل والتجارة والنهب والسلب، فأخذ أفرادها ينحدرون نحو الشرق، أو الشرق الجنوبي، شيئاً فشيئاً، حتى نضجت فكرة الهجرة فأخذوا ينحدرون جماعات جماعات.

من هو؟ ومن أين هو ذو القرنين؟

سؤالان لا نستطيع الإجابة عنهما إلا ظناً.

- يقول العقاد في كتابه (التفكير فريضة إسلامية) بأنه من الجائز أن يكون من (الذوين) ملوك اليمن، ويستند في ذلك إلى اسمه. لكنني استبعد ذلك -كما قلت سابقاً- لأن قبول هذا الرأي يفرض علينا أن نفتش عن العين الحمئة في شواطىء إفريقية الغربية، حيث لا توجد.

ويقول أيضاً بأنه من الجائز أن يكون من ملوك العراق الأقدمين الذين كانوا يلبسون تاجاً له قرنان أحدهما أمامي والآخر خلفي. وأقول إنّ هذا جائز إن كان هؤلاء الملوك موجودين قبل الألف الثالثة قبل المسيح، أو قبل انضمام العراق إلى المملكة الفارسية. فمن غير الجائز أن يكون من فارس، إذ لو كان منها لما وجد صعوبة في التفاهم مع جيران فارس المحيطين بمنغوليا.

لكن من الجائز أن يكون من سورية، أو الأناضول، أو شرقي أوروبا.

وعندما أورد شرقي أوروبا فلا أعني مطلقاً الإسكندر بن فيليب المقدوني، للأسباب التالية:

١ - وصل ذو القرنين إلى مغرب الشمس، بينما لم يخرج الإسكندر باتجاه الغرب من بلاده.

٢ - وصل ذو القرنين إلى مطلع الشمس، بينما لم يتجاوز الإسكندر في تشريقه طشقند في أوزبكستان، ونهر (جهيلم) أحد روافد الهندوس في الهند.

٣ - الطريق التي أخذها ذو القرنين من المغرب إلى المشرق تمر شمالي البحر الأسود، بينما أخذ الاسكندر طريق سورية -مصر - سورية - العراق - فارس - تركستان- ثم

الهند حتى نهر جهيلم فقط حيث انحدر فيه إلى مصب الهندوس في المحيط الهندي، ثم قفل راجعاً إلى بابل حيث مات هناك.

٤ - كان ذو القرنين يحمل رسالة إيمان بالله وتوحيد له بلّغها حيث حل، بينما لا نرى أثراً يدل على أن الإسكندر كان كذلك.

- وما يقال في الإسكندر يمكن أن يقال ما يشبهه في كورش الفارسي.

- وإني أظن أنه أحد الملوك الأوائل في بلد كان ملوكها يحملون لقب (ذي القرنين)، كما كانت فارس تلقب ملوكها بكسرى، وروما بقيصر، ومصر بفرعون.

بعد ذكر بناء السد، يرد في القرآن الكريم على لسان ذي القرنين قوله: ﴿**هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء...**﴾ أي مساوياً للأرض، فإذا ربطنا هذه الآية مع حديث الرسول ﷺ الذي أوردناه قبل قليل: «**لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من سد يأجوج ومأجوج مثل هذا**» وحلّق. والذي نفهم منه أنه عندما يصبح سد يأجوج ومأجوج مفتوحاً (دكاء) سيغزون العالم.

وبما أننا نعلم الآن أن السد لا يقف في وجوههم، إذ أن الجو والبحر أسرع وأيسر، والطرقات البرية كثيرة.

إذا ربطنا كل هذا معاً نستطيع أن نفهم أن العلاقة بين السد والغزو علاقة زمنية، أي أن يأجوج ومأجوج (الصينيين) سيخرجون للسيطرة على العالم في الزمن الذي يصبح فيه السد دكاء.

وقد أصبح كذلك،
فمتى سيخرجون؟.
أظن أن الأمر قريب.

إن أحد الأناشيد الوطنية للصين الشعبية - وأظنه النشيد الرسمي - يبدأ بالجملة التالية:

«من النهر الأصفر إلى البحر الأبيض[١]...»

---

(١) أنشدتها على مسرح معرض دمشق الدولي سنة ١٩٥٨ فرقة فنية صينية زارت الشرق الأوسط.

لننظر إلى القصة القرآنية نظرة إجمالية ثم تفصيلية، ولنعرضها على الواقع الجغرافي، نر التطابق تاماً كاملاً. فيتبادر السؤال التالي:

هل كان في زمن الرسول ﷺ جغرافيون يعرفون حدود العالم القديم غرباً وشرقاً؟ ويعرفون ماذا يوجد هنا وماذا يوجد هناك؟.

لو كانوا موجودين لشاع علمهم في بعض الناس، ولذكره فلاسفتهم، ولعرف بعض الصحابة ذلك، كما عرفه محمد ﷺ، ولعرفه من بعدهم بعض التابعين، ثم لعرفه المفسرون.

أما وإن أحداً من المفسرين لم يستطع أن يشرح الآيات حسب واقعها الحقيقي! كما أننا لا نقرأ في كتب الأمم الأخرى شيئاً من هذا الواقع! فهذا يدل على أن الناس كلهم، عالمهم وجاهلهم، كانوا يجهلون جغرافية العالم القديم، إلا بعض التخمينات التي لم تكن معالم القصة منها!.

فكيف استطاع محمد ﷺ أن يورد تلك الصورة الحقيقية لجزء من جغرافية العالم القديم؟. هل هناك تفسير آخر إلا أنه وحي من لدن عليم خبير.

القسم الرابع

إخباره ﷺ عمّا سيكون بَعدَه من أحداثٍ اجتماعيةٍ وطبيعيّةٍ، ما تحقق منها وَانتهىٰ أمره



الفِتنَـــة الأولـــى!

مقتل عمر بن الخطاب

في الصحيحين وغيرهما: «... عن حـذيفة قـال: كنـا عند عمـر فقـال: أيكم يحفظ حـديث رسول الله ﷺ في الفتنـة كما قـال؟ قال: قلـت: أنا، قـال: إنك لجريء وكيف؟ قال: قلت: سمعت رسول الله ﷺ يقـول: فتنة الرجل في أهله وماله ونفسـه وولده وجاره يكفرها الصيام والصـدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فقـال عمر: ليس هذا أريد إنما أريد التي تموج كموج البحر، قـال فقلت: مالك ولها يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها بـاباً مغلقـاً، قال: أفيكسر البـاب أم يفتح؟ قـال: لا بل يكسر، قال: ذلك أحـرى أن لا يغلق أبـداً. قال (راوي لحديث): فقلنـا لحذيفة: هل كان عمـر يعلم مَن البـاب؟ قال: نعم كما يعلم أن دون غد الليلة، إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط، (قال راوي الحديث) فهبنا أن نسأل حذيفة مَن الباب فقلنا لمسروق سله، فسأله فقال: عمر.

لا أرى بأسـاً من توضيح النقـاط الأساسيـة في هذا الحديث -رغم وضـوحه- فقـد سمع حذيفة من رسول الله ﷺ أن دون الفتنة التي تموج كمـوج البحر باباً مغلقاً لا تظهر إلا عندما يكسر، وأن هذا الباب هو عمر بن الخطاب، وكَسْره قَتْله.

ولقد حدث هـذا! قُتل عمر بن الخطاب، فكُسر الباب المغلـق دون الفتنة، فظهرت تموج كموج البحر ولم يغلق الباب دونها (حتى الآن).

صلى الله عليك يا رسول الله، كيف عرفت هذا؟

هل هناك تفسير غير أنه وحي يوحى؟!

اللهم إني آمنت بك وبقرآنك ونبيك.

اللهم إني آمنت أن ما جاء به نبيك هو الحق، وأن ما سواه هو الباطل.

مقتــل عثمــان

في البخاري وغيره، عن أبي موسى الأشعري في حديث طويل: «... ثم جاء عثمان **فقلت: كما أنت حتى أستأذن لك، فقال النبي ﷺ: ائذن له وبشره بالجنة معها بلاء يصيبه...**».

ألخص فيما يلي البلاء الذي أصاب عثمان في نقاطٍ أنقلها من تواريخ (ابن خياط والطبري والمسعودي).

١ – اجتراء الناس عليه:

عن عامر بن سعد، قال: كان أول من اجترأ على عثمان بالنطق السيّئ جبلة بن عمرو الساعدي، مرّ به عثمان وهو جالس في ندي قومه، وفي يد جبلة بن عمرو جامعة (أي غل)، فلما مر عثمان سلّم، فرد القوم، فقال جبلة: لم تردون على رجل فعل كذا وكذا! قال: ثم أقبل على عثمان، فقال: والله لأطرحن هذه الجامعة في عنقك أو لتتركن بطانتك هذه ... قال: فانصرف عثمان، فما زال الناس مجترئين عليه إلى هذا اليوم.

٢ – تجاوُز اجتراءِ الناس عليه إلى حد إنزاله عن المنبر وضربه بالحصباء حتى أغشي عليه.

٣ – تجمُّعُ الناس عليه من مصر والكوفة والبصرة وتهديده وشتمه.

٤ – حصارُ الناس له في بيته أربعين يوماً أو تزيد حتى بلغ به العطش مبلغ العطب فأغاثة علي بن أبي طالب بقرب الماء.

٥ – حرقُ بيته بالشعل تنضح بالنفط.

٦ – قتلُه وهو جالس يقرأ القرآن.

ومما يزيد في البلاء، أن الغموض كان يشمل كل تلك الحوادث؟!.

– فقد أُرسلت كتب إلى الأمصار بالتحريض على عثمان باسم علي، وأقسم عليٌّ أن لا علم له بها؟!.

– وأُرسل مثلها باسم عائشة ، وأقسمت أن لا علم لها بها؟!.

- وأُرسل كتـاب بـاسم عثمان نفسـه وبخاتمه فيـه أوامـر بـالقتل والصلب والنفي، وأقسم عثمان ألاّ علم له به؟!.

ومن الطبيعي أن الـذي زور خـاتم عثمان مـرة قـد استعمل هذا التـزويـر أكثـر من مرة؟!.

هذا موجز عن البلاء الذي أصاب عثمان -رضي الله عنه-.
فكيف عرف الرسول ﷺ ذلك؟!
هل هناك احتمال آخر غير أنه وحي من لدن عليم خبير؟.

تقاتُل المسلمين مع بعضهم

في الصحيحين وغيرهما: «... **إن النبي ﷺ أشرف على أُطُم من آطام المدينـة ثم قال: هل ترون ما أرى؟ إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر**».

وفي الصحيحين وغيرهما أيضـاً: «... **ستكـون فتن القـاعـد فيهـا خير من القـائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، ومن وجد فيها ملجأ فليعُذْبه**».

- لا أظن أحداً ممن اطلـع على التاريخ الإسلامي اطـلاعاً بسيطـاً يجهل هذه الفتن التي ما تركت بيتاً إلا وتركت فيه لها أثراً، إلا من رحم ربك.

ومن هذه الفتن مقتل عثمان، ومنهـا وقعة الجمل، ومنها حرب صِفِّين، ومنهـا خروج الخوارج، ومنها ومنها ...

ونـرى كذلـك أن الغموض يكتنف حـوادثهـا، وخـاصة الفـرق التي نتجت عنهـا والعقائد التي تسربت إلى هذه الفرق، والتي نرى أصولها في التوراة والتلمود.

فنسأل: كيف عرف محمد ﷺ ذلك؟!
هل هناك تفسير غير أنه وحي من لدن عليم خبير؟.

كســرى وقيـصــر

في صحيح مسلم وغيره: «**إذا هلك كسرى فـلا كسرى بعـده، وإذا هلك قيصر فـلا**

قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله تبارك وتعالى».

وفي صحيح مسلم ومسند ابن حنبل وغيرهما: «**تقاتلون جزيرة العرب فيفتحها الله لكم، ثم تقاتلون فارس فيفتحها الله لكم، ثم تقاتلون الروم فيفتحها الله لكم، ثم تقاتلون الدجال فيفتحه الله لكم..**».

-اللفظ لابن حنبل-

وهذا ما كان!

فقد فتحت جزيرة العرب!

وفتحت فارس!

وهلك كسرى، ولا كسرى بعده[1]، واستولى المسلمون على كنوزه وأنفقوها في نشر الإسلام في المشرق.

وهلك قيصر القسطنطينية، ولا قيصر بعده، واستولى المسلمون على كنوزه وأنفقوها في نشر الإسلام في المغرب.

وبقيت فتنة الدجال التي نعيشها الآن، والتي سننتصر بها إن شاء الله.

فنسأل:

١ - كيف عرف محمد ﷺ أن جزيرة العرب ستفتح للمسلمين؟.
٢ - كيف عرف أن فارس ستفتح، وأن فتحها سيكون بعد فتح جزيرة العرب؟
٣ - كيف عرف ﷺ أن الروم ستفتح وأن فتحها سيكون بعد فارس؟
٤ - كيف عرف أنه بهلاك كسرى على يد المسلمين سوف تنتهي دولة الأكاسرة في التاريخ؟
٥ - كيف عرف أنه بهلاك قيصر القسطنطينية ستنتهي دولة القياصرة في التاريخ؟.

هل هناك احتمال آخر غير أنه وحي من لدن عليم خبير؟!

اللهم اني آمنت بك وبقرآنك ونبيك.

---

(١) أراد الشاه محمد رضا بهلوي أن يعيدها كسروية فقُضي عليه وعلى ملكه. وهذا تحقيق لقوله ﷺ «**فلا كسرىٰ بعده**» وهي معجزة نبوية مرت أمام أعيننا.

فتـــح مصـــــر

في الجامع الصغير، عن الطبراني والحاكم:

«إذا فتحت مصر فاستوصوا بالقبط خيراً، فإن لهم ذمة ورحمة».

وقد فتحت مصر.

فكيف عرف ذلك؟!

الحروب الصليبية

في صحيح مسلم ومُسند ابن حنبل وغيرهما: **«تقاتلون جزيرة العرب فيفتحها الله لكم، ثم تقاتلون فارس فيفتحها الله لكم، ثم تقاتلون الروم فيفتحها الله لكم، ثم تقاتلون الدجال فيفتحه الله لكم»**.

-اللفظ لابن حنبل (حديث -١٥٤٠)-

وفي صحيح مسلم وغيره عن ابن مسعود: «... **ثم قال بيده هكذا، ونحاها نحو الشام، فقال: عدو يجتمعون لأهل الإسلام ويجمع لهم أهل الإسلام، قلت: الروم تعني؟ قال نعم...**».

وفي سنن ابن ماجه: «**تكون بينكم وبين بني الأصفر هدنة، فيغدرون بكم، فيسيرون إليكم في ثمانين غاية...**».

(بنو الأصفر هم الروم. وكانت كلمة الروم تطلق على سكان الأناضول وأوروبا كلهم!)

نلاحظ في هذه الأحاديث ما يلي:

١ - توقيت القتال مع الروم بعد الفرس في الحديث الأول!

٢ - حصر تجمعهم في بلاد الشام في الحديث الثاني!

٣ - مجيئهم دون إثارة لهم من قبل المسلمين، وكثرتهم في الحديث الثالث!

٤ - يفتحهم الله، أي ينتصر عليهم المسلمون، في الحديث الأول!

- لا أظن أحداً لا يعرف الأحداث الكبرى -على الأقل- في الحروب الصليبية،

وإن كان يجهلها فما عليه إلا أن يراجع أي كتاب يبحث في تاريخ الإسلام أو في تاريخ أي أمة أوروبية ليرى أن الأحاديث قد تحققت تحققاً تاماً!.

فقد كان القتال معهم بعد الفرس، وجاؤوا دون استثارة لهم، وتجمعوا في بلاد الشام من إنطاكية في الشمال حتى الكرك في الجنوب، ثم انتصر عليهم المسلمون وطردوهم.

فكيف عرف محمد ﷺ ذلك؟!.
هل هناك احتمال آخر غير أنه وحي من لدن عليم خبير؟

التتـــــار

في مسلم وابن ماجة والترمذي وغيرها: «**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون الترك، قوماً وجوههم كالمجان المطرقة، يلبسون الشعر ويمشون في الشعر**».
-اللفظ لمسلم-

إن قوله (لا تقوم الساعة حتى...) ليس فيه دلالة على أن الساعة ستقوم عند وقوع القتال أو بعده مباشرة.

بل الدلالة فيه هي التأكيد على أن هذا الأمر سيحدث حتماً حتى لو تأخر حدوثه، فلا تقوم الساعة حتى يحدث.

وقد كان هذا!

فحروب التتار بقيادة جنكيز خان، ثم منكو خان الذي كان أخوه هولاكو على رأس الجيوش المتحركة، أشهر من أن تعرّف.

وقد دخل هؤلاء الأتراك في الإسلام فيما بعد، فكانوا له الحصن الحصين ونصر الله بهم دينه في القسم الشمالي من آسيا.

ونورد السؤال المعهود:
كيف عرف محمد ﷺ ذلك؟!
هل هناك احتمال آخر غير أنه وحي من لدن عليم خبير؟.

نصر الإسلام على يد الموالي

في سنن ابن ماجه عن أبي هريرة: «**إذا وقعت الملاحم، بعث الله بعثاً من الموالي، هم أكرم العرب فرساً وأجوده سلاحاً، يؤيد الله بهم الدين**».

الموالي هم العبيد المعتقون. أو غير العرب الذين أسلموا على يد مسلمين سابقين من العرب وانتموا إليهم بالولاء.

-عندما وقعت الملاحم، الصليبية والتتارية، فعلى يد من كان النصر؟.

- ألم يكن على يد الأكراد الأيوبيين، ثم يد المماليك الأتراك الذين طردوا التتار وقضوا على آخر معاقل الصليبيين؟.

أو لم يكن المماليك الأتراك من العبيد المعتقين؟!

أو لم يكونوا، هم والأكراد الأيوبيين، ممن دخل في الإسلام على يد مسلمين من العرب؟!

وهل يمكن أن يعرف محمد ﷺ ذلك لو لم يكن وحياً من لدن عليم خبير؟!

اللهم إني آمنت بك وبقرآنك ونبيك.

اللهم إني آمنت بأن ما جاء به نبيك هو الحق، وأن ما سواه هو الباطل.

فتح القسطنطينية

في صحيح مسلم وغيره: «**إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله تبارك وتعالى**».

وفي مسند ابن حنبل:

سئل ﷺ: أي المدينتين تفتح أولا؟ أقسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: مدينة هرقل تفتح أولاً -يعني القسطنطينية-.

وقد فتحت، وأضحت حاضرة الإسلام!

فكيف عرف محمد ﷺ ذلك؟

زوال الجبال عن أماكنها

أخرج الطبراني في مسنده: «**لا تقوم الساعة حتى تزول الجبال عن أماكنها، وترون الأمور العظام التي لم تكونوا ترونها**».

إن قوله (لا تقوم الساعة حتى...) ليس فيه دلالة على أن الساعة ستقوم عند زوال الجبال.

بل الدلالة فيه هي التأكيد على أن هذا الأمر سيحدث حتماً حتى ولو تأخر حدوثه، فلا تقوم الساعة حتى يحدث.

وقد زالت جبال عن أماكنها.

فقد نقل السيوطي في تاريخ الخلفاء، وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة أنه في سنة ٢٤٢هـ في خلافة المتوكل: «سار جبل باليمن عليه مزارع لأهله حتى أتى مزارع آخرين...».

ونقلا أيضاً في حوادث سنة ٣٠٠ هـ في خلافة المقتدر: «ساخ جبل بالدِينَوَر في الأرض وخرج من تحته ماء كثير غرق القرى. وفيها وقعت قطعة عظيمة من جبل لبنان في البحر...».

هذا مما سجله التاريخ في البلاد الإسلامية.

ونرى في أيامنا جبالاً تزول بواسطة الإنسان، فمقاطع الرمل والحصا المستعمل في البناء قضت ؟، أو هي في طريقها للقضاء على جبال كاملة، وكذلك تفعل بعض المشاريع الكبرى.

وستزول جبال، وسترتفع أخرى إما بأسباب طبيعية، أو بأسباب من صنع الإنسان!

إن الإخبار بمثل هذه الأشياء كان غريباً جداً وعجيباً جداً في زمن الرسول ﷺ، بل وفي زمننا أيضاً بالنسبة لكثير من الناس!.

فكيف عرف محمد ﷺ ذلك؟

هل هناك احتمال آخر غير أنه وحي من لدن عليم خبير؟.

بركان الحجاز

في البخاري ومسلم: «**لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى**».

ويروى هـذا الحديث في غيرهما على النحـو التالي: «**لا تقوم السـاعة حتى يسيل واد من أودية الحجاز بالنار تضيء أعناق الإبل ببصرى**».

أعيد فأكـرر هنا أيضـاً أن قولـه: (لا تقوم السـاعة حتى...) ليس فيـه دلالة على أن الساعة ستقوم عندما تخرج النار.

بل الـدلالـة فيـه هي التأكيـد على أن هذا الأمـر سيحـدث حتماً، حتى ولـو تأخـر حدوثه، فلا تقوم الساعة حتى يحدث.

وقد كان ذلك.

وخرجت النار من أرض الحجاز، وسال بها واد من أوديتها!

فقد ثار بـركان في الثالث من جمادى الآخرة سنة ٦٥٤هـــ. أنقل وصفه من (النجوم الزاهرة) لابن تغري بردي. يقول:

«وأما أمر النار التي ظهرت بالحجاز. قـال قاضي المدينة سنان الحسيني: لما كان ليلة الأربعـاء ثالث جمادى الآخـرة سنة أربـع وخمسين وستمائة، ظهر بـا لمدينة الشريفـة دوي عظيم، ثم زلزلـة عظيمة رجفت منها المدينـة والحيطان والسقوف سـاعة بعد سـاعة، إلى يوم الجمعة خـامس الشهر المذكور ظهرت نار عظيمـة، وقد سالت أودية منهـا بالنار إلى وادي شظـا حيث يسيل الماء. وقد سـدت سيل شظا ومـا عاد يسيل... (ثم قـال): والله لقـد طلعنـا جماعـة نبصرهـا فإذا الجبـال تسيل نيرانـاً، وقـد سـدت الحرة طـريق الحاج العراقي، وسـارت إلى أن وصلت إلى الحرة فوقفت بعدما أشفقنـا أن تجيء إلينا، ورجعت تسير في الشرق، يخرج من وسطهـا مهود وجبال نيران تأكـل الحجارة ... وقد كتبـت هذا الكتاب يوم خـامس رجب سنة أربع وخمسين والنار في زيادة مـا تغيرت. وقد عادت إلى الحرة وفي قريظة طريق الحاج العراقي.

وقال غيره بعدما ساق من أمر النار المذكورة عجائباً نحواً مما ذكرناه وأعظم إلى أن قال: وقد سال من هذه النار واد يكون مقداره أربعة فراسخ وعرضه أربعة أميال وعمقه قامة ونصف ، وهي تجري على وجه الأرض، وتخرج منها أمهاد وجبال صغار تسير على الأرض، وهو صخر يذوب حتى يبقى مثل الآنك (الرصاص) فإذا جمد صار أسود، وقبل الجمود لونه أحمر، وقد حصل بسبب هذه النار إقلاع عن المعاصي...».

ثم يذكر ابن تغري بردي ما كتبه قطب الدين في الذيل على الروضتين إلى أن يقول: «وأقامت هذه النار أكثر من شهرين».

-انتهى ما أورده ابن تغري بردي-

أما مكان ظهورها بالضبط فيحدده القسطلاني. يقول:

«ظهرت في جهة المشرق على مرحلة متوسطة من المدينة في موضع يقال له (قاع الهيلي) قرب مساكن قريظة، بينها وبين (أحيلين)، ثم امتدت آخذة في المشرق إلى قريب من أحيلين. وتقدمها زلازل مهولة أياماً...». اهـ.

وأخبار هذا البركان مستفيضة في كتب التواريخ لمن يريد استقصاءها.

وهنا نسأل: هل قرأ أحد في الأدب الجاهلي، في شعرهم أو نثرهم، أو في آداب صدر الإسلام، شيئاً عن نار تخرج من الأرض وتسيل في الوديان؟!.

أولا نتصور أن هذا الحديث كان مثار هزء وسخرية بين غير المسلمين من قريش ومن حولها.

فكيف عرف محمد ﷺ ذلك؟!
وكيف عرف أن ناراً ستخرج من أرض الحجاز بالذات؟!.
هل يمكن تفسير معرفته هذه إلا أنها وحي من عليم خبير؟.
﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾.

القسم الخامس

الأحداثُ الّتي نَعيشهَا الآن وإخباره ﷺ بها



فِتنَةُ الدَّجّال

في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمر عنه ﷺ: «**تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم حتى ليقول الحجر يا مسلم هذا يهودي ورائي...**».

وفيه أيضاً عن أبي هريرة قال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبيء اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي...**».

وفي المعجم الكبير للطبراني: «**لتقاتلن المشركين حتى يقاتل بقيتكم الدجال على نهر الأردن، أنتم شرقيه وهم غربيه...**».

وفي سنن ابن ماجه: «**... فإذا انصرف قال عيسى عليه السلام: افتحوا الباب، ووراءه الدجال معه سبعون ألف يهودي ... ويقول عيسى عليه السلام: إن لي فيك ضربة لن تسبقني بها، فيدركه عند باب اللد الشرقي فيقتله، فيهزم الله اليهود، فلا يبقى شيء مما خلق الله يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء...**».

وفي ابن ماجه وغيره، عن أبي أمامة الباهلي: «**إنه لم تكن فتنة في الأرض، منذ ذرأ الله ذرية آدم، أعظم من فتنة الدجال، وإن الله لم يبعث نبياً إلا حذر أمته الدجال. وأنا آخر الأنبياء، وأنتم آخر الأمم، وهو خارج فيكم لا محالة ... وإنه يخرج من خلة بين الشام والعراق، فيعيث يميناً ويعيث شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا...**».

ويروي النواس بن سمعان الكلابي نفس المعنى بألفاظ أخر، يورده مسلم والترمذي وابن ماجه وغيرهم.

وفي صحيح مسلم ومسند ابن حنبل وسنن ابن ماجه وغيرها: «**وتقاتلون جزيرة**

العرب فيفتحها الله، وتقاتلون فارس فيفتحها الله، وتقاتلون الدجال فيفتحه الله».

- منذ عصر الرسول ﷺ، حتى قبيل منتصف القرن العشرين، كان باستطاعة قراء هذه الأحاديث أن يتساءلوا متعجبين: كيف يقاتل المسلمون جماعة غير موجودة؟ فليس في فلسطين يهود يستطيعون قتالاً، ولا في غيرها، وكان باستطاعة أمثلهم طريقة أن يقول: هذا من أنباء الغيب.

ولعل غير المؤمنين بالإسلام كانوا يقرؤونها أو يسمعونها وهم يستهزئون.

أما الآن، فقد تجمع اليهود في فلسطين، وما زالوا يتجمعون حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا.

والأحداث الغامضة، مهما بلغ الإتقان في إخراج مسرحياتها، لن تحول دون المعركة الفاصلة، التي يخبرنا الصادق المصدق أن النصر فيها سيكون للمسلمين، وستنتهي بهذا النصر فتنة المسيح الدجال، تلك الأسطورة التي يرددها اليهود والمهودون عن شعب الله المختار الذي جعل الأرض وما عليها ملكاً له.

لقد كان اليهود في التاريخ ينتظرون ظهور مسيحهم المنتظر، الذي تنبئهم توراتهم عنه في عشرات الإصحاحات.

كانوا ينتظرونه بين جيل وآخر.

أما الآن، فهم ينتظرونه بين سنة وأخرى، أو بين شهر وآخر.

ومسيحهم المنتظر هذا، هو المسيح الدجال الذي أخبرنا ﷺ عنه، وسماه الدجال لأن الدجل، والكذب، والجاسوسية بأنواعها، وتمثيلياتها على جميع المستويات، حتى أعلاها، وغيرها وغيرها من الدجل، هي الوسائل التي توصله ويهود لربح الجولات الأولى فيعيث يميناً ويعيث شمالاً. ويخدع بأساليبه وما يأتيه من الشبهات أكثر الناس إلا من رحم ربك.

والنصر بعد ذلك للمسلمين إن شاء الله.

وبعد:

- كيف عرف محمد ﷺ أن يهود سيجتمعون في فلسطين ويؤسسون دولة تستطيع أن تحارب؟!

- وكيف عرف أن الوسائل التي يتجمعون بها هي وسائل دجلية؟!
- وكيف عرف أن هذا سيكون بعد الحروب الصليبية وبعد فتح القسطنطينية؟!
- وكيف عرف أن الدجال ويهود معه سيعيث يميناً وشمالاً؟!
- كيف عرف كل هذا وغيره مما لا مجال لذكره؟؟!!.
- هل هناك تفسير آخر إلا أنه وحي من لدن عليم خبير؟!

ويجب أن نعلم أن وسائل الدجال وأساليبه لا يقوم بها بنفسه، بل بأعوانه السريين المنتشرين هنا وهناك.

زينة الأرض وقدرة الإنسان عليها

﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا﴾[1].

يهمنا من هذه الآية هنا قوله تعالى: **﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا...﴾**.

تفهمنا هذه الكلمات بوضوح تام أن الأرض (كل الأرض) ستأخذ زخرفها وستتزين، فلا يبقى فيها مكان إلا وتحوله يد التجميل إلى صورة بديعة مزخرفة مزينة.

ومن البدهي -حسب سنة الله في خلقه- أن هذا لن يتم في يوم واحد، بل يبدأ صغيراً، ثم ينمو وينمو حتى يشمل الأرض كلها، وتتحقق الآية.

وبنظرة بسيطة على الأرض نراها قطعت شوطاً واسعاً في الزخرف والزينة، وهي

---

(١) يونس (٢٤).

تسير نحو استكمالها سيراً حثيثاً.

وسيظن أهلها أنهم قادرون عليها.

ولنلاحظ أن تعبير (قـادرون) لم تطلق في غير هـذا الموضع من القـرآن إلا صفـة لله تعالى، عـدا موضـع واحد هـو «وغدوا على حرد قـادرين» الـذي يدل على قـدرة أغنياء أقوياء ملحدين قساة على ألا يعطوا سائلاً مسكيناً شيئاً.

وقدرة الله تعالى لا يحدها حد، وكذلك قـدرة الأغنياء الأقوياء الملحدين القساة على عدم إعطاء السائل المسكين شيئاً لا يحدها حد في هذه الدنيا.

ومن هنا ندرك المدى الواسع الذي تـدل عليه كلمة (قادرون عليها). فسيكون أهل الأرض على درجة من العلم والقوة والإمكانات المادية يظنون معها أن لهم القدرة المطلقة على الأرض.

ولو ألقينـا نظرة على أهلهـا، لرأينـاهم قطعوا شـوطاً واسعـاً في القدرة عليهـا، وهم يسيرون نحو استكمال هذه القدرة سيراً حثيثاً.

هذه آية من القـرآن الكريم، تخبرنا بإيجاز ودقة ووضوح عن حـالة الأرض وأهلها في أزمنة الحياة الأخيرة.

وقد سارت أشواطاً بعيدة في تحققها.

وكل إنسان في هـذه الدنيا اليـوم هو على يقين كـامل بأن معطياتها ستتحقق بشكل كامل عاجلاً أو آجلاً.

فهل يمكن أن يكون محمد ﷺ عرف ذلك من تلقاء نفسه؟!
أليس هذا مستحيلاً؟!
وهل هناك تفسير آخر إلا أنها وحي من لدن عليم خبير؟!
اللهم إني آمنت بك وبقرآنك ونبيك.

البنيـــــان

في البخاري: «**لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان ... وحتى يتطاول الناس في البنيان...**».

وفي مسلم وغيره: إن جبريل عليه السلام سأل الرسول ﷺ عن إمارات الساعة فقال: «**... أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة، رعاء الشاء يتطاولون في البنيان...**».

وفي الطبراني وغيره: «**لا تقوم الساعة حتى يجعل كتاب الله عاراً ... وحتى تبنى الغرف فتطاول...**».

أظن أن المعنى واضح في قوله ﷺ (وترى الحفاة العراة...) فإذا كان الحفاة العراة العالة يتطاولون في البنيان! فكيف بمن هم أكثر مالا؟...

وها هم بعض الذين كانوا بالأمس رعاء شاء أصبحوا يتطاولون في البنيان، وسيتبعهم مثلهم ومثلهم.

وها هي الغرف بنيت وتطاولوا في بنيانها!

وستبنى حتى تأخذ الأرض زخرفها...

ولنتتبه إلى قوله (يتطاولون) ولم يقل مثلاً (يتواسعون) ثم لنتتبه إلى أن البنيان يتطاول فيه إلى الأعلى في هذا العصر، بينما كانوا في ذلك العصر يفكرون في توسيعه فقط.

فكيف عرف محمد ﷺ ذلك؟!

هل هناك احتمال آخر إلا أنه وحي من لدن عليم خبير؟!

زي الأرض

أورد الطبراني وغيره: «**لا تقوم الساعة حتى يجعل كتاب الله عاراً ... وتزوى الأرض زيا...**».

نفهم معنى قوله ﷺ (تزوى الأرض زيا) من حديث آخر أورده مسلم وغيره.

يقول: «**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها...**».

إذن فمعنى (تـزوى الأرض زيا) أي تجمع بحيث تبـدو وكأنها صغيرة أمام الإنسـان مع احتفاظها في الحقيقة بكل أبعادها وخواصها.

وقـد زويت للرسـول ﷺ بوسيلـة ما، فـرأى مشارقهـا ومغاربها وهـو في مكانـه من المدينة، وأخبرنا بأنها ستزوى في آخر الزمن بالنسبة لجميع الناس!

وها هي الأرض قد زويت!

فها نحن نـرى في التلفزيون شخصـاً مقيماً في القاهرة أو بيروت أو إيطاليـا أو غيرها من الأماكن البعيدة يحدثنا ونحن جلـوس على الأرائك في بيوتنا، ولن يمضي زمن طويل حتى نستطيع رؤية من في مشارق الأرض ومغاربها!.

وها هي الأرض قد زويت!

فها نحن نسمع صوت متكلم يخاطبنا بالإذاعة من أقصى البقاع!.

وها هي الأرض قد زويت!

فها نحن نتحدث مع أصدقائنا بالهاتف بين مشارق الأرض ومغاربها ونحن متكئون على مساندنا أو واقفون في غرفة صغيرة في مبنى الهاتف!

وها هي الأرض قد زويت!

فها هي الحادثة تحدث في مكان ما فيدري بها من في الأرض بين عشية وضحاها!.

وها هي الأرض قد زويت:

فهـا نحن نجوب الأرض في أيـام معـدودات، وسوف لن يمضي وقت طـويل حتى نجوبها في ساعات معدودات!

لقد زويت الأرض.

وستزوى أكثر وأكثر.

وستزوى زيا.

فكيف عرف محمد ﷺ ذلك؟!

هل هناك تفسير آخر إلا أنه وحي من لدن عليم خبير؟!

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾.

تــــبرج النســاء

أورد مسلم في صحيحه: «صنفان من أمتي من أهل النـار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كـاسيات عاريات، مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمـة البُخْت المائلة، لا يـدخلن الجنة ولا يجدن ريحهـا، وإن ريحها ليوجـد من مسيرة كذا وكذا».

وفي حديث آخر يرويه أحمد والحاكم عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال:

«يكون في آخـر هذه الأمـة رجال يـركبون على الميـاثر حتى يأتـوا أبواب المسـاجد، نساؤهـم كاسيات عـاريات، على رؤوسهن كأسنمـة البخت العجاف، العنـوهن فإنهن ملعونات، لو كانت وراءكم أمة من الأمم لخدمنهم كما خدمتكم نساء الأمم قبلكم».

قوله في الحديث الأول (قوم معهم سياط كأذنـاب البقر يضربون بها الناس). هؤلاء القوم معروفون لا يجهلهم أحد.

والمياثـر، في الحديث الثاني، هي السروج العظـام الوثيرة، وهي بلغـة عصرنا الحاضر مقاعد السيارات.

والبُخْت ، في الحديثين، هي الجمال.

وأسنمـة البخت المائلـة، وأسنمة البخـت العجاف، معنـاهما واحـد، لأن الجمل لا يميل سنامه إلا في حالة الهزال.

١ - كيف عرف ﷺ أن زمناً سيأتي يكون فيه الحكم بالسياط؟!

من الجائز أن تكـون معرفتـه لذلك قيـاسـاً على الأمم الوثنيـة التي كانت تحيط بـه، وكان الحكم فيها يقوم على السياط والإرهاب شأن كل الوثنيات الظالمة في التاريخ.

ولو أن الرسول ﷺ لم ينبئنا عن غير هذه الحقيقة، لما أقمنا لها وزناً.

أمـا وأنها تأتي مع خضـم من النبـوءات العجيبـة الـدقـة، فـإنها تصبح معجـزة من معجزاته ﷺ، ودليلاً ممتازاً على صدقه.

٢ - كيف عرف أن رجالاً في آخر هذه الأمة يأتون إلى المساجد على المياثر؟!.

لننتبـه إلى أنه جعل الـركوب على الميـاثر فقط، والتي تعني في اصطـلاحاتنـا سروج السيارات.

فكيف عرف ذلك؟! أليس هذا دليلاً واضحاً على أنه وحي من لدن عليم خبير؟.

٣ - النساء الكاسيات العاريات.

ألا يملأن شـوارعنا في كل حين من الصباح حتى منتصف الليل؟ أولَسْن كـاسيات يلبسن غالي الثيـاب وجميلها؟ وهن مع ذلك عـاريات يرى كـل جسمهن مباشرة أو من وراء حجاب؟!.

وتسريحاتهن وتصفيفات شعرهن، أليست كأسنمة الجمال المائلة؟
فكيف عرف محمد ﷺ هذه الأمور بهذه الدقة؟!.
هل هناك تفسير آخر إلا أنه وحي من لدن عليم خبير؟!

وهل يعجبكِ أيتها الأخت أن تكوني ملعونة عند الله وفي عالم الحقيقة، من أجل نزوة سخيفـة حقيرة في عالم الـدجل والخداع الذي نتخبط فيـه، من أجل أن يقلن أو يقولـون إنها (مودرن) أو صاحبة ذوق؟؟!!.

لا أظن هذا معجباً إلا نفسية مسخت إلى نفسية قـرد أو خنزير ثم حشيت في إهاب إنسان.

الربــــــا

في الجامع الصغير، عن أبي داود وابن مـاجـه والحاكم، عن أبي هـريرة أن رسـول الله ﷺ قال: «**ليأتين على الناس زمان لا يبقى منهم أحد إلا أكل الربا فإن لم يأكله أصابه من غباره**».

- وهذا زمان نعيشه الآن، فقد طغا الربـا، وأكله الناس ومن لم يأكله فقد أصابه من غباره، فرواتب الموظفين أصابها غبـار الربا، ومعاملات التجار بين الأمـرين، إما ربوية، أو أصابها الغبار عن طريق التعامل مع البنوك أو مع الذين يتعاملون مع البنوك .

لقد تحقق الحديث
فكيف عرفه محمد ﷺ؟!

فشـــو التجـــارة

في البخاري وغيره: «**إن بين يدي الســاعة فشو التجـارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة...**».

الحديث واضح كل الوضوح.

وتحققه في المجتمعات واضح كل الوضوح. فكيف عرف محمد ﷺ ذلك؟!

الـــروح الماديـــة

أورد النبهاني في كتابه (حجـة الله على العالمين) عن ابن مسعود: «**... يكون في ذلك الزمان هلاك الرجل على يدي أبويـه إذا كان له أبوان، وإلا فعلى يدي زوجته وولده، وإلا فعلى يـدي الأقارب والجيران، يعيرونـه بضيق المعيشـة ويكلفـونه مـا لا يطيق حتى يـورد نفسه الموارد التي يهلك فيها**».

- الهلاك هنا بمعنى الهلاك الأخروي.
- وتحققه في المجتمعات واضح كل الوضوح.
- وسيتحقق أكثر وأكثر.
- فكيف عرف محمد ﷺ ذلك؟
- هل هناك تفسير آخر غير كونه وحياً من لدن عليم خبير؟.

زوال الأمية

في البخاري وغيره: «**إن بين يدي الساعة فشو التجارة ... وفشو القلم**».

فشـو القلم كنايـة عن انتشـار الكتابـة والقـراءة دون علم، وهي ما نطلق عليـه في مصطلحنا تعبير (زوال الأمية).

وقـد فشـا القلم، وزالت الأميـة في بعض البـلاد، وهي في طريقهـا للـزوال في بقيـة البلاد. فهذا ما تسعى المجتمعات لتحقيقه بجد ونشاط.

فكيف عرف محمد ﷺ ذلك؟!

هل هناك احتمال آخر إلا أنه وحي من لدن عليم خبير؟

الملاهـــي

أورد الترمذي عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه- .

قال رسول الله ﷺ: «إذا فعلت أمتي خمسة عشر خصلة حل بها البلاء ... إذا كان المغنم دولاً، والأمانة مغنماً، والزكاة مغرماً ... وشربت الخمور.. واتخذت القينات والمعازف ... فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراء أو خسفاً أو مسخاً».

وفيه عن أبي هريرة - قال رسول الله ﷺ: «إذا اتخذ الفيء دولاً، والأمانة مغنماً، والزكاة مغرماً ... وظهرت القينات والمعازف، وشربت الخمور ... فليرتقبو عند ذلك ريحاً حمراء وزلزلة وخسفاً ومسخاً ...».

وفيه عن عمران بن حصين - قال رسول الله ﷺ: «في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف. قال رجل من المسلمين: يا رسول الله ومتى ذاك؟ قال: إذا ظهرت القينات والمعازف وشربت الخمور».

وفي حديث أورده الطبراني عن ابن مسعود: «... يا بن مسعود إن من أعلام الساعة وأشراطها أن تظهر المعازف وشرب الخمور...».

المعازف: الملاهي وآلات الطرب.

القينات: المغنيات.

تعالوا نسر في شوارع المدينة، أية مدينة، فماذا نرى؟

مؤسسات المعازف منتشرة هنا وهناك.

دور سينما ومسارح ومقاهي تتجاوب جنباتها بألحان الآلات المختلفة ليل نهار.

والموسيقى تصدح في كل مطعم ومتجر.

وكثير من المارة يحملون الراد يشنفون أسماعهم بأنغامه وكأنهم يخشون أن تمر برهة من أعمارهم دون طرب!.

ثم ماذا؟

لافتات تعترض الطريق، وإعلانات في كل زاوية؟!

المغنية الكبيرة فلانة!

المطربة العظيمة علانة!

الفنانة كذا... إلى آخر هذه الغوغائيات التي تجعل الكبر والعظمة والعبقرية في من تستطيع أن تثير شهوات الرجال أكثر من غيرها!

- أما شرب الخمور.

فقد انتشر وأي انتشار.

ففي دمشق، مثلاً، المدينة الإسلامية العريقة، يزيد عدد الخمارات فيها عن عدد المكتبات! وكثير من مطاعمها ومقاهيها تتخذ عرض الخمور وسيلة لجلب الزبائن!.

فكيف الحال في المدن الأخرى غير الإسلامية؟.

هذا أول الطريق ونحن سائرون إلى الأمام.

فكيف عرف محمد ﷺ ذلك؟

إذا رفضنا أنه وحي من الله فهل نستطيع إيجاد تفسير آخر يقبله عاقل؟.

والمسخ والخسف.

أما المسخ فقد حصل.

لقد مسخت نفوس، فأضحت نفوس قردة همها الاستعراض والسلوك الاستعراضي والأعمال الاستعراضية (كالقردة).

حتى ليُقيّم الإنسان بمقدرته على الحركات الاستعراضية.

ففلان عظيم لأنه يقف هكذا! ويتكلم هكذا! ويلبس هكذا. وهذا شيء يجب فعله لأنه جميل وحلو و(بياخد العقل)...

ولقد مسخت نفوس، فأضحت نفوس قردة يتحكم التقليد الأعمى (كالقردة) في كل تصرفاتها: في المأكل والمشرب والملبس والمنام والكلام والتفكير. فهي تقوم بأعمالها تقليداً دون فهم (وكذلك القردة) وتسمي تقليدها (الموضة).

ولقد مسخت نفوس، فأضحت نفوس قردة، فقدت الوضوح الفكري، فلا تستطيع أن تميز بين الحق والباطل، والصدق والكذب والأمانة والخيانة، وكذلك القردة.

فالحق والصدق والأمانة هي كل ما صـادف هوى في النفوس، أو كان جميلاً أو محبباً أو على الموضة، أو كانت أصوات الدعاية له أقوى أو أكثر.

والباطل والكذب والخيانة هي كل ما كانت أصوات الدعاية له أضعف أو أقل.

ولقد مسخت نفـوس فأضحت نفوس خنـازير، لا يهمها مـن الحياة غير البطن بأي وسيلـة أتخمته، وغير الجنس بأي سبيل أشبعتـه، لا تعـرف حلالاً أو حـراماً، أو أخـاً أو أختاً، أو شعوراً بمسؤولية، أو إحساساً بآلام الآخرين، وكذلك الخنازير.

لقد مسخت نفوس، ثم حشيت في أهب أناسي، فلهـا مظهر الإنسان وسلوك القردة والخنازير.

والخسف آت، وفيه أحاديث تمر بعد قليل.

الـــلاسلكـــي

أورد الترمذي عنـه ﷺ: «**والـذي نفسي بيـده، لا تقوم السـاعـة حتى تكلم السبـاع الإنس، ويكلم الرجل سوطه ونعله ويخبره بحديث أهله**».

وفي حديث آخر: «**... حتى يكلم الرجل عـذبة سوطـه، وشراك نعله، وحتى يفيض المال...**».

إن صندوقاً صغيراً بين يدينا يكلمنا الآن.
وقطعة صغيرة نضع طرفها على آذاننا وطرفها الآخر أمام فمنا تخبرنا بحديث أهلنا.
وقد تطورت هذه الأجهزة كثيراً عما كانت عليه قبل عشرات السنين.
فأصبح الراد بحجم قبضة اليد أو أصـغر.
ووجد الهاتف اللاسلكي.

وستتطور هذه الأجهزة حتى تصبح صغيرة الحجم جداً بحيث يمكن تثبيتها في جزء من لبـاس الإنسان، فـلا يزعجه حملهـا ولا يشعر بها إلا عنـد الحاجة. ومن أسهـل هذه الأجزاء اللباسية الحذاء.

ويمكن أن تثبت في عصا التوكؤ (البستون).
ويمكن أن تثبت في عذبة سوط.

ويمكن أن تثبت في أي شيء آخر[1].
ولا أظن أحداً يشك بأن هذا سيكون.
فكيف عرف محمد ﷺ ذلك في عصره؟
هل هناك تفسير غير أنه وحي من لدن عليم خبير؟.
﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾.

المعادن المختلفة وبترول نجد

قال ﷺ: «تخرج معادن مختلفة، معدن منها قريب من الحجاز، يأتيه من شرار الناس يقال له فرعون، فبينما هم يعملون به إذ حسر عن الذهب، فأعجبهم معتمله إذ خسف به وبهم».
صحيح الحاكم

يخبرنا ﷺ عن خروج معادن مختلفة دون تحديد لعددها أو نوعها أو مكانها.
أي أنها ستخرج في الأرض وأنها ليست محصورة فيما كان يعرفه الناس.
وقد كان هذا.
وخرجت المعادن المختلفة.
فكيف عرف ﷺ ذلك؟
ومعدن منها قريب من الحجاز. وقد خرج البترول قريباً من الحجاز.
فكيف عرف ﷺ ذلك؟
وقد حسر عن الذهب، وسيحسر أيضاً. وسيكون الخسف بعد ذلك؟
فكيف عرف ﷺ كل ذلك؟
هل يمكن أن نجد تفسيراً مقبولاً غير كونه وحياً من لدن عليم خبير؟.
اللهم إني آمنت بك وبقرآنك ونبيك.
وآمنت أنه الحق من عندك.

---

(١) قيل لي إن عالماً كبيراً علّق على هذا بأنه تأويل باطل! والجواب: لو دخل عندك شخص وجلس ووضع رجلاً فوق فخذ وأخذ يكلم حذاءه، أو أخذ يكلم عذبة سوطه، وصوت الحذاء أو السوط يكلمه، أفلا يكون هذا تحقيقاً للحديث الشريف؟؟ بلى إنه تحقيق له كائنةً ما كانت آلية الكلام الصادر من الحذاء أو السوط أو غيره.

متفرّقـــات

أورد البخاري في صحيحه: «**... ويقال للرجل ما أعقله وما أظرفه وما أجلده وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان...**».

لقـد وقـع هـذا، والكثيرون الكثيرون من النـاس يستهـزئون من وصف الآخــرين بالإيمان! ويقولـون بكل صراحة -أو وقاحة- مـا شأن الإيمان! المهم أن يكون المرء لطيفاً لبقاً، جلداً ظريفاً...

أفلا يحق لنا أن نتساءل كيف استطاع محمد ﷺ معرفة هذه الأمور؟.
وإذا أنكرنا الوحي من الله، فهل نجد لها تفسيراً آخر؟!.

أورد الطبراني في المعجم الكبير والترمذي: «**... يا بن مسعـود إن من أعلام السـاعة وأشراطها أن تكثر الشرط ... يا بن مسعود أن من أشراط الساعة أن تكثر أولاد الزنا...**».

قبل أقل من قرن لم تكن الشرط تبلغ نصف عـددها اليوم أو أقل، وفي زمن الـرسول ﷺ كانت في جميع بـلاد العالم لا تبلغ جزءاً مـن عشر مما هي عليه اليـوم، ولم يكن هناك أي إشارة تدل على أن الشرط ستكثر في الزمن الأخير.

فكيف عرف محمد ﷺ ذلك؟
هل هناك احتمال آخر إلا أنه وحي من لدن عليم خبير؟.
وكثرة أولاد الزنا!

إنهم نـادرون في مجتمعنـا، ولكن مجتمعنـا سـائر في تقليـد الغـربيين بهمـة ونشـاط، والمجتمعات الغـربية تعج بأولاد الـزنا، وقـد يتجاوز عددهم أحيـاناً عـدد أبناءالحلال. ومنهم من هو في أعلى المناصب.

والعالم كله يسير في طريق الغرب (التقدمية).
وسيكثر أولاد الزنا.
فكيف عرف محمد ﷺ ذلك؟!

وأورد الطبراني وغيره: «**لا تقـوم السـاعـة حتى يجعل كتـاب الله عـاراً ... حتى تحزن**

ذوات الأولاد وتفرح العواقر...».

وقد حصل هذا

ولكنه في أول الطريق.

وسيأتي اليوم الذي يتحقق فيه الحديث بكماله.

فكيف عرف ﷺ ذلك؟!

وأورد الطبراني أيضاً: «**لا تقوم الساعة حتى يكون السلام على المعرفة...**».

وقد حصل هذا.

فقد أصبح السلام على من لا نعرف مخجلاً، ومثيراً للهزء في كثير من الأحيان.

فيكف عرف ﷺ ذلك؟!

وفي البخاري وغيره: «**لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان، تكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتهما واحدة...**».

أو لم تكن الحرب العالمية الأولى والثانية بين فئتين عظيمتين؟!

أو لم تكن بينهما مقتلة عظيمة، يقدر عدد قتلاها في الحربين بأربعين مليون قتيل؟!

أو ليست دعوة الفئتين واحدة؟ فهما من دين واحد، ويدعو كل منهما إلى سيادة عرقه المشترك بينهما.

فكيف عرف ﷺ ذلك؟!

وفي صحيح مسلم وغيره: «**لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله**».

وقد ظهر كثير من هؤلاء، ولا أظنهم قاربوا الثلاثين بعد، فالأيام لم تنته.

ولبعض قدمائهم ومُحْدَثيهم أتباع كثيرون لا أتطرق لذكرهم وذكر دعواتهم وأتباعهم لأن هذا ليس من موضوع الكتاب.

لكن موضوعه هو التساؤل:

كيف عرف محمد ﷺ ذلك؟

هل نستطيع أن نجد تفسيراً آخر إذا لم نقبل بأنه وحي من الله!



القســـم الســـادس

الأحداث الطبيعيّة والاجتماعيّة الّتي أخبرنا ﷺ عنها والّتي لم يَحن وقتها بَعْد


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا يدخل هذا القسم في الموضوع الأساسي للكتاب.

فموضوع الكتاب هو تبيان ما أخبر عنه ﷺ من حقائق علمية وحوادث طبيعية واجتماعية والتي تحققت بحيث لا يكون هناك أي مجال للكلام فيها.

وحوادث هذا القسم لم تتحقق بعد،

لذلك، فأنا لا أوردها كبرهان على صحة أقواله ﷺ. بل أوردها لأبرهن على أنها ستحدث، رغم ما فيها من الغرابة.

كما أني أوردها لأنها حلقات أخيرة في سلسلة الحوادث التي أخبر بها ﷺ.

كما أني أوردها لأن في بعضها رد على بعض الدجالين، وتوضيح للمخدوعين بهم عن سذاجة، أو عن شك في تحققها لأن فيها ما يخالف النظرة العابرة للكون والحياة السائدة في عصرنا.

ومع ذلك ففيها، أو في بعضها برهان على صدقه ﷺ.

كـلام الحيـوان

قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس[1]...».

إن علماء الحيـوان جـادون في هـذا الطـريق، وقـد استطـاعـوا تـدريب بعض قـردة الغوريللا على تلفظ بعض الكلمات.

وسيأتي اليـوم الـذي يستطيعـون فيـه تعليم أي حيـوان يـريـدون على الكـلام. إمـا بعمليات جراحية في الحبال الصوتية، أو في مراكـز الكلام في الدماغ، أو بواسطة الغذاء والحقن والتدريب المستمر.

إن أي متتبع للدراسات العلمية وتطوراتها يعلم علم اليقين أن هذا سيكون، وقد لا يمضي قرن من الزمن حتى يراه الناس.

أما في عهـد الرسول ﷺ، فمن كـان يصدق ذلك؟ لقـد آمن المسلمون بهذا إيمانهم بالغيب.

أما غير المسلمين فما كان يثير عندهم إلا الهزء والسخرية!

فكيف عرفه محمد ﷺ؟

أليس هذا دليلاً على أنه رسول الله؟.

كنـز الفـرات

في البخـاري ومسلم وغيرهما: «يـوشك الفـرات أن يحسر عـن كنـز من ذهب فمن حضره فلا يأخذ منه شيئاً..».

وفي حديـث آخر يرويـه مسلم: «لا تقوم السـاعة حتى يحسر الفـرات عن جبل من ذهب يقتتل الناس عليه فيقتل من كل مئة[2] تسعة وتسعون...».

---

(١) الترمذي.

(٢) يجب الرجوع إلى كتابة «مئة» هكذا حسب القاعدة لأن الناس صاروا يلفظونها «ماءة».

حالة المجتمعات العامة في آخر الزمن

أورد الحاكم في صحيحه:

«إذا اقترب الزمان كثر لبس الطيالسة (المعطف والجبة)، وكثرت التجارة، وكثر المال، وعظم رب المال بماله، وكثرت الفاحشة، وكانت إمارة الصبيان، وكثر النساء، وجار السلطان، وطفف في المكيال والميزان، ويربي الرجل جرو كلب خير له من أن يربي ولداً له، ولا يوقر كبير، ولا يرحم صغير، ويكثر أولاد الزنا حتى إن الرجل ليغشى المرأة على قارعة الطريق فيقول أمثلهم في ذلك الزمان: لو اعتزلتما عن الطريق. ويلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب، أمثلهم في ذلك الزمان المداهن».

وأورد الطبراني والترمذي:

«... ألا وإن من أعلام الساعة وأشراطها أن يكون الولد غيظاً والمطر قيظا، وأن يفيض الاشرار فيضا. يابن مسعود إن من أعلام الساعة، وأشراطها أن يصدَّق الكاذب وأن يكذَّب الصادق. يابن مسعود إن من أعلام الساعة وأشراطها أن يؤتمن الخائن وأن يخوَّن الأمين.. يا بن مسعود إن من أعلام الساعة وأشراطها أن يكون المؤمن في القبيلة أذل من النقد. يا بن مسعود إن من أعلام الساعة وأشراطها أن تظهر المعازف وشرب الخمور. يا بن مسعود إن من أعلام الساعة وأشراطها أن تشرب الخمور. يا بن مسعود ان من أعلام الساعة وأشراطها أن تكثر الشرط والهمازون والغمازون واللمازون. يا بن مسعود إن من أعلام الساعة وأشراطها أن تكثر أولاد الزنا».

والأحاديث في هذا الباب كثيرة أكتفي بهذا القدر.

وقد تحقق أكثرها والباقي في الطريق، وكل آت قريب.

والسؤال: كيف عرف محمد ﷺ ذلك؟!.

طلوع الشَّمس منَ المغرِب

قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعين، فـذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً»(١).

إن الأحـاديث عن طلـوع الشمس من مغربها كثيرة ومشهـورة جـداً، ولا أظن أن في العالم الإسلامي أحداً يجهلها.

والناس فيها ثلاث فئات:

– فئة مسلمة مؤمنة بالإسلام، متيقنة أن هذا سيحدث كما وصفه محمد ﷺ تماماً.

– وفئة مسلمـة اطلعت على بعض حقائق الكون وحـركات الأجرام عـامة والأرض خـاصـة. فـرأت ذلك مستحيلاً، لأنـه يقتضي تـوقف الأرض عن الـدوران، ثم بـدأهـا الـدوران في اتجاه معاكـس. وهذا يعني انتهـاء الحيـاة على الأرض. فحاولـت هذه الفئـة إعطاء الحديث تأويلاً فيه من الضلال بقدر ما فيه من الجهل.

– وفئة رفضت الإسلام، ورفضت كل ما جاء فيه.

والحقيقة:

إن الشمس، نفسها، التي تطلع كل يوم صبـاحاً من الشرق وتغرب مساء وراء الأفق الغـربي، وتبعث ما بين ذلـك في الأرض النور والـدفء، هـذه الشمس هي التي ستطلع من جهـة الغـرب، وتغرب في جهـة الشرق. وليس في قـولـه ﷺ (... تطلع الشمس من مغربها...) أي رمز. فليس في نصوص الإسلام رموز، لأن الرموز عكاكيز الدجالين.

ولبيان هذا الأمر نقوم بالتجربة التالية:

---

(١) البخاري.

- لنجلس في غرفة شاحبة الضوء.

- ولنأت بكرة قدم منفوخة نمثل بها الكرة الأرضية، ولنجعل فوهتها نحو الأعلى وقعرها نحو الأسفل.

- لنفرض أن فوهتها هي القطب الشمالي، وأن قعرها هو القطب الجنوبي، فيكون الخط الشاقولي الوهمي الواصل بينهما هو محورها.

- لنعين في السقف النقطة التي يخترقها امتداد هذا المحور إلى الأعلى.

- ولنعين في الأرض النقطة التي يخترقها امتداده نحو الأسفل.

- ولنحافظ، طيلة التجربة، على هذا المحور الشاقولي الذي يخترق امتداده النقطتين المعينتين.

- لنرسم على الكرة خط الاستواء.

- ولنرسم على خط الاستواء، أو قريباً منه، أو بعيداً، دائرة صغيرة نفرض أنها قرية من القرى.

- لنضع في زاوية من الغرفة مصباحاً يمثل الشمس.

- ثم لندر الكرة حول محورها الشاقولي المار من القطبين.

وليكن الدوران باتجاه عقارب الساعة المقلوبة على قفاها والمتجهة بوجهها نحو الأعلى.

- لنتوقف قليلاً ريثما نرسم سهماً يمر من الدائرة الصغيرة (التي تمثل القرية) وليكن اتجاه السهم باتجاه الدوران.

- ثم لنعد إلى تدوير الكرة.

فنلاحظ أنه لو كان في الدائرة الصغيرة أحياء لرأوا أن المصباح يطلع عليهم من جهة رأس السهم، ويغيب عنهم في جهة ذيله.

- فتكون جهة رأس السهم، بالنسبة لهم، هي المشرق.

- وتكون جهة ذيل السهم هي المغرب.

والآن:

– لننقل فوهة الكرة وقعرها من مكانهما، بتدوير الطابة دوراناً بطيئاً حول محور أفقي نختاره، مع احتفاظنا بمحور الدوران الشاقولي ثابتاً، وبجهة الدوران المطابقة لجهة دوران عقارب الساعة المتجهة بوجهها نحو الأعلى ثابتة.

وطبعاً، يصعب علينا القيام بتدوير الطابة الدورتين معاً (أي الدورة حول المحور الشاقولي والدورة حول المحور الأفقي الذي اخترناه).

فلا بأس من إيقاف الدورة الأولى برهة ريثما ندير الطابة لتنتقل فوهتها من مكانها إلى مكان آخر ثم نعيد الدورة الأولى حول المحور الشاقولي الثابت.

فنرى أن الفوهة لم تعد في مكان القطب الشمالي، بل ابتعدت عنه، وحل محلها منطقة أخرى من الطابة أصبح المحور يمر منها وصارت هي القطب الشمالي.

ونرى نفس الشيء في القطب الجنوبي.

– فلنلاحظ الآن من أين أخذ يشرق المصباح على الدائرة الصغيرة.

– نتابع تغيير مكان الفوهة من جديد بنفس الاتجاه السابق.

– ولنلاحظ أيضاً جهة شروق المصباح وجهة غروبه عندما ندير الكرة دورتها الأولى حول المحور الشاقولي وباتجاه عقارب الساعة.

– ثم نتابع تغيير مكان الفوهة حتى تصبح في الأسفل (أي في مكان القعر سابقاً).

– نعود إلى تدوير الكرة دورتها الأساسية، حول المحور الشاقولي الثابت وباتجاه عقارب الساعة المتجهة نحو الأعلى.

فماذا نرى؟

نرى أن المصباح بدأ يشرق على الدائرة الصغيرة من جهة ذيل السهم، ويغيب عنها في جهة رأسه.

أي بالعكس تماماً من مكان شروقه وغروبه السابقين عندما كانت الفوهة في الأعلى.

وبتعبير آخر نقول:

أخذ المصباح يطلع على أهل القرية (الدائرة الصغيرة) من المكان الذي كان يغرب فيه (من مغربه).

مثل هذا ممكن أن يحصل للكرة الأرضية.

فستدور الأرض حول محور عمودي على محور الليل والنهار في اتجاه ما، مع احتفاظها بدورة الليل والنهار ثابتة في سرعتها واتجاهها الأصلي بالنسبة للكرة الأرضية ومحورها.

فلنر ماذا يحدث؟

- لنفرض أن الدورة الطارئة ستكون باتجاه السهم المار من اسطنبول إلى القاهرة.
- تبدأ الدورة بطيئة جداً جداً بحيث لا يشعر بها. ثم تتسارع شيئاً فشيئاً.

فيأخذ القطب الشمالي بالابتعاد عنا (في جزيرة العرب). أو بالأصح، نحن نبتعد عنه.

وتنتقل المنطقة الواقعة في القطب الشمالي من مكانها ليحل محلها غيرها، وتأخذ بالابتعاد شيئاً فشيئاً.

أما نحن (جزيرة العرب).

فسنرى أن مشارق الشمس ومغاربها أخذت تتجه نحو الشمال، حتى تشرق الشمس من جهة الشرق في أقصى الأفق الشمالي وتغرب في جهة غربه راسمة قوساً تصغر تدريجياً.

عندما تصل القوس إلى أصغريّها تغرب مساء في غرب من الأفق الشمالي لتعود صباحاً فتشرق من حيث غربت، أي من غربي الأفق الشمالي.

- وتكون منطقة جزيرة العرب قد حلت في ذلك الوقت محل القطب الجنوبي

وتجاوزته قليلاً.

- وتتابع الأرض دورتها الجديدة، مع احتفاظها دائماً بدورتها الأصلية ثابتة السرعة والاتجاه الأصلي والمحور.

- فتأخذ مشارق الشمس ومغاربها الجديدة بالاتجاه نحو الجنوب حتى تمر الشمس في السمت فوق رؤوسنا، فتكون منطقتنا قد أصبحت خط استواء.

- وسنرى الشمس حينئذ تشرق من جهة المحيط الاطلسي وتغرب في جهة الصين أي تطلع من مغربها.

- وتتابع الأرض دورتها الطارئة مع احتفاظها بدورتها الأصلية.

- وتأخذ مشارق الشمس ومغاربها الجديدة بالاتجاه نحو الجنوب حتى تصل أقصى الأفق الجنوبي.

- وعندما ترسم الشمس أصغر قوس لها، تغيب، لتطلع صباحاً من نفس المكان الذي غربت فيه. أي تعود لتطلع من مشرقها (أو من جهة الشرق الأصلية).

- وتكون منطقة جزيرة العرب قد حلت حينئذ في مكان القطب الشمالي وتجاوزته قليلاً.

- وتتابع الأرض دورتها الطارئة.

- ولعلها تكون قد أخذت بالتباطؤ.

- وتأخذ مشارق الشمس ومغاربها بالاتجاه نحو الشمال حتى تصل إلى مكانها الأصلي أو قريباً منه، حيث تتوقف الدورة.

وترجع الحال إلى ما كانت عليه سابقاً.

فتشرق الشمس من جهة الصين، وتغيب في جهة المحيط الأطلسي.

وطبعاً، لن يكون توقف هذه الدورة الطارئة للأرض مفاجئاً بحيث يسبب الدمار، بل ستتباطأ شيئاً فشيئاً حتى الوقوف.

- هذا أو شيء قريب منه ما سيحدث للأرض.

- وأرجو، هنـا، من القارىء الكـريم، ألا يتسرع باستغـراب الأمر وإصـدار حكمه عليه بالنفي.

وذلك، لأن هذه الحادثة (الغـريبة فعلاً) قد حصل مثلهـا في تاريخ الأرض أكثر من مرة!؟.

وهذه نصوص عن نتائج بحوث علميـة أنقلها من كتاب (العالم في الفضاء) تأليف (الكسندر مارشاك) وترجمة (عصام أحمد عزت طه):

جاء في الصفحة (٧٩)

«... وحفر علماء الجيولوجيـا الأرض فوجدوا أن غرينلاند كـانت مغطاة قبل مليون سنة أو أكثر بنبـاتات المناطق الحارة، كالقارة القطبيـة الجنوبية، وعاشت فيهـا حيوانات برية وبحرية انقرضت عن وجه الأرض».

وفي الصفحة (١٣٢)

«... فالقطب الشمالي، وهـو الرأس الشمالي لمحور الأرض، قد تاه كـالثمل في مئات الملايين الستـة من السنين التي خلت إذ أنه كـان مرة على مـا يظهر في الجزء الغـربي من أمـريكـا الشماليـة، ثم تحرك متجهـاً نحو البـاسفيك، مخترقـاً الصين وسيبيريـا إلى مقـره الحديث. اهـ.

وجـاء في كتاب (مـاذا حدث في السنـة الجغرافيـة الدوليـة) لمؤلفه (فـرانك روص) وترجمة (عبد المنعم أبو السعود) في الفصل الثالث (سطح الأرض) ما يلي:

«... ويقـوم أساس بحثهما (عـالمان مـذكوران سـابقـاً) على الحوادث الجيـولوجيـة الجائحة التي وقعت في عصور سحيقة سبقت عصر الجليـد بكثير. فمنذ نحو مليون سنة لم تكن المنطقة القطبية الشمالية في مكـانها الحالي بل كانت في شمال المنطقة الوسطى من المحيط الهادي ... وفجأة حـدثت هزة مخيفـة في الطبقـات العليا من الأرض ... ونتيجـة

لهذه الهزة تحركت المنطقة الشمالية إلى موضعها الحالي...».

وفي الفصل السادس (المنطقة القطبية الجنوبية والمنطقة القطبية الشمالية) ما يلي:

«وقد اهتم بعض علماء الجيولوجيا في هذه البقعة بصفة خاصة (مكان في منطقة القطب الجنوبي) بالحفريات التي عثروا عليها بالقرب من جبال (هورلك) وكان هذا المنجم الغني بمخلفات العصور السالفة يشتمل على شجرة متحجرة طولها نحو (١٢) قدماً وعلى أوراق شجر ومحار وطبقات من الفحم يتراوح سُمكها بين بضعة بوصات و(٣٠) أو (٤٠) بوصة. وكان هذا دليلاً واضحاً على أن المنطقة القطبية الجنوبية قد تمتعت في مرحلة ما من مراحل تطور الأرض بمناخ طيب وكانت تغطيها الأشجار».

- ما يهمنا من هذه النصوص هو أن الجزء الغربي من أميركا الشمالية (الذي هو في نفس الوقت جزء من شمال المنطقة الوسطى من المحيط الهادي) كان قطباً متجمداً فيما مضى. وأن غرينلاند والقطب الجنوبي الحالي، كانا جزءاً من المناطق الحارة الاستوائية .

- أما تحديد الزمن الذي كانت فيه كذلك بـ (منذ نحو مليون سنة).- وتحرك القطب من مكانه في شمال المحيط الهادي في الطريق التي رسموها له (متجهاً نحو الباسفيك مخترقاً الصين ...). - وحدوث هزة مخيفة مفاجئة في الطبقات العليا...

- فهذه فرضيات، لا نهتم بها.

كما أن أوروبا في أوائل العصر الرابع (قبل بضع مئات من ألوف السنين) كانت منطقة متجمدة طيلة فترتين تفصل بينهما فترة دافئة.

جاء في كتاب Géologie et Paléontologie لمؤلفه Léon Bertin في الفصل السادس عشر (الأراضي والمستحاثات الرباعية) ما ترجمته:

العصر الرابع - مجموعة أدوار البليستوسين والهولوسين- يتميز في مطلعه بتعاقب أدوار جمودية وأدوار (بين جمودية).

إن كل أوروبا الشمالية تقدم لنا الآثار الواضحة لامتداد الجموديات القديمة ...

(يذكر أنواع الجموديات وأماكنها).

وجاء بعد ذلك ، في نفس الفصل:

الترسبات الجمودية: تتميز نهاية العصر الثالث وبداية الرابع بتبرد عام في الجو الأرضي. حيث تتحول الرياح الرطبة إلى ثلج، وتنتشر الجموديات على مساحات واسعة من أوروبا وأميركا الشماليتين.

وهذا هو. الدور الجمودي الأول والأهم. وقد أعقبه دفء سبّب دور (ما بين الجموديات). لكن هذا الهدوء كان قصيراً، إذ عاد البرد من جديد، وهذا هو الدور الجمودي الثاني. أخيراً، انسحبت الجموديات..

- يتابع الكتاب وصف الآثار التي تدل على الجموديات وأماكنها وأزمنتها بتفصيل لا علاقة لنا به-.

يقدم بعض الجيولوجيين أكثر من نظرية لتفسير الجموديات الأوروبية.

على أن المنطق العلمي يفرض علينا أن نستعين بالواقع المعلوم لقياس ما نجهله.

فالواقع الذي نراه في الأرض هو أن الجموديات لا توجد إلا في المناطق القطبية وفي الجبال العالية جداً.

ويرى الفلكيون مثل هذا الواقع (وجود الجموديات في القطب) في المريخ الذي يمكن للراصد أن يلاحظ قطبيه بسهولة.

كما أن البحوث الجيولوجية الأخرى- التي رأيناها- جعلت الجيولوجيين أنفسهم يحكمون على أن شمال المنطقة الوسطى من المحيط الهادىء كان منطقة قطبية، وقد بنوا حكمهم هذا على آثار الجموديات.

إذن، فالواقع يضعنا أمام حقيقة التلازم الطبيعي بين الجموديات والمناطق القطبية.

وقياساً عليه، يكون سبب الدورين الجموديين في أوروبا وأميركا الشماليتين هو

اقتراب القطب الشمالي إلى نقطة بينهما، حيث تصبحان جزءاً من المنطقة القطبية.

وفي ذلك الوقت كانت المنطقة القطبية الشمالية دافئة. فقد جاء في كتاب (العالم في الفضاء) المار ذكره قبل قليل، في الصفحة (٨٣) ما يلي:

«... إن القارة القطبية الشمالية كانت أكثر دفئاً خلال العصر الجليدي (في أوروبا) وقد أمكن الوصول إلى هذه النظرية بواسطة تحليل نماذج من الأعماق أخذت من قاع المحيط الأطلنطي والمحيط القطبي الشمالي، ويبدو أن هذه النماذج تبين أن المحيط الشمالي كان دافئاً والمحيط الأطلنطي بارداً طيلة العصر الجليدي...». اهـ.

وهذا يعني أنها لم تكن منطقة قطبية حينذاك.

وليس ما ذكرناه هو كل ما حدث من هذا القبيل في تاريخ الأرض. جاء في نفس الكتاب السابق (العالم في الفضاء) في الصفحة (٨٠):

«... إن تشكل الجليد هو أكبر وأهم هذه التبدلات. لقد تعاقبت أربعة عصور جليدية في المليون عام التي مضت على وجود الإنسان على الأرض...». اهـ.

ولو رجعنا إلى تجربة الكرة السابقة ، وطبقنا عليها انتقال القطب من مكانه في اتجاهات مختلفة، لرأينا جيداً كيف تتغير مشارق الشمس ومغاربها، ولرأينا أنه عندما يصبح القطب الشمالي مكان القطب الجنوبي، تأخذ الشمس بالطلوع من الأماكن التي كانت تغرب فيها تماماً.

الخلاصة:

إن طلوع الشمس من مغربها حادث غريب جداً بالنسبة للإنسان لكنه عادي بالنسبة للكرة الأرضية، ولعله خاضع لقانون كوني.

وما حدث مرة يمكن أن يحدث مرة أخرى.

ويخبرنا الرسول ﷺ أنه سيحدث.

وفي إخباره هذا معجزتان:

أ - معجزة للأجيال التي يسبق وجودها حدوث الحادثة، ومنها جيلنا الحاضر. لكنها، في الحقيقة، معجزة لا يدركها إلا المطلعون، والإعجاز فيها هو مجرد ذكره ﷺ لإمكانية طلوع الشمس من المغرب، هذه الحادثة التي لا يمكن لذي عقل أن يقول بها، إذ أنها تبدو في نظر الجميع مستحيلة.

فذكره ﷺ لها، مع كونها حدثت مرات، هو معجزة تدل على أنه ﷺ كان يعلم مالا يعلمه الناس، ولو أردنا أن نبحث عن مصدر علمه لما رأينا ولما استطعنا أن نجد له تفسيراً إلا أنه وحي من لدن عليم خبير.

ب - المعجزة الثانية والكبرى هي حدوث الحادثة، وهذا سيدركه كل الناس عندما يرونها تحدث ويعلمون أن النبي ﷺ أخبر بها، حينئذ يؤمنون، حيث لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل.

عودة بلاد العرب مروجاً وأنهاراً

قال ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ... وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً»**[1].

لننتبه إلى قوله ﷺ (... حتى تعود أرض العرب...) الذي يدل على أنها كانت مروجاً وأنهاراً ثم أضحت صحراء كما هي الآن، وستعود مرة أخرى كما كانت.

ويكفي وجود البترول للدلالة على صدق هذا القول. إذ أن البترول هو بقايا الغابات الكثيفة التي يبست وطغت عليها الرمال، فتحولت مع الزمن، وبسبب عوامل كثيرة، إلى فحوم هيدروجينية.

وهناك دلائل جيولوجية أخرى:

فقد رأينا أن القطب الشمالي كان مرة في غربي شمال أميركا، وهذا يعني أن بلاد العرب كانت على حدود المنطقة الباردة الجنوبية، حيث تكثر الأمطار والثلوج، والأنهار والمروج.

---

(١) مسلم (الزكاة).

كما رأينا أن الجمـوديات غـزت أوروبا في مطلع العصر الـرابع مرتين، وهـذا، أيضاً، يجعل بـلاد العرب على حـدود المنطقـة الباردة الشمالـيـة، حيث تكثـر الأمطار والثلـوج، وتنتشر الأنهار والمروج.

وفي هذا معجزة من معجزاته ﷺ الدالة على أنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.

أما أن بلاد العرب الصحراوية ستعود مروجاً وأنهاراً!

فهذا ما لا يرتاب فيه اليوم عاقل، فـالبحوث والتجارب لتحلية مياه البحر بتكاليف قليلة وكميات غزيرة ، نشيطة في أماكن كثيرة.

ونتصور أن هـذا لن يتحقق تماماً إلا عندمـا تصبح القدرة الذريـة في متناول الجميع بأسعار زهيدة جداً، أو أية قدرة غيرها.

عندئذ تسال مياه البحر إلى الصحاري العربية وغيرها لتعود كما أخبر ﷺ.
ولا أظن أن هناك إنسان يشك جاداً في أن هذا سيكون .
فكيف عرف محمد ﷺ ذلك؟!
هل كان بإمكان أي إنسان في ذلك الوقت أن يتخيله مهما اتسع خياله؟!
أو لا يدل هذا على أنه وحي من لدن عليم خبير.
كما أن هناك امكانية طبيعية أيضاً لتحقق ذلك؟

فبعد طلوع الشمس من مغربها، قد لا يعود القطب الشمالي إلى مكانه الحالي، بل إلى مكان أقرب منه إلينا.

عنـدئذ ستكون بـلاد العرب واقعـة في شمالي المنطقة المعتـدلة أو أكثـر، حيث تهطل الأمطار والثلوج بغزارة.

الآيـات العشـر

عن حذيفة بن أسيـد الغفاري قال: «اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكـر فقال: ما

تذاكرون؟ قالوا: نذكر الساعة، قال: إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات، فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم ﷺ، ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف، خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»[١].

نستشف من قول الراوي (فذكر الدخان والدجال...) أنه لا يذكر قول رسول الله ﷺ حسب ترتيبه بالضبط، إنما يورد الحوادث حسبما تخطر بذاكرته.

وقد روي الحديث عن صحابي آخر هو أبو سريحة مبدوءاً بالخسف بالمشرق ثم بخسف بالمغرب[٢]...

كما روي بطريق آخر عن أبي سريحة مبتدئاً بالدجال... ورواه ابن ماجه.

إذن فالمراد هنا هو ذكر الآيات دون ترتيبها الزمني. ما عدا خروج النار من اليمن التي يصرح رواة الحديث أنها آخر الآيات، وهناك أحاديث أخرى تصرح بذلك.

ولا بأس من تعريف بسيط لكل واحدة منها:

- **الدخان**: يمتلىء جو الأرض بدخان شديد الوطأة على الناس. ولم يذكر ﷺ مصدره. ومن الجائز أن يكون قوله تعالى في سورة الدخان: **﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين، يغشى الناس هذا عذاب أليم﴾** يعني هذ الدخان الوارد في الحديث، فإن كان ذلك كانت السماء مصدره. ولا أريد أن أسترسل في الفرضيات.

- **الدجال**: ونعيش الآن فتنته، وهو مسيح اليهود المنتظر، وهم ينتظرون الأحوال الملائمة ليستلم المرشح لهذا المنصب عندهم الحكم في إسرائيل ويعلنون عنه أنه هو، وهو بالنسبة للمسلمين والنصارى المسيح الدجال. وفيه عن الرسول ﷺ أحاديث كثيرة.

---

(١) مسلم وغيره. (٢) رواه مسلم.

- **الدابة**: قال سبحانه في سورة النمل **﴿وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾**.

وهذا ما لا نستطيع تفسيره علمياً. ويخبرنا ﷺ في أحاديث أخر أنها حيوان يخرج من الأرض دون ولادة، يتكلم كلام الناس ويخاطبهم مميزاً الكافر من المؤمن. ولعل الزمن الذي تخرج فيه زمنٌ يسيطر فيه الإلحاد على الناس إلا ما ندر، مستندين إلى أن الأحياء والأشياء توجد بناء على تسلسل خاضع لقوانين طبيعية وليست بحاجة إلى موجد، وأن القوانين ليست من أمر إله خالق قادر، بل هي نتيجة لطبيعة الأشياء وتأثرها ببعضها. فيخرج الله سبحانه الدابة آية على أنه فعال لما يريد، وأنه أراد أن تكون مخلوقاته حسب ما نرى من النواميس، وإذا أراد شيئاً آخر فعله.

- **طلوع الشمس من مغربها**: وقد مر بحثها قبل قليل.

- **نزول عيسى بن مريم**: ينزل عيسى بن مريم صلوات الله عليه ليحكم الأرض مبيناً أنه هو المسيح الحقيقي، وأن مسيح يهود الوارد في التوراة هو المسيح الدجال.

- **يأجوج ومأجوج**: مر بحث عنهم في بحث (ذو القرنين).

- **الخسوف الثلاثة**: لا حاجة لها بالشرح.

- **نار تخرج من اليمن**: هي بركان يثور في اليمن، ويخبرنا ﷺ أن أول مخرجه من بئر في أسفل اليمن مما يلي عدن اسمها (بَرَهُوت) ثم تنتشر البراكين حوله حتى تشمل اليمن بكاملها. وهذه هي آخر الآيات.

يصفها ﷺ فيما رواه حذيفة بن اليمان قال: **«لتقصدنكم نار هي اليوم خامدة في واد يقال له بَرهوت يغشى الناس فيها عذاب أليم، تأكل الأنفس والأموال، تدور الدنيا كلها في ثمانية أيام، تطير طير الريح والسحاب، حرها بالليل أشد من حرها بالنهار، ولها بين السماء والأرض دوي كدوي الرعد القاصف، هي من رؤوس الخلائق أدنى من العرش. قيل: يا رسول الله، أسليمة يومئذ على المؤمنين والمؤمنات؟ قال: وأين المؤمنون والمؤمنات؟ الناس يؤمئذ شر من الحمر، يتسافدون كما يتسافد البهائم وليس فيهم رجل يقول مه مه»**.

متفرقـــات

من الجامع الصغير للسيوطي

- لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد.
- لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: «الله ، الله».
- لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس.
- لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس في الدنيا لكع ابن لكع.
- وفي الطبراني: (ومعناه وارد في أكثر كتب الحديث).
- لا تقوم الساعة حتى يتسافد الناس تسافد البهائم في الطرق.

لو درسنا هذه الأمور في أحوال النـاس منذ مئتي سنة حتى الآن، ورسمنا خطها البياني، لرأيناه يرتفع بسرعة، وإن دام على سيره هذا فلن يمضي قرن أو قرنان حتى يصل القمة.

لكن الرسول ﷺ، الذي ثبت لنا صدقـة بالبراهين الكثيرة التي نراها في هذا الكتاب وفي غيره، هذا الرسول يخبرنا أن الإسلام سيسود العالم بعد فترة الدجال مباشرة.

وهذا يعني أن الخط البيـاني الذي رسمنـاه سينخفض فجأة ليقترب من الحضيض. ثم يعود بعدها للارتفاع بسرعة حتى يصل القمة وتتحقق هذه الأحاديث بكامل معانيها.

وتقوم الساعة.

وقال ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى لا يحج البيت»**. – من الجامع الصغير–

وقال: **«تقوم الساعة والروم أكثر الناس»**.

–مسلم (فتن)–

وقال: **«والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس يوم لا يدري القاتل فيم قتل ولا المقتول فيم قُتل...»**

–مسلم (فتن)–

يلاحـظ أن هذا الحديث الأخير (لا يـدري القاتل فيم قتل...) قـد بدأ تطبيقـه منذ الآن وفي كل الأرض.

السَّــاعَـــة

قال سبحانه: ﴿يا أيها النـاس اتقوا ربكم إن زلزلـة الساعة شيء عظيم، يـوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملهـا وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾[١].

﴿إذا الشمس كـورت، وإذا النجـوم انكــدرت، وإذا الجبـال سيرت، وإذا العشـار عطلت، وإذا الـوحــوش حشرت، وإذا البحـار سجــرت، وإذا النفـوس زوجت، وإذا الموءودة سئلـت، بـأي ذنب قتلـت، وإذا الصحـف نشرت، وإذا السماء كشطـت، وإذا الجحيم سعرت، وإذا الجنة أزلفت﴾[٢].

﴿إذا السماء انفطـرت، وإذا الكـواكب انتثـرت، وإذا البحار فجـرت، وإذا القبـور بعثرت﴾[٣].

﴿إذا السماء انشقت، وأذنت لـربها وحقت، وإذا الأرض مـدت، وألقت مـا فيهـا وتخلت﴾[٤].

﴿إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا، لقد أحصاهم وعدهم عدا، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا﴾[٥].

﴿ونفخ في الصـور فصعق من في السماوات ومـن في الأرض إلا من شـاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾[٦].

﴿يوم تمور السماء مورا، وتسير الجبال سيراً، فويل يومئذ للمكذبين﴾[٧].

لم يكن إيـراد كل هذه الآيـات ضروريـاً للبحث، ففي بعضهـا كفايـة. لكنني مع ذلك أوردتها، لأني كثيراً ما سمعت وقرأت تعليلاً للساعة بأنها حادث ما يصيب الأرض وحدها.

---

(١) الحج. (٢) الكورت. (٣) الانفطار. (٤) الانشقاق.

(٥) مريم: (٩٤،٩٥،٩٦). (٦) الزمر: (٦٨). (٧) الطور: (٩،١٠،١١).

يقول بعضهم: قد يكون الحادث جيولوجياً بسبب الحت، الذي يحلو لهم أن يقدروا له زمناً تصبح الجبال بعده مساوية للسهل الذي يصبح بدوره مساوياً للأرض المغمورة، فيطغى الماء وتنعدم الحياة.

ونسي هؤلاء أن تحت القشرة الأرضية حركات، إن لم تكن تفاصيلها قد عرفت، فسوف تعرف، ترفع الجبال بمقدار ما ينهدم منها بالحت، وقد يزيد أحياناً.

ويقول آخرون: قد تكون بسبب حادث كوني، كأن يصطدم نجم ما بالأرض فينهي الحياة عليها.

ونسي هؤلاء أن إمكانية اصطدام نجم بالأرض لا تزيد عن إمكانية تصادم ذبابتين تطيران إحداهما في جبال الآند في أميركا، والأخرى في جبال هيمالايا في نيبال.

فأوردت كل هذه الآيات للتبيين بأن الساعة حدث عام يشمل الكون كله، وليست خاصة بالكرة الأرضية.

ونستطيع أن نعطي تعريفاً لها بأنها (نهاية طور يدخل الكون بعدها في طور آخر).

فما هو الطور الذي ينتهي؟

وما هو الطور الذي يبدأ؟

يقول سبحانه: **﴿والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون﴾**[1].

وهذا يعني -كما مر في مكان سابق- أن الكون في طوره الحالي آخذ بالتوسع. وبتعبير آخر: إن الأجرام السماوية آخذة بالابتعاد عن مركز الكون.

ويقول جل شأنه في وصف يوم القيامة: **﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده﴾**[2].

تفهمنا هذه الآية أن الأجرام السماوية ستعود يوم القيامة لتطوى على بعضها في

---

(١) الذاريات.

(٢) الأنبياء: ١٠٤.

كتلة كونية واحدة.

اذن فالطور الذي ينتهي هو طور التوسع الكوني.

والطور الذي سيبدأ هو طور الانقباض للتجمع في كتلة واحدة.

وهذا يقتضي، حسب سنة الله في خلقه، المراحل التالية:

١ – يتوقف الكون عن التوسع.

٢ – يبقى متوقفاً فترة قد تطول وقد تقصر حسب إرادته سبحانه .

٣ – تعود أجرامه القهقرى بحركة عكسية متجهة نحو مركزه لتنضم إلى بعضها.

أما المرحلة الأولى، التي هي مرحلة التوقف عن التوسع، وبالتالي التوقف عن الحركة، فيمكن أن تتم باحدى حالتين:

أ – إما أن تتباطأ حركة الأجرام شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى التوقف التام بعد مدة طويلة.

ب – أو أن يتم هذا التوقف فجأة بقوة إلاهية، ولمعرفة الحالة الحقيقية التي سيتم بها ذلك نعود إلى القرآن والحديث.

يقول سبحانه: **﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها﴾**(١).

﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة﴾(٢).

وهناك آيات أخرى بنفس المعنى.

ويقول ﷺ: «**... ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة**

---

(١) الأنعام (٣١) .   (٢) الأعراف (١٨٦).

وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»[1].

اذن فالتوقف يكون بغتة وقد ربطه القرآن الكريم بنفخ الصور.

قال سبحانه: **﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾**[2].

فعندما ينفخ في الصور يتوقف الكون فجأة عن الحركة وتكون الزلزلة العنيفة في السماوات والأرض. والدمار الشامل.

أما ما هو الصور؟ وكيف ينفخ فيه؟ فعلمه عند الله، والمهم هو التنبيه إلى أنه ليس رمزاً لشيء آخر، فلا رمزية في القرآن والحديث، لأن الرموز عكاكيز الدجاجلة:

ويسود السكون الكون فلا حسيس ولا حركة ولا حياة.

﴿... ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾.

ينفخ في الصور مرة ثانية فتعود الحياة ويأخذ الأموات بالخروج من أجداثهم في حياة ثانية أبدية.

ولعل مع هذه النفخة الثانية تبدأ الأجرام الكونية حركتها التقهقرية نحو المركز لتطوى طي السجل للكتب، والله أعلم.

الحشـــــر:

يقول سبحانه: **﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون، قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا، هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾**[3].

ينفخ في الصور نفخة ثانية، فتبدأ الحياة بالعودة إلى الأموات.

هنا، نسمع أحياناً أحد السؤالين التاليين

---

(١) البخاري: (الفتن). (٢) الزمر (٦٨). (٣) يٰس (٥١، ٥٢).

أ - هل يمكن أن تعود جميع الكائنات الأرضية إلى الحياة دفعة واحدة؟ مع العلم أن المادة التي تشكل جسم أي حي كائن في الأرض سبق وأن كانت أجزاء من أجسام حية أخرى قبله، وقد يبلغ تعدادها أرقاماً كبيرة؟

فهل يمكن لذرة أو مجموعة ذرات أن تكون في نفس الوقت جزءاً من هذا الجسم ومن ذاك ومن ثالث ورابع ... إلى آخر الأجسام التي كانت فيها في الدنيا؟!.

وهل يمكن أن تكون هناك أجسام متميزة عن بعضها ومنفصلة تمام الانفصال، وهي بنفس الوقت تحوي، كلٌ واحد منها، نفْسَ الذرات التي يحملها الآخرون وذاتها؟!.

أليس هذا مستحيلاً؟

الجواب:

١ - لا مستحيل بالنسبة لله.

٢ - خذ، أيها القارىء، نفسك مثلاً، إنك الآن لا تحمل نفس الذرات التي كنت تتركب منها أيام الطفولة، لقد تبدل جسمك تبدلاً كاملاً أو شبه كامل منذ ذلك الوقت.

وبعد سنين ستتبدل أيضاً، وسيحوي جسمك ذرات غير التي يحويها الآن.
إننا نبدل أجسامنا دائماً.
والذرات المادية ليست هي التي تشكل شخصيتنا وكياننا ونفسيتنا.
ويمكن لأي ذرات أن تحل محل أي ذرات أخرى في أي كائن حي، ويبقى هو هو.
وعليه فليس من الضروري أن تعود نفس الذرات إلى نفس الجسم يوم القيامة .

ب - من أين تأتي المادة الكافية لإعادة تكوين جميع الأحياء التي وجدت على الأرض منذ بدء الخليقة حتى يوم القيامة؟.

الجواب:

بعملية حساب بسيطة نرى أن جبال لبنان والبحر الأبيض المتوسط تكفي -بعد تكييفها بإرادة الله- لتكوين أحياء يزيد تعدادهم عن أي عدد معقول نضعه للكائنات

التي وجدت على الأرض.

كيف يكون الحشر؟

يقول سبحـانه: ﴿**خشعاً أبصارهم يخرجـون من الأجداث كأنهم جراد منتشر**﴾[1]، ﴿**يوم يكون الناس كالفراش المبثوث. وتكون الجبال كالعهن المنفوش**﴾[2].

الأجداث: القبور.

العهن: الصوف.

يكـون الجراد منتشراً في الجو. وكذلـك الفراش المبثـوث، كـلاهما يكـون متطايـراً في الفضاء.

إذن، فتبعث الخلائق، عندمـا تبعث يوم القيـامة، متطايـرة في الفضاء (**كأنهم جراد منتشر، أو كالفراش المبثوث**).

ونتساءل هنا، في قـوله تعالى: ﴿**يوم يكون الناس...**﴾ عن العلاقـة بين كون الناس متطايرين كالفراش، وكون الجبال منفوشة كالعهن؟

ما الذي يجعل الناس في هذه الحياة ملتصقين بالأرض؟
وما الذي يجعل الجبال صلبة متماسكة الأجزاء؟
إنها الجاذبية ولا ريب.
ولو استطعنا الغاءها لأصبح الناس كالفراش المبثوث، والجبال كالعهن المنفوش.
ومن هنا نستطيع أن نقول -والله أعلم- إن الجاذبية تنعدم يوم القيامة طيلة الحشر.

أين يكون الحشر؟

قـال سبحـانـه: ﴿**يـوم تبـدل الأرض غير الأرض والسماوات وبـرزوا لله الـواحـد**

---

(١) القمر (٧).
(٢) القارعة.

القهار﴾[1].

وقال ﷺ: «**يحشر الناس يـوم القيامة على أرض بيضــاء عفراء كقـرصة النقي، ليس فيها علَم لأحد**»[2].

وقال أيضاً: «**تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق**»[3].

إذن، فالحشر لن يكون في الأرض (يوم تبدل الأرض...)، ويصف الرسول ﷺ أرض المحشر بقوله: (بيضاء عفراء ...) وهو وصف لا ينطبق على كرتنا.

كما يخبرنـا أن الشمس، حينئذ، تـدنى من الخلق ... فتصهـرهم فيكـونون في العـرق بقدر أعمالهم، فمنهم من يأخذه إلى عقبيه ... ومنهم من يلجمه إلجاماً.

ونقف أمام كلمـة (السماوات) في قوله: (يـوم تبدل...) وكلمة (الشمس) في قـوله: (تدنى الشمس...).

- فإن كـان المراد بكلمة (الشمس) الاسم العلم الـذي نطلقه على شمسنـا الحالية، كان معنى تبـدل السماوات ما نراه في قولـه تعالى: ﴿**إذا السماء انفطرت، وإذا الكواكب انتثرت**﴾.

فانتثار الكواكب يبدل شكل السماء.

ويكون كـوكب عطارد وأجواؤه هي المحشر، لأنـه يتفق مع وصفه ﷺ في قـوله «... **على أرض بيضــاء عفـراء كقـرصـة النقـي ليس فيهـا علم لأحـد**». ومع قـولـه «**تـدنى الشمس...**».

إذ أن عطارد هو أقرب الكواكب إلى الشمس، وأرضه بيضاء عفراء ...

- ويجوز أن تكون كلمة (الشمس) هنا اسماً للنوع، فتعني إذ ذاك شمساً ما من تلك الشموس المتفرقة في الفضاء، والتي يصل عددها إلى أرقام خيالية.

---

(١) إبراهيم (٤٨).

(٢-٣) مسلم: صفة القيامة.

ويكون حيئـذ، معنى تبدل السماوات، هو أن المحشر سيكـون في سماوات غير هذه التي نعيش فيها الآن، ونراها ليل نهار.

سيكون فـوق كوكب بعيـد جداً، في مجرتنا، أو في غيرهـا. وسيكون هـذا الكوكب ذا أرض بيضاء ... وقريباً من شمسه. والله أعلم.

ويقول سبحانه: **﴿خشعاً أبصارهم ... مهطعين إلى الداعي يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾**[1]، **﴿يومئذ يتبعون الداعي لا عـوج له، وخشعت الأصوات للرحمٰن فلا تسمع إلا همساً﴾**.

فالنـاس عند خـروجهم من القبور، يتبعـون داعياً يسـوقهم إلى المحشر مهطعين إليه (أي مسرعين ومادين أعناقهم نحوه).

بَراهين على أنّ السَّاعة آتِيَة

١ - **صِدقُ محمد ﷺ**: ثبت لنا صـدقه ﷺ بالبراهين القاطعة التي مـرت. وثبت لنا بها أنه رسول الله ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

وهذا الصادق هو الذي يخبرنا عن الساعة أنها آتية.

إذن، فهي آتية.

ويخبرنا عن أشراطها، وقد تحقق أكثرها، وعندما يتم تحقق الباقي ستقوم.

٢ - **قانون الـزوجية**: يعرف كل إنسان أن قـانون الزوجية يسيطـر على الأشياء: ذكر وأنثى، مـوجب وسـالب، بـروتـون وكهروب، ليـل ونهار، صيف وشتاء، بـرد وحـر، نـور وظلام... إلخ.

وكلما توسعت معارف الإنسان، كلما تأكد أن هذا القـانون موغل في سيطرته على كل شيء من الذرة ومحتوياتها حتى الشموس وتوابعها، حتى الأفكار الإنسانية والتيارات الاجتماعية.

---

(١) القمر (٨).

وبناء على هذا القانون، نرى ما يلي:

أ - كل مخلوق قد مرّ أو سيمر بدورين اثنين من اللاوجود.

- دور أزلي قبل ولادته.

ودور ثان بعد موته.

حيث يتحقق قانون الزوجية حتى بالنسبة للموت.

فهل تكون الحياة وحدها هي الشاذة عن هذه القاعدة؟.

وهل تكون الحياة فقط هي المفردة (أو اللازوجية) في خضم هذا الوجود الزوجي؟!.

إنني أرفض هذا بكل اطمئنان.

والعقل والمنطق يفرضان علينا أن نؤمن إيماناً كاملاً أن الحياة أيضاً هي زوجية.

وأن هناك بعد هذه الحياة المحدودة حياة أبدية، حيث تتحقق الزوجية في هذا المجال أيضاً.

فيكون:

لا وجود أزلي (قبل الولادة) يقابله لا وجود محدود (بعد الموت).

وحياة محدودة (في الدنيا) يقابلها حياة أبدية (في الآخرة).

وبشكل آخر:

لا وجود أزلي قبل الولادة يقابله وجود أبدي في الآخرة

ووجود محدود في الدنيا يقابله لا وجود محدود بعد الموت.

وبذلك، نضيف كلمتي (دنيا وأخرى) إلى قائمة الزوجيات التي لا تنتهي إلا بانتهاء قائمة المخلوقات.

ب - رأينا أن الكون آخذ حالياً بالتوسع بابتعاد أجرامه عن مركزه وعن بعضها.

وكلما توغلنا في الماضي، كلما كانت هذه الأجرام أقرب إلى بعضها، حتى إذا وصلنا إلى ما قبل بدء الزمن الكوني رأينا الأجرام كلها مجتمعة في كتلة واحدة (وكان عرشه على الماء).

فإذا سرنـا مع الزمن عـائدين من الماضي السحيق، رأينا هـذه الكتلة تنفتق وتأخـذ أجرامها بالتباعد، وتكون الدنيا التي نحن فيها الآن.

وبناء على قانون الزوجية.

إن هـذا الانفتاق والتـوسع سيعقبـه انقبـاض وطي، حتى تعود الأجـرام إلى مثل مـا كانت عليه أول الخلق.

حيث تتحقق الزوجية كما يلي:

- كتلة كونيـة متجمعة لا يعلم مبتداها إلا الله يقـابلها كتلة كونيـة متجمعة لا يعلم منتهاها إلا الله.

- انفتاق لهذه الكتلة وتوسع يقابله انقباض لها وتجمع.

والساعة هي نهاية التوسع وبداية الطي.

٣ - وجود الجنة والنار: تشكل الجنة وجهنم العنصرين الأساسيين في اليوم الآخر.

وثبوت وجود عناصر أي شيء هو ثبوت لوجود الشيء ذاته.

وقد ثبت لنـا في بحث سابق، وجود الجنـة وجهنم. ويثبت لنا بشكل خـاص وجود جهنم مع وجـود جميع الصفات الدقيقـة التي وصفها القـرآن والحديث والتي لا تمتّ إلى المفاهيم الأرضية في زمن الرسول ﷺ بأي صلة.

وهذا يدفعنا للتأكد من أن اليوم الآخر حق.وأنه آت لا ريب فيه.

الرّسُــول الأمِــيّ

من معجـزات الإسـلام الكبرى أن رسول الله ﷺ أمي لا يقـرأ ولا يكتب. والبرهـان على ذلك واضح جداً.

قال تعالى: ﴿... الذين يتبعون الرسول النبي الأمي﴾[1]، ﴿... فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي﴾[2]، ﴿... ما كنت تـدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾[3]، ﴿... ما كنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون﴾[4].

السُّوَر مكية.

نزلت في مكة، قبل هجرة الرسول ﷺ منهـا . وأهل مكة هم أهله، ولد فيهم، وعاش بينهم، يعرفونه كما يعرفون أنفسهم.

يعرفونه في طفولته، وفي صباه، وفي شبابه، وفي كهولته .

فلو كان ﷺ يعرف القراءة والكتابة، لعرف القرشيون ذلك..

ولما تجرأ على ادعاء الأميـة بين أناس يعـرفونـه، فينصرف عنه حتى الـذين آمنـوا به، لأنهم كانوا سيرونه كاذباً.

- وقـد اتهم القرشيـون محمـداً ﷺ بالكهـانة، والجنـون، والشعـر، لكنهم لم يكذبـوه بادعائه الأمية، وهم أعرف الناس به.

مما يدل على أنـه كان أمياً حقاً، لا يدري ما الكتـاب ولا الإيمان. ولا يتلو من كتاب ولا يخطه بيمينه.

في الحقيقة، إن هذا واضح لا حاجة لبحثه.

لكني تطـرقت لـه لأن بعضهـم نشر مـرة يقول: إن محمـداً ﷺ غير أمي، وإنـه يقـرأ

---

(١) الأعراف (١٥٦).

(٢) الأعراف (١٥٧).

(٣) الشورى (٥٢).

(٤) العنكبوت (٤٨).

ويكتب. وجاء ببراهين ليس فيها دلالة على شيء إلا على جهل كاتبها وأنه ينضح من هوى في نفسه، لا يبغي العلم ولا البحث عن الحقيقة.

لنتصور الآن إنساناً أمياً جاهلاً يعيش في القرن السادس الميلادي بين أميين وجهلة، ثم يأتي بما أتى به محمد ﷺ من مثل ما جاء في هذا الكتاب وفي غيره.

فهل يصدق عاقل يحترم نفسه أن كل هذا هو عبقرية أمي وذكاؤه، أو هو الصدفة، أو هو السجع (كما يحلو لبعضهم أن يقول).

ألا لو كان هذا صادراً عن مجموعة من أعاظم علماء الدنيا لكان معجزة مذهلة.
فكيف به وهو صادر عن أمي من أميين؟!
اللهم إني آمنت بك وبكتبك ورسلك.
وآمنت أن محمداً عبدك ورسولك، أرسلته بالهدىٰ ودين الحق.
من أطاعه فقد اهتدى، ومن عصاه فقد ضل سواء السبيل.

والحمد لله رب العالمين.

في الختام

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾.

وهذه جملة صالحة من آيات الآفاق. على أن هناك غيرها كثير لم أتطرق إليه لسبب أو أكثر.

أما آيات الأنفس «... وفي أنفسهم حتى ...» والتي تشمل التشريح، والفيزيولوجيا وعلم الاجتماع ... فأسأل الله سبحانه أن يهيء لها من المخلصين من يدرسها ويبينها للناس.

والله حسبنا



المراجــع

اسم الكتـاب	المؤلـف
- القرآن الكريم.	
- تفسير القرآن العظيم	ابن كثير
- لباب التأويل في معاني التنزيل	الخازن
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل	النسفي
- الكشاف عن حقائق التنزيل...	الزمخشري
- الجامع لأحكام القرآن	القرطبي
- في ظلال القرآن	سيد قطب
- صحيح البخاري	
- صحيح مسلم	
- سنن الترمذي	
- سنن ابن ماجه	
- سنن أبي داود	
- مسند أحمد بن حنبل	
- فيض القدير في شرح الجامع الصغير	المناوي (والجامع للسيوطي)
- تأويل مختلف الحديث	ابن قتيبة
- محيط العلوم	نخبة من العلماء العرب
- العالم في الفضاء	الكسندر مارشال ترجمة : عصام أحمد عزت طه
- بدائع السماء	جيرالد هوكنز ترجمة: فؤاد صروف
- ماذا حدث في السنة الجغرافية الدولية	فرانك روص ترجمة: عبد المنعم أبو السعود

اسم الكتـــاب	المؤلـــف
– أعماق الكون	سعد شعبان
– فتوحات علمية	والدمار كمفرت
	ترجمة: يوسف مصطفى الحاروني
– واحد اثنان ثلاثة لا نهاية	جورج جامون
	ترجمة: اسماعيل حقي
– العوالم الأخرى	الدكتور جمال الدين الفندي
– عجائب الأرض والسماء	الدكتور جمال الدين الفندي
– الكلف الشمسي	محمد علي المغربي
– النجوم	آن ترى هوايت
	ترجمة: اسماعيل حقي
– الذرة اليوم وغداً	مرجريت هايد
	ترجمة : محمد الشحات
– المادة وضد المادة	موريس دوكين
	ترجمة: رمسيس شحاتة
– تاريخ الطبري	الطبري
– النجوم الزاهرة	ابن تغري بردي
– حجة الله على العالمين	النبهاني
– الاسكندر المقدوني	هارولد لامب
	ترجمة: المطلبي والصانع
– بصائر جغرافية	العابري
– فصوص الحكم	ابن عربي
– البوذية	محمد علي الزعبي

اسم الكتـــاب	المؤلـــف
– الفكر الفلسفي الهندي	سِرْفَبالي رادا كُرِشْنا ترجمة: ندرة اليازجي
–التفكير فريضة إسلامية	العقاد
– المرشد إلى آيات القرآن الكريم	محمد فارس بركات
– مفتاح كنوز السنة	وِنْسك ترجمة: محمد فؤاد عبد الباقي
– المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي	لفيف من المستشرقين
– أساس البلاغة	الزمخشري
– القاموس المخيط	الفيروز أبادي
– الصحاح	الجوهري
–لسان العرب	ابن منظور



الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة
كتيمـة – صــور يقينيـة من التماثـل بين الأرض والسماء – تصـور لتـوزع النجـوم على طبقات الكـون – هل تختلف نجـوم كل سماء عن السماء الأخرى – أين موقعنا من الكون	٧٨
– مـواقع النجوم – مجمـوعتنـا الشمسيـة – الأبعاد بين الشمـوس – المجرات – صـورة أخرى (عن مواقع النجـوم) – للتسلية (بعض الحقائق عن النجوم)..	٨٦
– الأطوار التي مرّ بها الكون – من شجـون الحديث (وحدة الوجود، استحداث المادة)..	٩٤
– تـوسع الكـون – للتسلية (تفلطح المجـرة، حجم الكـون ، تـوسع الكون، تصور لبناء الكون، مقطع تخيلي للكون)	١٠٣
– نسبية الأيام..	١٠٧
– الحياة في الكون..	١٠٨
–جهنم – أين جهنم – رؤيـة جهنم – هـل الشمس من نـوع جهنم وهل لها جميع صفـاتها (من حيث المظهر، صـور فوتـوغرافيـة، من حيث طبيعتهـا) – أحـاديـث شريفـة تـؤيـد ذلك – تلخيص المعجـزات في الآيـات والأحـاديث الـواردة فيـه – مـلاحظـات (الـوظائف الشمسيـة زوجـان، مـراقبة الشمس ورصـدهـا، البقع الشمسية)..	١١٠
– الجنة – إلحاق وتعليق (الأعـراف، سعة الجنـة، ليس في الجنة شيء مما في الأرض)..	١٣٥

القسم الثالث (قصة ذي القرنين)

الموضـــوع	الصفحة



الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

القسم الثالث (قصة ذي القرنين)

الموضـــوع	الصفحة





تطلب جميع منشوراتنا من :

الشركة المتحدة للتوزيع

بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة

هاتف ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ ص.ب ٧٤٦٠ برقياً : بيوشران